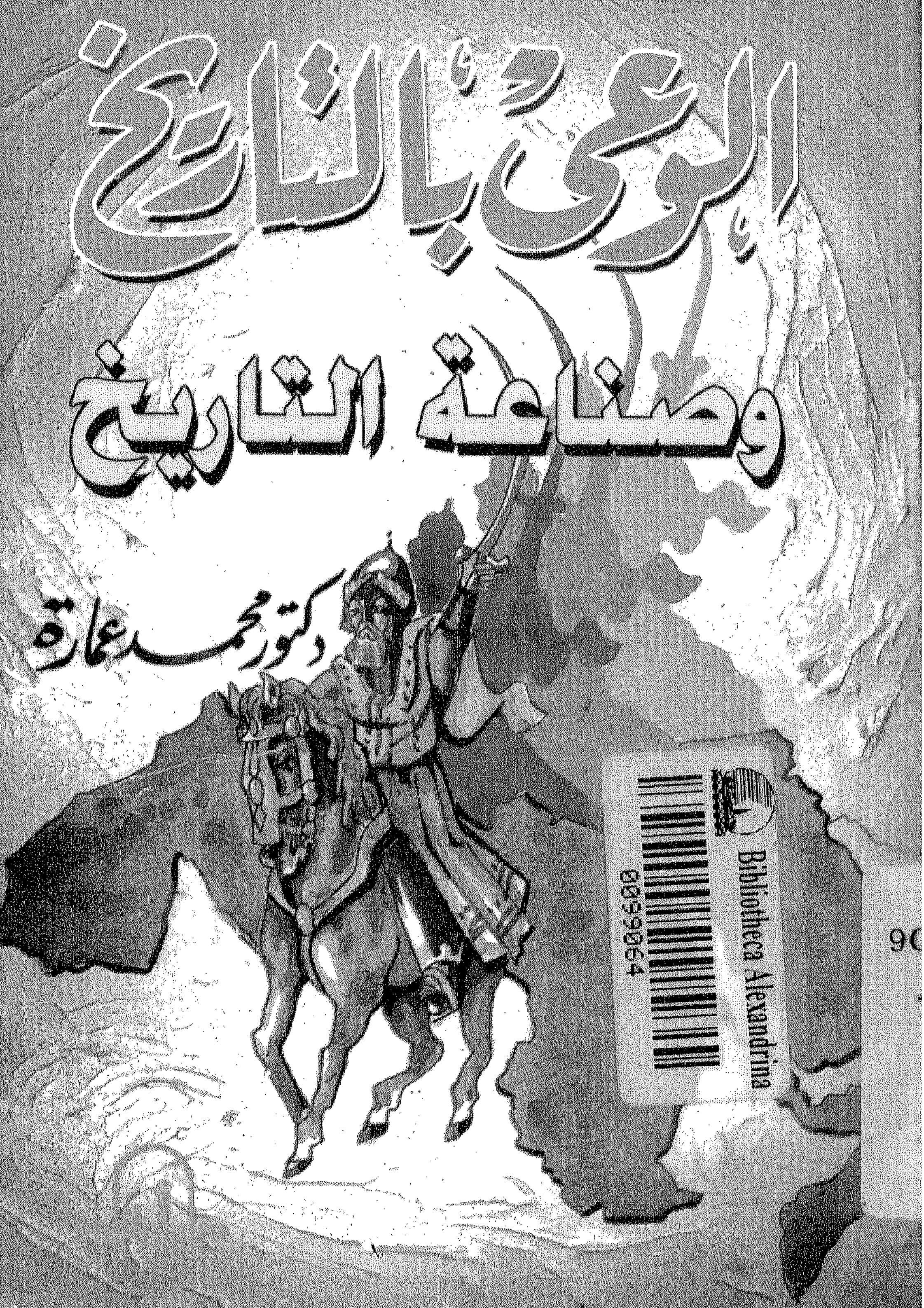

الوعي بالتاريخ
وصناعة التاريخ
دكتور محمد عمارة
Bibliotheca Alexandrina
00990064

الوعي بالتاريخ
وصناعة التاريخ

النـاشـر : دار الرشـاد

العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى . القاهرة

تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ . ٢٩٩٢٦١٥

رقم الإيداع : ٣٨٣٢ / ٩٧

الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 37 - 8

طبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ، ١٠ ش السلام . أرض اللواء . المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ . ٣٠٣٦٠٩٨

مكتب الجمع : ارمس للكمبيوتر

العنوان : ٣٢ ش على عبد اللطيف . مجلس الشعب

تليفون : ٣٥٦٤٤٠٤

الطبعة الثانية : ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م « الأولى للدار »

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

الوعى بالتاريخ

وصناعة التاريخ

الدكتور محمد عمارة



تمهيد فى
الوعى بالتاريخ .. وصناعة التاريخ

عندما تولى الدكتور بطرس بطرس غالى أمانة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، منذ نحو خمس سنوات ، فوجئ العرب والمسلمون بتصريحه الذى قال فيه : « إن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ م ، الخاص بالعدوان الإسرائيلى على كل من مصر وسوريا « والأردن وفلسطين » فى ٥ يونيو ١٩٦٧م ، والداعى إلى الانسحاب من الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى ذلك العدوان .. إن هذا القرار غير ملزم لإسرائيل ؟؟!!...

وأوضح الدكتور بطرس غالى يومها أن السبب فى عدم إلزام هذا القرار لإسرائيل بالانسحاب والجلاء عن الأرض التى احتلتها واغتصبتها من ثلاث دول عربية أعضاء فى الأمم المتحدة ... هو أن هذا القرار لم يتَّخذ بناء على أحكام الباب السابع من ميثاق المنظمة الدولية ، والذى يجيز استخدام القوة لتنفيذ القرارات الصادرة بناء عليه ! ..

ولعلها كانت بداية معرفة كثير من جمهور أمتنا العربية والإسلامية عن هذا « الباب السابع » وتميز القرارات الصادرة بموجبه عن غيرها من قرارات المنظمة الدولية ..

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة من مراحل « انتعاش الذاكرة العربية والإسلامية » وتأملها فى « المكاييل » التى تصدر بموجبها قرارات مجلس الأمن الدولى ! ..

فاحتلال إسرائيل لأراضى ثلاث دول عربية سنة ١٩٦٧م ، وغزوها للبنان عام ١٩٨٢م ، ثم ١٩٩٦م .. واحتلالها الدائم لجزء من الجنوب اللبنانى منذ نحو خمسة عشر عاما .. وقمعها الانتفاضة الفلسطينية ـ التى تفجرت فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٨٧م ـ وتحطيمها لعظام أطفال الانتفاضة .. وإعلانها الضم والتهويد للقدس ، والجولان .. وزرعها أراضى الضفة وغزة بالمستوطنات الصهيونية .. كل ذلك لا يستحق من مجلس الأمن قراراً ملزما بناء على «الباب السابع » من الميثاق !!.

والمجزرة التى أقامها للصرب فى البوسنة والهرسك بمباركة من أوربا ، وصمت من أمريكا .. العدوان المسلح ، وتمزيق الدولة ، والتطهير العرقى ، والإبادة الجماعية ، والاغتصاب المنظم لعشرات الألوف من النساء والبنات ، وتدمير المساجد والمكتبات والآثار التاريخية ، وتهجير الملايين واقتلاعهم من ديارهم .. إلخ .. إلخ ... لم يستحق شئ من ذلك الذى جرى فى البوسنة ـ منذ أبريل ١٩٩٢م ، وعلى امتداد أكثر من أربع سنوات ـ لم يستحق قراراً من مجلس الأمن ، بناء على « الباب السابع » من الميثاق ؟؟!! ..

وهذا الذى حدث ـ ولا يزال يحدث ـ فى الشيشان ، منذ ديسمبر ١٩٩٤م : من السحق والتدمير والإبادة التى تمارسها قوة عظمى ضد شعب لا يزيد

تعداده على المليون إلا قليلا !! .. هو الآخر لم يُذكِّر « الشرعية الدولية » بأن هناك « باباً سابعاً » فى ميثاق المنظمة « الدولية » يستحق الإعمال ، وأن تصدر بموجبه قرارات ملزمة لدوائر العدوان ؟! ..

لقد انتعشت الذاكرة العربية والإسلامية عندما تأملت هذه المآسى العربية والإسلامية فى ضوء موقف المنظمات الدولية وتجنب قراراتها الصدور بموجب « الباب السابع » من الميثاق ، فى قضايا ومآسى العرب والمسلمين ..

وكانت هذه الذاكرة تزداد انتعاشًا عندما قارنت ، فوجدت أن هذا الباب «السابع » الذى يجيز استخدام القوة لتنفيذ القرارات الصادرة بموجبه قد اختص الجانب العربى وحده بقراراته .. فبناء عليه صدرت القرارات ضد العراق ؛ لتجيع شعبه ، وتذل أهله ، وتنزع سلاحه ، بل ولتنزع سيادته الوطنية عن أرضه - فى الجنوب وفى الشمال - ولتمكن للقوات الغازية غربية وتركية من أن تسرح وتمرح فى سماء وأرض العراق ..

وبموجب « الباب السابع » صدرت قرارات الحصار ضد الجماهيرية الليبية وشعبها ، لإجهاض التنمية فيها ، ولتحويلها إلى سد يحول دون تواصل مصر والمشرق العربى مع المغرب العربى ، عقابا لها على رفضها للتسويات الأمريكية التى تفرض على المنطقة - حتى تكون عبرة للآخرين ! - وإحكاما لعزل مصر عن المغرب العربى ، بعد أن أسفرت حرب الخليج والتسويات المفروضة عن عزلها عن المشرق العربى !! ..

كل ذلك ، لا لشىء إلا لادعاء قائم على مجرد شبهة فى قضية طائرة لوكربى ؟! .. فلا دليل .. بل ولا قرينة .. بل ولا حتى تحقيق !! ..

وبموجب « الباب السابع » أيضاً أصدر مجلس الأمن قراره العقابى ضد السودان .. عداء لحكومته المتمردة على الهيمنة الغربية ، والمحاربة فى سبيل وحدة التراب الوطنى ضد قوى التمرد المدعومة من إسرائيل ، والمنظمات الكنسية والتنصيرية ، والأحزاب الماركسية ، والحكومات الغربية العلمانية جميعاً ..

وذلك حتى يتم - بحصار السودان - إكمال طوق العزلة من حول مصر .. فإسرائيل من شرقها ، والسودان وليبيا من الجنوب ومن الغرب !! .. وحتى يتمكن التمرد من فصل جنوب السودان ، وإقامة دويلة عميلة للغرب فيه ، تهدد مصر والسودان بسلاح مياه النيل .. وتغلق بوابة العروبة والإسلام دون قلب القارة الأفريقية !! ..

لقد انتعشت الذاكرة العربية والإسلامية ، وهى تتأمل الأحداث .. والقرارات .. وعلاقة « الباب السابع » بهذه القرارات ...

***

لكن هناك خطراً على وعى الذاكرة العربية والإسلامية من أن يظل انتعاشها حبيس واقع هذه السنوات الأخيرة ، لا يتجاوز أحداثها ... فتاريخ أمتنا العربية والإسلامية - على امتداد قرونه - بحاجة إلى تأمل ووعى هذه الذاكرة ؛ لتدرك أنها ليست بإزاء موقف جديد أو حديث أو معاصر .. وإنما هى بإزاء ذات الموقف الغربى الذى اتخذه الغرب منها ومن قضاياها ، منذ أن تبلورت هذه الأمة كثمرة من ثمرات ظهور الإسلام ..

* إن مشكلة الغرب معنا ـ التى اصطلح البعض على تسميتها « مشكلة الشرق الأوسط » !ـ لم تبدأ فى سنة ١٩٦٧م .. ولا فى سنة ١٩٤٨م .. ولا مع وعد بلفور سنة ١٩١٧م .. بل ولا مع مؤتمر هرتزل سنة ١٨٩٧م .. وإنما هى قد بدأت مع ظهور الإسلام ، وتحريره الشرق من الاستعمار البيزنطى ! والشاهد بهذه الحقيقة خبير غربى فى الحرب والسياسة ، هو الضابط الإنجليزى « جلوب باشا » ـ « أبو حنيك » ـ الذى عمل قائدا للجيش الأردنى حتى سنة ١٩٥٦م .. فهو صاحب العبارة « المنعشة » لوعى الذاكرة العربية والإسلامية ، والتى قال فيها ـ وهو يقدم لأحد كتبه عن الفتوحات العربية ـ : « إن مشكلة الشرق الأوسط قد بدأت منذ القرن السابع للميلاد » ؟؟ !! ..

* ولقد ظلت القسطنطينية ـ عاصمة الرومان البيزنطيين ـ تُجيِّش الجيوش ضد الدولة العربية الإسلامية ، منذ ظهور الإسلام ـ فى القرن السابع للميلاد ـ وحتى فتحها على يد « الفاتح » العثمانى (٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣م) ..

* ولقد عاد الغرب ـ تحت أعلام الصليب ـ ليستعيد الشرق الذى حررته الفتوحات العربية الإسلامية .. وأقام فى قلب وطن العروبة كياناته الاستيطانية على امتداد قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) ! ..

* وفى ظل الغزوة الصليبية وقعت القدس فى الأسر الصليبى لأكثر من تسعين عاما (٤٩٢ ـ ٥٨٤هـ / ١٠٩٩ ـ ١١٨٧م) .. وتحول المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية طول ذلك التاريخ !!

وفى ظل الغزوة الصليبية ، اقتحمت الجيوش الغازية أرض « مصر

الفاطمية» أكثر من مرة .. وحاصروا القاهرة ، وامتلكوا مفاتيح أبوابها ، بل وفرضوا عليها الجزية ، مستغلين الصراعات الداخلية للوزراء الفاطميين - «شاور» ... و « ضرغام » - ! ..

* وبعد نجاح دول الفروسية العربية فى حصار الكيانات الصليبية ، عقد الغرب - بواسطة البابوية - حلفا مع التتر الوثنيين ، ضد العرب والمسلمين ، فكان دمار بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) والشام (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م) .. حتى انهزم هذا الحلف فى « عين جالوت » (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م) .. وهو حلف « غربى - وثنى » قديم ، يمثل « تراثا » للحلف « الغربى - الصهيونى » الحديث ، ضد العرب والمسلمين ؟ ! ..

وعندما نجحت العسكرية العثمانية فى نقل ميدان الصراع التاريخى إلى قلب أوروبا - بعد فتح القسطنطينية - فأدخلت الإسلام إلى البوسنة (٨٦٩هـ / ١٤٦٣م) ضغط الغرب على بقايا الإسلام والعروبة فى الأندلس ، فسقطت غرناطة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م) .

* وفى ذات العام - عام اقتلاع العروبة والإسلام من الأندلس - بدأت حملة الغرب لتطويق العالم الإسلامى ؛ تمهيداً لغزو الوطن العربى ، وضرب قلب الأمة الإسلامية .. فبعد أشهر من سقوط غرناطة خرجت حملة « كولومبس » للالتفاف حول العالم الإسلامى .. فلما ضلت طريقها ، وذهبت إلى القارة الأمريكية ، خرجت - بدلا منها - الحملة البرتغالية - بقيادة « فاسكو دى جاما » - والتى عبرت ميناء « رأس الرجاء الصالح » (٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م) .. أى بعد

خمس سنوات من سقوط غرناطة .. وواصل البرتغاليون طريقهم ، حتى وصلوا إلى الشواطئ الإسلامية لشبه القارة الهندية .. وهناك خرج الجيش المصرى لقتالهم (٩١٠ هـ / ١٥٠٤م) ! ..

* وبعد مرحلة التطويق .. واحتلال أندونيسيا .. والهند .. وصل المد الاستعمارى الغربى إلى شواطىء الخليج العربى ..

* ثم كان الصراع « الصفوى - العثمانى » فتنة غربية ، شغلت العسكرية العثمانية ، وأضعفتها .. الأمر الذى أتاح للغرب بدء مرحلة الغزو والاحتواء لقلب العالم العربى .. فكانت حملة بونابرت على مصر (١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م) .. طليعة الغزوة الغربية الحديثة للعالم العربى ..

* وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر ، وجلائها (١٢١٦ هـ / ١٨٠١م) جاءت إلى مصر حملة « فريزر » الإنجليزية ، التى انهزمت فى « رشيد » (١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧م) ..

* ثم كان احتلال الجزائر ، من قبل فرنسا (١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠م) .

* واحتلال عدن ، من قبل إنجلترا (١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨م) .

* ومنع مصر بقيادة محمد على باشا من تجديد شباب الدولة العثمانية ، بمعاهدة لندن (١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م) .

* واحتلال فرنسا لتونس (١٢٩٨ هـ / ١٨٨١م) .

* ونجاح إنجلترا فى احتلال مصر (١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢م) .

* واحتلال إيطاليا لليبيا (١٣٢٩ هـ / ١٩١١م) .

* واحتلال فرنسا للمغرب (١٣٣٠ هـ / ١٩١١م) .

* وتقسيم جميع أقاليم الخلافة العثمانية بين القوى الاستعمارية الغربية . وفق معاهدة « سيكس ـ بيكو » (١٣٣٤ هـ / ١٩١٦م) ـ ولم تكن عين الغرب. فى معاهدة « سيكس ـ بيكو » غافلة عن « القدس » .. حتى لقد أقيم لـ « سيكس» ـ الإنجليزى ـ فى قريته « سيلدمير » بمقاطعة « يوركشاير » ـ نصب تذكارى ؛ يقف فيه « مزينا بالنحاس ، محصنا بالدروع ، متقلدا سيفا ، وتحت قدميه يرتمى مسلم ، فوقه لفافة كتب عليها : « ابتهجى يا قدس » ؟!..

* واحتلال إنجلترا للعراق (١٣٣٥ هـ / ١٩١٧م) .

* وإصدار وعد بلفور (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧م) ـ وهو الذى قنن الشراكة «الغربية ـ الصهيونية » .. تلك التى سبق ودعا لها بونابرت ، أثناء حصاره لعكا (١٢١٣ هـ / ١٧٩٩م) .

* واحتلال الإنجليز للقدس (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧م) .. ويومها قال الجنرال الإنجليزى « ألّلنْبِى » : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ! .. ونشرت مجلة «بنش Punch » البريطانية رسماً كاريكاتيرياً تحت عنوان : « آخر حملة صليبية » ! وفى الرسم يظهر « ريتشارد قلب الأسد » (١١٨٩ / ١١٩٩م) ـ الذى حارب صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) على أرض فلسطين ـ وهو يحدّق فى القدس ، قائلاً : « أخيراً تحقق حُلمى » ؟! ..

* واحتلال فرنسا لدمشق (١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠م) .. ويومها ذهب الجنرال

الفرنسى « جورو » إلى قبر صلاح الدين الأيوبى ، فركله بقدمه وقال : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » ؟! ..

* ومعاهدة « لوزان » (١٣٤١ هـ / ١٩٢٣م) - بين « الحلفاء الغربيين » وبين تركيا ، تلك التى قننت لطى صفحة الخلافة (١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م) ليغيب هذا الرمز الإسلامى لأول مرة فى تاريخ الإسلام ! ..

* وإقامة إسرائيل ؛ تجسيداً « للشراكة اليهودية - الغربية » على أرض فلسطين (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م) .

* واحتلال كامل القدس ، وبدء تهويدها (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م) .

* ليصل الغرب إلى الاحتفال بذكرى خمسمائة عام على بدء هذه الحقبة من حقب هذا الصراع « التاريخى - الحضارى » بإقامة الدورة الأوليمبية فى «برشلونة » على أرض الأندلس ، فى ذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام منها .. فلقد كان سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) وكان الاحتفال الأولمبى فى برشلونة (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م) !! .

* ومع الاحتفال الغربى بمرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من غرب أوربا .. بدأ ت فى نفس العام (١٩٩٢م) حرب البوسنة ؛ لاقتلاع الإسلام من قلب أوربا !! .. وهى الحرب التى حدد وزير الإعلام الصربى موقعها فى صفحات كتاب هذا الصراع التاريخى ، عندما قال : « نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة » ؟!.

***

* فهل تسهم هذه التواريخ ـ مع قصة تاريخنا المعاصر مع « الباب السابع » من ميثاق الأمم المتحدة ـ فى إنعاش وعى الذاكرة العربية والإسلامية بحقيقة الموقف الغربى من أمتنا عبر تاريخها الطويل ؟! ..

وهل تعى الأمة ـ ويعى الغرب أيضًا ـ أن وجودنا حتى اليوم ، فى مواقع الصمود والمقاومة ، طوال هذا التاريخ ـ ورغم هذا التاريخ ـ هو شاهد صدق على أننا الأمة التى تبعث فيها التحديات روح المقاومة ، وتستدعى فيها المخاطر أمضى ما فى ترسانتها من أسلحة النضال والجهاد ؟! .. وأن هذا هو موقعنا منذ القرن السابع للميلاد ، وحتى « الباب السابع » من ميثاق الأمم المتحدة ؟! ..

إن الوعى بالتاريخ باب من أبواب صناعة التاريخ ! ..

وتلك هى رسالة هذا الكتاب ..

القاهرة : ١٤١٧ هـ
١٩٩٦ م

دكتور

محمد عمارة

الأمة العربية
فى مواجهة التحديات

أمم كثيرة واجهت ـ فى فترات مختلفة من تاريخها ـ تحديات كبرى ، طرحت فى ساحاتها ذلك السؤال الذى يقض المضاجع : نكون ؟ أم لا نكون؟! .. ومع ذلك انتصرت هذه الأمم ، بعد أن استجمعت قواها ، وألفت بين عوامل قوتها ، وأجادت تصويب أسلحتها كلها إلى مقاتل الخصوم الذين فرضوا عليها تلك التحديات .

أمم كثيرة صنعت ذلك .. ومع هذا تبقى أمتنا العربية الإسلامية منفردة بكثرة ما فرض عليها الخصوم من تحديات ، وبضراوة ما شن ضدها من معارك ، وباستمرارية ذلك الصراع بينها وبين خصوم لها رغم تعاقب القرون، واختلاف الديانات ، وتغير الدول ، وتطور المحتوى الاجتماعى لأنظمة الحكم التى تسود عندنا أوعند هؤلاء الخصوم !..

فالموقع الحاكم الفريد : يغرى ! والتحكم فى طرق التجارة الدولية قديما ، وامتلاك الثروات الطائلة حديثا : يسيل اللعاب ! وكونها مهد النبوات ومهبط الرسالات وموطن الإلهام ، ومن ثم صانعة حضارات تميزت بالملاحظة والتجريب ، وامتازت بنموذج من العقلانية التى وازنت بين الروح والجسد ، والدين والدنيا ، حتى لقد تفلسف فيها الدين وتدينت الفلسفة !.. كل ذلك أصبح مصدر قلق ورعب لقوى وأنظمة وأنماط تفكير ومصالح سعت للقضاء على

هذه الأمة ، ففرضت عليها سلسلة من التحديات الكبرى والصراعات التاريخية التى كادت أن تصبح ـ لتتابعها ـ بمثابة « القانون » الذى يحكم علاقة هذه الأمة بهؤلاء الخصوم ، عبر تاريخنا الطويل !.

فموجة الغزو التي قادها الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م) وما أثمرته من دول ونظم ، قد استمرت سيطرتها بالمنطقة إلى أن حررتها منها فتوحات العرب المسلمين ، عندما لبس الشرق ثياب الإسلام السياسية واستخدم شجاعة المسلمين العسكرية فدفع تلك الموجة الغازية بعد عدة قرون من السيطرة والانفراد بالسلطة والسلطان .

وموجة الغزو الصليبى التى جاءت فى العصر الوسيط (١٠٩٧ ـ ١٢٩١م) لتحتل ما حرره العرب بعد الإسلام ، أقامت كياناتها ، وفرضت تهديدها ، وزرعت مخاطرها ، حتى هب إعصار المقاومة الذى اقتلع جذورها ، مستخدماً فى ذلك دول الفروسية وأنظمة العسكر التى بدأت بالزنكيين (١١٢٧ م) فى الموصل ، فالأيوبيين (١١٨٧ م) فالمماليك (١٢٥٠ م) بالقاهرة .

أما غزاة الحضارة الصناعية الرأسمالية ـ فى الغرب الحديث أولئك الذين بدأت موجتهم ببونابرت (١٧٩٨ م) ـ فلا تزال أمتنا تعالج ذيول موجتهم هذه حتى هذا التاريخ . فهى تحديات تكاد استمراريتها أن تجعل منها « قانونا » يحكم علاقات هذه الأمة بمواطن هؤلاء الغزاة .. ومن ثم فإن الدارس لتاريخ هذه الأمة يجد نفسه أمام « تحديات » قد بلغت من العنف والكثرة إلى الحد الذى كادت أن تصبح « ظاهرة » من ظواهر هذا التاريخ .

إذن فنحن أمام « تحديات » بلغت من العنف والكثرة والتكرار إلى الحد الذى

جعلها ـ ويجعلها ـ مما « تتميز » به هذه الأمة عن كثير من الأمم التى اصطدمت فى مسيرتها بألوان من التحديات .

ومن ثم فلابد وأن نكون بإزاء خاصية لهذه الأمة جعلتها تنتصر تلك الانتصارات غير العادية على تلك التحديات غير العادية ، وهى الانتصارات التى لم تضمن فقط بقاء هذه الأمة عندما استعصت على الفناء أو الذوبان فى الغزاة ، بل جعلت من اللحظات التى بلغ فيها الخطر ذروته وتصاعد فيها التحدى إلى القمة لحظات التجدد والتطور وامتلاك أدوات التقدم والصعود إلى طور جديد من أطوار هذه الأمة عبر تاريخها الطويل .. فنحن إذن أمام أمة تمتلك استجابة من النوع الفريد تقدمها عندما تشتد عليها الأخطار وتطبق عليها المحن وتحدق بها التحديات .. وهذه ـ ولا شك ـ إحدى القسمات الهامة فى شخصية هذه الأمة ، تستحق الدرس الموضوعى الذى يقيم الأمس ، ويعين على مواصلة السير فى ذات الطريق !..

بعد عام الفيل :

كانت الحملة العسكرية الحبشية على وسط شبه الجزيرة العربية ، والتى اشتهرت بغزوة الفيل (٥٧١ م) بمثابة بلوغ التحدى الموجه للعرب ولشعوب هذه المنطقة الذروة .. وفى ساحاتهم طرح السؤال: نكون ؟ أو لا نكون ؟!..

فالروم البيزنطيون كانوا قد فرضوا سلطتهم على مصر وأجزاء الشمال الأفريقى الواقعة إلى الغرب منها ، وتعقبوا لغة مصر وتقاليدها ومذهبها الدينى حتى اضمحل منه ما اضمحل ، وذبل ما ذبل ، وفر إلى أديرة الصحراء وكهوف الجبال ما استعصى على الاضمحلال والذبول .

ثم هم قد فرضوا سلطتهم وسلطانهم على الشام ، وسطا وشمالا وجنوبا ، وهناك نشروا مذاهبهم فى النصرانية بين العرب « الغساسنة » الذين تحولوا إلى جند فى جيش بيزنطة ، يساقون إلى محاربة الفرس الذين جندوا أيضا عرب العراق « المناذرة » بعد أن استبدوا بمقدرات بلادهم ، فأصبح عرب الغساسنة وعرب المناذرة يحارب بعضهم بعضا ، لحساب الغير وقودا فى ذلك الصراع التاريخى بين الأكاسرة الفرس والقياصرة الروم !..

وهم كذلك - أى الروم البيزنطيون - قد أعانوا الحبشة على غزو اليمن فانتزعتها من استعمار الفرس ، فتحقق لهم بذلك إحكام القبضة على أغلب أجزاء المنطقة ، حتى لم يبق بعيدا عن هذه القبضة سوى المنطقة الأكثر فقرا والأشد وعورة : وسط شبه الجزيرة العربية .. فكانت غزوة الفيل المحاولة التى استهدفت استكمال السيطرة ، والحيلولة دون اختمار - أو نمو - أية ردود فعل تتجه فيها القبائل للمقاومة التى تتصدى للتحدى الذى بلغ الذروة وأوشك أن يحقق كل ما يريد !..

وليست بمهمة - ولا هذا مكانها - تفاصيل وحقائق الأسباب التى أثمرت فشل غزوة الفيل .. وإنما المطلوب هو معرفة نوع الإجابة التى أجاب بها أسلافنا على هذا التحدى فى ذلك التاريخ .

فغير الطير الأبابيل : تذكر مصادر التاريخ مقاومة القبائل العربية لجيش أبرهة ومهاجمتها له على طول طريقه من اليمن فى اتجاه مكة .. وتذكر قصة ذلك الدليل « العربى » الذى خان قومه فدل أبرهة على الطريق - واسمه «أبورغال » - وكيف مات ، فرجم العرب قبره ، بل وظلوا يرجمون هذا القبر

حتى بعد الإسلام ، إذ ظل المسلمون - دينا - يرجمون فى الحج رمز الشر ممثلا فى إبليس ، وظلوا كذلك - وطنية - يرجمون - فى كل الأوقات - رمز الخيانة الوطنية والقومية : « أبو رغال » !..

ولقد أثمر تقدم الخطر والتحدى إلى منطقة القلب التى ظلت وحدها بعيدة عن السيطرة والاحتواء ، أثمر ذلك نمو الحس التوحيدى لدى عرب وسط شبه الجزيرة ، فأسرعوا الخطو فى تطورهم نحو التوحيد ، بانتشار اللغة الأدبية الواحدة ، وعن طريق الأسواق والمهرجانات ومواسم الحج ، وسلام الأشهر الحرم ونشأة المنطقة الحرام .. الخ .. الخ ، ثم بحكومة أشراف مكة التى تطلعت إلى خارج حدودها .

وعندما تمكن عرب الجنوب فى اليمن من تحرير بلادهم - بقيادة سيف بن ذى يزن - جاء إلى بلاطه ممثلو حكومة مكة ، يجددون الصلات ، ويوثقون الروابط ، ويوحدون الجهود، وأقاموا هناك شهرا كاملا ينجزون فيه هذه المهام.

ثم كان ظهور الإسلام بمكة - قلب وسط شبه الجزيرة - على يد محمد بن عبد الله ﷺ الذى ولد عام الفيل ؟.. وكان التوحيد الدينى جوهر رسالته الدينية .. ومنذ البداية بدأت تبرز أفكار وأهداف التوحيد السياسى والقومى للعرب ، باعتباره الوجه الثانى للعملة الواحدة ، والسبيل لانحسار موجة الغزو وخطر التحديات التى أطبقت - أو كادت - على العرب من كل اتجاه .. وسمعنا عن تلك الكلمات التى تحدث بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلى عمه أبى طالب فى مراحل الدعوة الأولى ، عندما حدثه عن التوحيد الدينى الذى تجسده شهادة أن لا إله إلا الله .. وكيف أن لعملة التوحيد الدينى هذه وجها آخر سيقود العرب - إن هم اتبعوه - إلى كنوز كسرى وملك قيصر ! يقول

الرسول لأبى طالب : ياعم! إنما أدعوهم إلى كلمة يوجد لهم منها خير .. كلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم .

وفى يثرب ـ المدينة ـ حيث كان اليهود قد غزوها بعد شتاتهم ، وكما يقول الجاحظ (٧٧٥ ـ ٨٦٨ م) استعمروها بالسيطرة على واحاتها الزراعية ، وحولوا عربها إلى « موالى » ـ مواطنين من الدرجة الثانية ـ الأمر الذى أسرع بعرب يثرب إلى الإيمان بالدين الجديد ، وإبرام عقد تأسيس الدولة العربية الإسلامية مع الرسول فى بيعتى العقبة، حتى لا يسبقهم اليهود إلى تلك الراية .. فكانت الدولة التى قدر لها أن تقود الفتوحات التى أنهت سيطرة بيزنطة على الشرق ، وغيرت الخريطة السياسية والحضارية للعالم ، فتشكل تاريخه على نحو جديد .. بعد أن خيل لخصوم هذه الأمة ـ يوم غزوة الفيل ـ أن بداية نهايتها قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى .

فبعد كتب الرسول ورسائله وسفاراته إلى الحاكمين فى فارس و الشام ومصر والحبشة ، تقدمت الجيوش العربية ـ منذ أواخر عهد أبى بكر وخلال خلافة عمر بن الخطاب ـ تقدمت فى المشرق والمغرب والشمال، لا لتعتدى .. فهى لم تحارب ـ أساسا ـ العنصر الوطنى ، وإنما حاربت ـ أساسا ـ حاميات الروم البيزنطيين ، ولا لتفتح فتحا دينيا تدخل الناس بواسطته إلى دين الله الجديد ، فالإيمان تصديق بالقلب ـ أى باليقين ـ واليقين غير التسليم ، ومن ثم فلم ولن يعرف التاريخ السيف سبيلا إلى اليقين !.. ثم لقد كان هذا الفتح موجة من الانتشار الواسعة ، أسهم فيها بدور بارز : الأعراب ـ الذين انخرطوا فى هذا المد القومى والسياسى ، دون أن يدخل الإيمان بالدين الجديد إلى قلوبهم ـ والمؤلفة قلوبهم : الذين حاربوا بالأجر لا الإيمان ، وعرب الشام والعراق : الذين

انخرطوا فى الجيش العربى الفاتح دون أن يغيروا ديانتهم.. فحارب نصارى العرب الغسانيون تحت قيادة المسلمين ضد نصارى الروم البيزنطيين ـ دون أن يدفعوا الجزية ـ فأسهموا فى بناء الدولة العربية بعد تحرير ولاياتهم من سيطرة الروم .. وقبط مصر : الذين أعانوا على فتحها ، وساعدوا جيش عمرو ابن العاص ضد الحاميات البيزنطية .. وكذلك فعل البربر فى الشمال الأفريقى الأمر الذى أثمر إمبراطورية اجتمعت عناصرها الوطنية فتسلحت بشباب الدين الجديد ، واستعانت بفتوة المؤمنين به ، على دفع السيطرة الأجنية عن أرضها وأنجزت هذه المهمة فى سنوات قليلة ، بينما حدث التعريب والتحول إلى الإسلام ، من قبل الأغلبية فى عدة قرون ، كأية عملية حضارية تبدأ وتنمو وتكتمل وفق ما تحدده لها سنة التطور من قوانين .

وما على الذين يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى الصلة الوثيقة بين دولة المسلمين الكبرى وفتوحاتهم العسكرية المظفرة وتوحيدهم القومى لتلك المنطقة إجابة على التحديات التى هددت وجودهم وقهرا للأخطار التى كادت تطبق على آخر معاقلهم المستقلة عام الفيل .. صلة كل ذلك برسالة السماء إليهم ، ودعوةالقرآن لهم كى يؤمنوا برسوله الكريم .. ما على الذين يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى هذه الحقيقة وتلك الصلات إلا أن يتأملوا تلك الآية القرآنية التى تحدثت عن أثر الإسلام على وحدة العرب ، وكيف مهد لهم إنجازات تلك المهمة التى أنقذتهم من ذلك التمزق والشتات الذى كانوا عليه يوم سقط معظمهم فى براثن أعدائهم ، فأصبحوا فريسة تتخطفها الطيور الجوارح المتمثلة فى المخاطر والتحديات « البيزنطية ـ الفارسية » لقد كادت التحديات أن تميتهم ثم كانت استجابتهم للتوحيد القومى إحياء لهم جابهوا به هذه التحديات .

يقول الله ـ سبحانه ـ للعرب فى كتابه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ..﴾(١) ثم يذكرهم بما كانوا عليه فيقول : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٢٦) ﴾ (٢) .

أما التحديات التى تمثلت فى هؤلاء الناس الذين كانوا يتخطفون العرب ، فلقد عرفها العرب الذين نزل عليهم القرآن جيدا ، وأدركها المفسرون لآياته عندما قالوا : إن الخطاب هنا موجه للعرب كافة ؛ فإنهم كانوا أذلاء فى أيدى فارس والروم .

هكذا حدثت أولى وحدات العرب القومية فى التاريخ ، وهى الوحدة التى امتدت برباط التعريب وقسمات العروبة بعد الفتوحات لتشمل ما بين الخليج والمحيط .

ومنذ عصر تلك الفتوحات ـ وحتى اليوم ـ وقف كل الدارسين مشدوهين أمام ظاهرتها ، وخاصة تلك السرعة القياسية التى تمت بها .. والبعض قد نسب ذلك إلى ضعف الخصوم وشيخوخة نظمهم العسكرية والحضارية .. وظل الكثيرون بعيدين عن أن يبصروا الدور الحاسم لتلك الخاصية التى امتازت وتميزت بها شخصية هذه الأمة : الرؤية والبصر الواعى ـ عندما يحدق

---

(١) الأنفال : ٢٤ .

(٢) الأنفال : ٢٦ .

الخطر ـ لسر تفوق الخصم ، وتحصيل هذا السر وامتلاك أسبابه ثم الاستجابة القوية والإيجابية للتحديات ، وتحويل اللحظات التاريخية التى يخيّل فيها للخصوم أنهم قد أوشكوا على جنى الثمار إلى لحظات الهزيمة لمخططاتهم ، والانطلاق إلى رحاب دور حضارى جديد على درب تطور هذه الأمة الدائم والطويل .

وليس غير رصد هذه القسمة من خلال صراعات هذه الأمة العديدة ـ عسكرية أو فكرية أو حضارية ـ السبيل لجلاء ما تمتاز وتتميز به هذه الأمة فى هذا الميدان .



البعد الحضارى

فى صراعات الأمة العربية

فى دوائر الفكر والثقافة - بالوطن العربى - يزداد ويتسع الاقتناع بأن الصراع السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تخوض الأمة العربية معاركه ضد أعدائها هو فى حقيقته جزء من كل ، ومظهر من مظاهر الصراع التاريخى الذى خاضته هذه المنطقة منذ عصور سحيقة ضد أعدائها ، والأوربيين منهم على وجه التحديد .

فمثل دورات المد والجزر فى المحيطات ، ومثل الأعاصير والتيارات العاصفة المتصارعة والمتعاكسة ، كانت القوانين التى حكمت صراع منطقتنا ضد السيطرة الأجنبية ، وكانت الحركة التى جسدت هذا الصراع عبر تاريخها الطويل ..

فقبل ظهور الإسلام كان العنصر الفارسى هو قائد الشرق الذى تصدى لزحف الإغريق ، وخاض معهم حروبا امتدت قرونا ، حتى أنهكت طرفى الصراع .. وعندما استطاعت الموجة الغازية التى قادها الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أن تجسد سيطرة الغرب على الشرق ، كانت قوانين الصراع تفتح الباب لبروز العنصر العربى الذى تسلح بالإسلام عند بزوغ فجره ، فحارب تحت راياته .. وشهد التاريخ يومها كيف انتظم الشرقيون : العرب الذين آمنوا بالدين الجديد ، والأعراب الذين أسهموا فى بناء الدولة الإسلامية

دون أن يدخل الإيمان بالدين إلى قلوبهم ، والعرب الغساسنة المسيحيون ، وأقباط مصر المسيحيون ، وبربرالشمال الأفريقى الوثنيون .. أسهم هؤلاء العرب والشرقيون جميعاً - تحت رايات الإسلام - فى صد الموجة البيزنطية الغازية ، وتتبعوا فلول حامياتها العسكرية ، وبنوا تلك الإمبراطورية التى أعطت العنصر العربى دور القائد فى هذا الصراع التاريخى بدلاً من الفارسيين ..

ثم جاءت الحملات الصليبية (١٠٩٦ / ١٢٩١ م) كى تعيد سيطرة الغرب على الشرق من جديد ، وعاشت دويلاتها وكياناتها العنصرية الاستيطانية حتى اختلج ضمير هذه الأمة ، فأفرز الأنظمة المؤسسة على فروسية العصور الوسطى ، ذات الشمائل الإسلامية والتقاليد الشرقية والعربية ، وأهمها الدولة الزنكية (١١٢٧/ ١٢٦٢ م) وقائدها البارز نور الدين الشهيد (١١١٨ / ١١٧٤م) والدولة الأيوبية (١١٧١/ ١٢٥٠ م) وبطلها المظفر صلاح الدين (١١٣٧/ ١١٩٣ م) فدفعت بالموجة الصليبية إلى الوراء ، حتى أجهز عليها المماليك بتحرير الملك الأشرف لآخر حصن للصليبيين - عكا - ١٢٩١ م .

ثم جاء الغزو الاستعمارى الأوروبى، مع مطلع العصر الحديث ، ليبدأ جولة جديدة فى ذلك الصراع التاريخى القديم ، وهى الجولة التى أقامت الكيان الصهيونى العنصرى ؛ كى يمارس مهام الكيانات الصليبية فى العصر الوسيط ولازالت شعوب أمتنا تعالج حتى اليوم قضايا ومعارك صراعها مع هذه الغزوة التى بدأت بحملة بونابرت ١٧٩٨ م .

هو - إذن - صراع قديم ، تغيرت الخرائط الدينية واللغوية والقومية لأطرافه، ولكن جذوره ظلت كامنة تفرز المعارك وتذكى الصراعات ..

والذين يلقون نظرة ـ ولو سريعة ـ على الخريطة السياسية لعالمنا المعاصر ، يرون الكثيرمن بؤر الصراع ومناطق التفجر ، غير منطقتنا العربية ، لكن مختلف أطراف الصراع فى منطقتنا يعترفون ويعلنون أن لصراع هذه المنطقة « حساسية » و«خطورة » تميزه عن غيره من صراعات المناطق الأخرى ..

والبعض ـ اليوم ـ يبسط أسباب هذه الحساسية والخطورة تبسيطا مخلا ، عندما يرجعها إلى ما فى جوف هذه المنطقة من ثروات ـ أهمها البترول ـ أو إلى الاتجاه نحو أنظمة اجتماعية لا يرضى عنها الغزاة .. ومن قبل حاول آخرون أن يردوا أسباب هذه الحساسية والخطورة إلى الموقع الفريد لهذه المنطقة ، كمعبر للتجارة العالمية وهمزة وصل لأهم قاراته .. ولكن قدم هذا الصراع الحساس والخطير ، وسبقه على اكتشاف البترول وعلى الاتجاه نحو الأنظمة الاجتماعية الجديدة ، واستمرار احتدامه حتى فى الفترات التى تحولت فيها طرق التجارة من قلب المنطقة إلى ما حولها ، يدعونا إلى أن نبحث عن أسباب « حساسية » هذا الصراع و «خطورته » فى غير ما هو متبدل ومتغير وطارىء من العوامل والظروف ..

***

وهذه المقدمة التى تثير قضية لتطلب لها حلا ، تقف بنا أمام المقولة التى نريد أن نلفت إليها الأنظار .. مقولة : (إن لصراع هذه الأمة ضد أعدائها طابعا حضاريا موغلا فى القدم ، وسابقا على كل الملابسات الآنية والمتغيرة ، ووثيق الصلة بالطابع المميز لهذه الأمة عن أعدائها .. وهو « حساس » و«خطير» لأن هذه الأمة ليست مجرد شعب يسعى للاستقلال والتقدم ، وإنما

هى أمة صاحبة عطاء حضارى قديم .. وهى اليوم لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف ـ فقط ـ إلى معسكر الأحرار أمة جديدة ، وإنما لتعود من جديد إلى مواصلة العطاء الحضارى ، بل ولتقفز إلى صدارة الأمم التى مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الإنسانية الطويل !) ..

وإن الوقفة المتأملة والمتأنية أمام هذه المقولة تدعونا إلى أن نقدم بعض التفصيل فى عدد من النقاط :

فأولا : إن تاريخ الإنسانية الحضارى قد عرف نوعين من الحضارات التى تميزت بالعراقة والأصالة والعمق والعطاء ..

نوع اتصف بكل ذلك ولكنه ظل محليا ، اقتصرت تأثيراته على مواطنه وأمته ، أو وقفت هذه التأثيرات عند الشعوب التى جاورت مواطن هذه الحضارات .. وفى هذا النوع تدخل الحضارة الصينية القديمة والحضارة الهندية .. أما النوع الثانى فتمثله تلك الحضارات التى اتخذت طابعا عالميا ، وامتدت بتأثيرها ليشمل أمما وشعوبا عاشت بعيدا عن مهد هذه الحضارات .. ومن أبرزحضارات هذا النوع : الحضارة « الإغريقية » والحضارة « العربية ـ الإسلامية » ..

وثانيا : لقد تميزت الحضارة « العربية ـ الإسلامية » عن حضارة الإغريق واليونان باستفادتها الكبرى من المنابع الحضارية التى عاشت فى المواطن التى كونت أجزاؤها إمبراطورية العرب والمسلمين .. فالإسلام الذى كشف عن مميزات العنصر العربى قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خيرما فى حكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس ، بل وتراث اليونان ، ثم أخذ يضيف

إليها ـ أخيرا ـ ما دلته عليه الكشوف الحديثة من نواحى عبقرية المصريين القدماء ..

وهذه الميزة التى امتازت بها الحضارة « العربية ـ الإسلامية » ليس مبعثها الموقف « الانتقائى ـ التلفيقى » ، وإنما مردها إلى الطابع التحررى الذى حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات العربية الإسلامية الأولى ، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعى لثمرات الأمم المقهورة ، ولم يجعلها ـ كما كانت بيزنطة ، مثلا ـ القوة القاهرة التى تفرض طابعها الحضارى ومذهبها الدينى على الآخرين .. ومرد هذه الميزة كذلك إلى « الموقف الوسطى » الذى غلب على نهج العرب المسلمين فى التفكير ، وهو الموقف الذى رفض التطرف، فتقبل العناصر المتعددة والقيم المتنوعة ، وأتاح لها مناخ التفاعل والائتلاف حتى صارت بناء حضاريا متميزا ..

ولقد أثمر هذا الغنى الحضارى فى المصادر والمنابع غنى وثراء فى العطاء، ليس فى حاجة إلى إيضاح أوتفصيل ..

وثالثا : إن الحضارة « العربية ـ الإسلامية » ، من بين الحضارات العريقة ذات الطابع العالمى ، تنفرد الآن بوجود أمتها وشعوبها التى تؤمن بها ، وتعيش فى كنف قيمها ، وتتحصن فى معاركها وصراعاتها بحصونها ، وهذه الأمة وهذه الشعوب لازالت صالحة لدخول الساحة العالمية كى تواصل وتمارس التأثير والعطاء الحضارى من جديد .. وهذه هى المهمة التى بدأت تتجه إليها منذ مطلع القرن الماضى ، ولازالت تناضل فى سبيلها .. وهى أيضا المهمة التى يقاتل دون نجاحنا فيها أعداء كثيرون !

حقا إن حضارة الإغريق واليونان قد طبعت الحضارة الأوروبية الحديثة ، وأصبحت لها تراثا ، ولكن أوروبا ليست أمة واحدة ولا قومية واحدة ، كما هو

حال الجماعة البشرية التى تمثل الحضارة « العربية ـ الإسلامية » بالنسبة لها المنطلق والحصن ومنظار الرؤية والسلاح .. فهى ميزة تنفرد بهاحضارتنا وتتميز عن الحضارات العريقة ذات الطابع العالمى .

ورابعا : إن شعوب أمتنا العربية تتاح لها اليوم فرصة ذهبية لتستفيد من طاقاتها الخلاقة ومن ثرواتها ، وبما لديها من أوراق وأسهم بميدان المنح والمنع فى الصراعات الدولية الراهنة .. لتستفيد بكل ذلك فى إنجاز مهمتها الرئيسية المعاصرة ، وهى : العودة ـ مرة ثانية ـ بالتحرر والتقدم والوحدة إلى ممارسة دورها التاريخى فى العطاء الحضارى ، والإسهام فى تشكيل الوجدان الإنسانى بالقيم الأصيلة والمتقدمة التى سبق وأن مارست العطاء والإسهام بها فى فترات طويلة من التاريخ .

فهو ـ إذن ـ صراع حضارى كان كذلك ـ ولا يزال ـ وسيظل ما بقى فى هذا العالم مبرر لبقائه .. هذا هو سر دوامه ، رغم تبدل العوامل الآنية والمتغيرة عبر تاريخه الطويل .. وهو نفس سبب ضراوته وشراسة معاركه وقسوتها ، وهى الضراوة والشراسة والقسوة التى تتزايد حدتها ، رغم ما يغلفها أحيانا من أغلفة لا تنجح فى حجبها عن بصائر الباحثين ومصالح أطراف الصراع !

ونحن عندما ندرك هذه الحقيقة نلمس أن دراستها ـ بالعمق والتفصيل الضروريين ـ لا تدخل فقط فى باب الدراسات التاريخية المتعلقة بتقييم صفحات الماضى الذى غبر وانقضى ، بل نجدها ـ قبل كل شىء ـ دراسة لاستراتيجيتنا فى صراعنا الراهن والمستقبل ضد ما يعترض طريق هذه الأمة من تحديات ..

فالهدف ليس فقط تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك سبل العصرية ومناهج التقدم .. وإنما الهدف هو ـ أيضا ـ توظيف كل ذلك فى سبيل

بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة ، تمكينا لها من العودة ثانية كى تعطى حضاريا على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنى مما كانت عليه فى عصور ازدهارها التى شهدت عطاءها الحضارى القديم ..

وإذا كان الهدف الأصيل والكبير لنضال هذه الأمة هو أن تعود ـ بالتحرر والتقدم والوحدة ـ إلى موقع الصدارة والتأثير الحضارى .. فلعل فى ذلك ما يعيننا على فهم بعض المواقف التى يستعصى أحيانا فهمها على الكثيرين منا . مواقف الذين تتفق مصالحهم مع مصالحنا فى : التحرر ، والتقدم .. ولكنهم لا يتعاطفون مع أمانى هذه الأمة فى الوحدة ، التى بدونها لن تقفز من مواقع «الشعوب المتحررة » إلى موقع « الأمة صاحبة العطاء الحضارى » الذى يؤهلها لمكان الصدارة الذى تريد !

كما أن وعينا لهذه الحقيقة يفرض علينا أن نتساءل : ما هى القسمات الأصيلة فى حضارتنا « العربية ـ الإسلامية » التى مكنت هذه الأمة من ممارسة دورها المعروف فى « العطاء الحضارى » ؟؟ وما هى القسمات التى طرأت فدخلت بهذه الأمة إلى موات العصور المظلمة ، والتى لازالت تحد من قدراتنا على الانعتاق والانطلاق ؟؟ ..

ذلك أن فتح هذا « الملف » ـ (ملف تراثنا العربى ـ الإسلامى) ـ سيضع يدنا على القسمات الأصيلة فى حضارتنا ، والتى نستطيع بالانطلاق منها أن نبلور ذلك الزاد الحضارى المعاصر كى تتقدم به أمتنا إلى الساحة العالمية .. أما اذا استمسكنا بالقسمات التى طمست فاعليتنا الحضارية فإننا نكون بذلك ـ شئنا أم لم نشأ ، بوعى أو بحسن نية ـ قد وضعنا جهودنا وطاقاتنا فى خدمة الأعداء ، الذين كانوا ـ ولا يزالون ـ يناضلون ضد تبوؤ هذه الأمة لمكانها الطبيعى ، كواحدة من الأمم الكبرى ذات العطاء الحضارى العظيم !

الوعى بالتاريخ والمستقبل العربى

قال أسلافنا القدماء - من علماء التاريخ وكتابه - : إن قراءة التاريخ تضيف لقارئه عمرا ثانيا، وإنها - من ثم - تضاعف العمر ؛ لأنها تضيف إلى عمر القارئ عمر الشعوب والقادة والأبطال الذين قرأ تاريخهم ، عن طريق إكسابه خبراتهم، وجعله يعيش ماعاشوا من أحداث ووقائع وأيام ..

ولما كان كلام أسلافنا القدماء عن « قارئ » التاريخ ، فإننا نستطيع أن نضيف هنا : أن « الوعى » بالتاريخ يكسب أصحابه إلى جانب عمرهم وعمر أسلافهم أيضا عمر الأجيال التى لم تأت بعد !!.. لأن « الوعى » بالتاريخ تتجاوز فائدته وثمراته حدود الاستفادة بهذا «الوعى» فى حياتنا الحاضرة وبناء واقعنا المعاش ، إلى التأثير فى المستقبل - القريب منه والبعيد - ومن ثم فنحن نضيف إلى أعمارنا - إذا « وعينا » تاريخنا - أعمار الأقدمين ، ونسهم كذلك فى زيادة أعمار الأجيال القادمة ، بما نضعه على دروبها من أضواء ، وما نقدمه لتجاربها وخبراتها من إضافات ..

ومن هنا حق لنا أن نقول : إن «الوعى» بالتاريخ إنما يمثل سلاحا من أكثر الأسلحة فعالية فى بناء مستقبل الأمة التى تجاوز أبناؤها حدود « القراءة » لتاريخها إلى رحاب « الوعى » بهذا التاريخ..

وإذا كانت الفروق الجوهرية بين « قراءة » التاريخ ، وبين « الوعى » بهذا

التاريخ من الوضوح لدى أصحاب الثقافة التاريخية إلى الحد الذى يجعلنا نمر عليها دون إفاضة فى الحديث ، فإننا نود أن ننبه إلى أن قضية « الوعى » بالتاريخ لا تتطلب فقط « ذكاء» الدارس والباحث والمؤرخ ، وقدرته على «الفهم» والتحليل ، وإنما لابد لهذه المهمة من الارتكاز على منهج علمى فى دراسة التاريخ وتناول صفحاته وأحقابه وأحداثه والعلاقات التى تربط ربطا موضوعياً وجدلياً بين ما يراه البعض ركاماً من الأحداث ، ومن ثم اكتشاف الروح السارية دائماً والنامية أبداً فى هذا التاريخ ، ودرجة النمو واتجاه السير ، وعلاقات ذلك بالقوى الاجتماعية والتيارات القومية والتأثيرات الداخلية والمؤثرات الخارجية ، وعوامل المد والتصاعد وقوى الجزر والهبوط التى اعترضت وتعترض مسار الأمم والطبقات فى هذه المسيرة التى لازالت زاحفة والتى بدأت مع بدء الإنسان ممارسة الحياة ..

وإذا شئنا أن نخرج من إطار التعميم والصياغات المجملة إلى تلمس الأمثلة التى تجعل من هذا التعميم وتلك الأحكام حقائق واضحة الدلالة ، ودروساً مفيدة فى واقعنا العربى الراهن ومستقبلنا القومى المأمول ، فإننا نستطيع أن نقدم العديد من الأمثلة الدالة على أن « الوعى » بالتاريخ العربى والإسلامى هو أمر شديد النفع ، بل وضرورى ضرورة قصوى لبناء المستقبل العربى المتحرر والمتقدم والمتحد ، على الصورة التى يحلم بها الإنسان العربى فى وطنه القومى الكبير ..

الوطن القومى .. والجسم الغريب :

فنحن إذا نظرنا ـ مثلاـ فى واقعنا العربى الراهن ، ونظرنا فى الأبعاد الحقيقية لذلك الحلف غير المقدس القائم اليوم بين الحركة الصهيونية العنصرية

وبين الإمبريالية ، وسعيهما معا منذ تكوين الحركة الصهيونية الحديثة سنة ١٨٩٧ م لإقامة ذلك الكيان العنصرى الغريب فى قلب الوطن العربى ؛ كى يقطع « وحدة الأرض العربية » فيفقد حركتنا القومية العربية شرطاً ضرورياً وأساسياً من شروط وجود القومية ـ أية قومية ـ ويلعب دور « القبضة الحديدية » التى تستخدمها الإمبريالية فى ضرب قوى التحرر والتقدم العربية حتى لا تتجاوز مواقع تخلفها وتفككها وآفاق العصور الوسطى .

إذا نظرنا نحن فى هذا الواقع الراهن الذى نعيش أحداثه ، ونتصدى بالشجاعة والحزم لتغييره، ثم نظرنا فى تاريخنا ، وحاولنا « وعى » صفحات ذلك الصراع التاريخى القديم والمستمر بين شعوب هذه الأمة وبين الغزاة والطامعين ، فإننا سنجد « بالوعى » وحدة فى قوانين ذلك الصراع التاريخى ، رغم اختلاف العصور ، وتبدل الأشكال ..

فمثلا .. عندما قامت دولة العدو الصهيونى سنة ١٩٤٨ م كانت هناك أفكار عرضها الوسيط الدولى « الكونت برنادوت » تطلب إعطاء جنوب صحراء النقب للفلسطينيين كى تكون جزءا من دولتهم التى حددها لهم قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ .. وكان اقتراح برنادوت هذا يعنى الإبقاء على « الاتصال الأرضى » بين المشرق العربى ومصر والمغرب العربى .. ولكن هذا الاقتراح، ومن ثم ذلك « الاتصال الأرضى » كان يتعارض جذريا مع المخطط الإمبريالى الذى يريد «جسما عنصريا غريبا » يفقد حركة القومية العربية أحد الشروط الهامة الضرورية لوحدتها .. فكان تفاهم « وايزمان » مع « ترومان » على أن أى تقسيم لصحراء النقب يجب أن يكون ـ إذا كان ـ رأسيا لا أفقياً ، وأن الدولة الصهيونية لابد وأن تطل على خليج العقبة ، حتى تقطع الوحدة

الأرضية للأمة العربية ... وبالفعل كان ذلك ، بل وكان القتل نصيبا لبرنادوت جزاء لتفكيره فى هذا الأمر المحظور ؟!

فهنا .. لم تعد صحراء النقب - وبالذات قسمها الجنوبى - مجرد صحراء ، ولا هى فقط مساحات تقاس بالكيلو مترات ، وإنما غدت كيانا حيا يستطيع أن يضمن وحدة أرض الأمة العربية ، فيحقق لها إحكام الحصار من الشرق والجنوب والغرب والشمال حول هذا الكيان الصهيونى الإمبريالى الغريب ، فلا يبقى أمامه - عندما يشتد الحصار إحكاما - إلا منفذ البحر المتوسط يلفظ عبره إلى حيث وفد ، فهو الباب الذى منه جاء ؟!

وبعد أن نجحت الصهيونية فى تحقيق ذلك ، وامتد كيانها - عازلا المشرق عن مصر والمغرب - من مياه البحر المتوسط إلى مياه البحر الأحمر.. راودت بعض الدوائر العربية - وخاصة فى مصر ، سنة ١٩٥٥م - فكرة إقامة جسر يربط جنوب سيناء بالشاطىء الشرقى لخليج العقبة ، مما يحقق الوحدة الأرضية لشعوب الأمة العربية ، ويسهم فى إحكام الحصار حول الكيان الصهيونى ، وخاصة من الجنوب .. وأنا لا أستبعد أن تكون هذه الأفكار قد لعبت دوراً فى قرار إسرائيل بغزو مصر سنة ١٩٥٦م ، وهى لابد قد كانت وراء الموقف الأمريكى الذى ضمن لإسرائيل المرور الملاحى فى خليج العقبة ، كى تكسب - ضمن ما تكسب - محاولة الحيلولة دون قيام هذا التطويق من الجنوب ..فهى تمر بسفنها من خليج العقبة ، وعلى شاطئه الغربى تقوم قوات « البوليس الدولى » .. ومن ثم نامت فكرة الجسر الذى يربط سيناء بالشاطىء الشرقى للخليج ..

وبعد عدوان يونيو سنة ١٩٦٧م أرادت إسرائيل بمطلبها الذى أصر على السيطرة على شريط ساحلى يمتد من ميناء إيلات إلى شرم الشيخ ، أرادت شيئا هاما وخطيرا ، حسبه الذين لا « يعون » التاريخ ضمانا لأمن ملاحتها فى الخليج، ثم عادوا يتعجبون من حديث إسرائيل عن رغبتها فى السيطرة على هذا الشريط ، حتى بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م والحصار الذى فرض أثناءها على باب المندب .. وتساءل أولئك الذين لا « يعون » التاريخ : ما قيمة شرم الشيخ إذا كان مفتاح باب المندب يلغيه ويشل فعالية تأمينه لملاحة وتجارة إسرائيل ؟!.. ولم يدرك هذا البعض أن إسرائيل تريد أن تعمق العازل الذى يمثله كيانها ؛ كى تحول نهائيا دون وحدة الأرض العربية، وتمنع كلية إمكانية تطويقها وحصارها من الجنوب ؛ لأن هذا التطويق يعنى بالنسبة لهاحتمية ملاقاة نفس المصير الذى لاقته الكيانات الصليبية الاستعمارية فى ذات البقعة بالعصور الوسطى ، وهى الكيانات التى أقيمت لتحقيق نفس الأغراض ، والتى لم يستطع العرب اقتلاعها إلا بعد أن أحكموا من حولها حصارهم الأرضى ووحدوا من حولها إرادتهم السياسية والقومية ، فلم يبق أمامها سوى بوابة البحر المتوسط لفظت عبرها ، كما جاءت من خلالها ..

إذن « فالوعى » بتاريخ صراعنا ضد الغزاة، وبالذات ضد الكيانات الصليبية يستطيع أن يجعل بصرنا وبصيرتنا أكثر بعدا ونفاذا وعمقا فى رؤيتنا لأبعاد مخططات الأعداء ، ويساعدنا بما يضيفه لنا من خبرات ـ هى أعمار أسلافنا وعرقهم وجهادهم ـ تمثل بالنسبة لنا زادا فى صراعنا الراهن الذى تخوضه أجيالنا الحاضرة ، والذى ستسهم لصالح العرب أجيال عربية قادمة على وجه اليقين ..

والذين « يعون » الأهداف التى رسمتها « الدولة الزنكية » التى نشأت فى «الموصل » سنة ١١٢٧ م ، والتى اهتمت بمؤسسات الفروسية العربية كى تقهر بها فرسان الإقطاع الصليبيين ، وكيف أخذت هذه الدولة توحد الإمارات العربية وتحرر المناطق التى احتلها الصليبيون حتى أتمت تطويق الكيان الصليبى من الشمال والشرق ، ثم جاءت الدولة الأيوبية فى مصر كى تصل هذا الطوق بالغرب ، والجنوب ، الذين « يعون » ذلك يدركون قيمة « الوعى » بالتاريخ فى خدمة المستقبل العربى على كل المستويات وفى مختلف الميادين ..

والذين « يعون » أحداث الغزوة الصليبية التى احتلت « دمياط ».. فى مصر - سنة ١٢١٨م ، زمن الملك الأيوبى الكامل ، والتى استمرت أربعين شهرا ، يستطيع « وعيهم » لهذه الأحداث أن يسهم فى تحديد مسار خطونا فى حاضرنا ومستقبلنا فى هذا الصراع الذى نخوضه وسنخوضه مع الإمبريالية وكيان الصهيونية الغريب ..

ففى المفاوضات التى دارت فى فترة من فترات هذه الغزوة عرض الصليبيون على « الملك الكامل » أن تجلو جيوشهم عن دمياط فى مقابل استعادتهم عددا من الحصون والقلاع والمدن التى سبق أن حررها من احتلالهم بفلسطين صلاح الدين.. ووافق « الملك الكامل » .. ولكن المباحثات تحطمت على صخرة إصراره على الاحتفاظ بالحصون والقلاع التى تتحكم فى الجزء الجنوبى من فلسطين ، وبالذات حصنى « الكرك » و « الشوبك » ؛ لأن هذا الجزء هو طريق الوحدة بين المشرق العربى ومصر والمغرب، وهو السبيل الأوحد لإحكام الحصار حول هذا الكيان الغريب ، حتى يحين الحين لاقتلاعه نهائيا من جسم الوطن العربى الكبير ..

تحطمت المفاوضات على هذه الصخرة ، وحسم القتال المعركة ، وتحررت دمياط بالسلاح ، واحتفظت الدولة الأيوبية بوحدة الأرض التى تحكم الحصار حول الصليبيين ..إنها نفس قطعة الأرض التى قتل بسببها « برنادوت » ؟! والتى تريد الصهيونية أن تصنع لها امتدادات جديدة تصل بها إلى شرم الشيخ كى تبعد عن سمائها شبح التطويق العربى الذى لا يدع لها مصيراً آخر غير مصير الصليبيين ؟!..

ذلك مثل واحد من الأمثلة العديدة التى يستطيع « الوعى » بالتاريخ أن يحوله من مجرد « صفحة تقرأ » و« أحداث تحفظ » إلى « تيار حى وفعال » يسهم فى الحاضر والمستقبل إسهاما بلا حدود .. هو مثل يستطيع المرء أن يبصر على ضوئه قيمة سيناء كرباط ضرورى ووحيد لوحدة الأمة العربية ، وقيمة تعميرها كى تتحول إلى جسم جيد التوصيل والربط والتأليف(١) ، ذلك أن « الوعى » بالتاريخ ينقل « الأرض » من إطار « الرمل والطين » إلى إطار «الكائن الحى » الذى يعنى الكثير والكثير فى صنع الأحداث وتقرير المصائر للأمم والشعوب ..



---

(١) انظر فى هذا الكتاب دراسة : « سيناء الشرط الثالث للقومية العربية » .

بالفروسية

كسر العرب شوكة الصليبيين

فى الصراع الحضارى ، والتاريخى الذى استمر قرونا بين الشرق العربى والغرب الاستعمارى اكتسبت الشخصية العربية وضوحا وصلابة فى قسماتها النضالية ، وكان ذلك بعضا من حسنات هذا الصراع ، ولما كان صراعنا الحضارى هذا لايزال قائما - رغم تبدل الظروف وتغير الأشكال وتنوع المضامين - فإن الكشف عن إيجابيات الشخصية العربية التى مثلت أسلحة استعان بها الإنسان العربى فى صراعه هذا هو أمر حيوى ، يجعل من بعض ألوان الدراسات التاريخية إسهاما فى معالجة القضايا الراهنة ، بل والمستقبلية .. وعندئذ يصبح التاريخ علما وفنا تتجاوز ثماره نطاق الوعى الماضى ، لمجرد الوعى ؛ لأنه فى هذه الحالات يضيف إلى عمر الأحياء أعمار الأسلاف عندما يسلح الأجيال الحالية والمستقبلة بخبرات القدماء وثمرات صراعاتهم ضد الأعداء ..

والقسمة التى تود هذه الصفحات لفت النظر إليها ، والتدليل عليها ، من قسمات الشخصية العربية : هى أن هذه الشخصية - لعوامل كثيرة من بينها طول الصراع الحضارى بينها وبين الطامعين فى احتوائها والاستيلاء على موطنها ومقدراتها - قد اكتسبت خاصية الاستجابة المتحدية والانتفاضة الإيجابية ضد ما يقتحم عليها حياتها ووطنها من أخطار وتحديات،الأمر الذى

حفظ لها ذاتيتها المتطورة ، فاستعصت على المصير الذى لاقته أمم أخرى انقرضت أو ذابت فى موجات من الغزو لم تبلغ مبلغ الغزو الذى تعرض له العرب عبر تاريخهم الطويل ..

والحدث الذى تتخذ منه هذه الصفحات مادة للدلالة على هذه الحقيقة هو ذلك الصراع الدامى والطويل الذى عرفته منطقتنا مع الغرب الاستعمارى فى العصور الوسطى ، والذى اشتهر باسم الحروب الصليبية ..

صراع حضارى يرفع أعلاما دينية :

لقد مثل الإسلام بالنسبة للشرق والشرقيين ـ على اختلاف أصولهم وعقائدهم ـ بزوغ الفجر لمرحلة من اليقظة ، سارت فيها شعوبه خلف العرب المسلمين ـ كطليعة ـ لإزاحة موجة الغزوة اللاتينية التى سيطرت على المنطقة منذ انتصار الإسكندر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م) على الشرق بعد هزيمة الفرس الذين كانوا يتولون يومئذ قيادة الشرق فى ذلك الصراع القديم .. ومن هنا كانت الفتوحات العربية ذات مضمون تحريرى لا يمكن لعين متأملة ومخلصة أن تخطئه ، وذلك هو التفسير العلمى لإسهام المسيحيين فى مصر والشام والمغرب إلى جانب العرب المسلمين فى الصراع الذى انتهى بهزيمة الحاميات العسكرية للروم البيزنطيين المسيحيين ..

لقد اجتمعت للعرب المسلمين يومئذ إمكانات فكرية تمثلت فى الفكر الإسلامى الشاب والعقلانى والبسيط ، وقدرات قتالية جاءت ثمرة لوحدة القبائل العربية التى تربت فى بوتقة الفروسية والصراع ، هذه الوحدة وتلك الفروسية اللتان ازدادتا قوة وقدرة عندما تدعمتا بسلاح الإيمان بالدين الجديد ..

وعندما اكتملت للمنطقة كلها - بعد الفتوحات - قسمة التعريب، وتوحدت هويتها الحضارية اجتمعت لها كلها - لا لعرب شبه الجزيرة وحدهم - تلك الأسلحة والطاقات والإمكانات ، فبدأت نظم الحكم العربية - بالجيش وبالفكر - مرحلة جديدة حاولت فيها اقتحام معاقل الخطر التاريخى الذى هددها كثيرا وطويلا .. بدأت محاولات الغزو لأوروبا ذاتها - خاصة جنوبها - بعد أن توقفت قرابة قرن من الزمان عند فتحها للأندلس سنة ٧١١م .

المد الحربى والفكرى :

فبعد أن دخلت المنطقة فى إطار العروبة ، وتسلحت بفكر العرب - الذى شهد نموا عندما ورث وطور المواريث الحضارية لكل شعوب المنطقة ، وتسلحت المنطقة كذلك بالسلاح العربى بعد أن كانت تحتمى به فقط ، مدت أبصارها عبر البحر المتوسط مؤملة تحويل شاطئه الشمالى إلى رقعة عربية تصل وطن العروبة وأرض حضارتها من الأندلس إلى الشام ! بالسيف وبالفكر معا !!

* ففى سنة ٨٠٩ م فتح العرب واحتلوا جزيرة « كورسيكا » ..
* وفى سنة ٨١٠ م فتحوا واحتلوا جزيرة « سردينيا » ..
* وفى سنة ٨٢٥ م فتحوا واحتلوا جزيرة « كريت » ..
* وفى سنة ٨٢٧ م بدأ فتحهم لجزيرة « صقلية » ..
* وفى سنة ٨٧٠ م كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة « مالطة » ..
* وفى تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر ، فاقتحموا الجنوب الأوربى فى إيطاليا ، فنزلت جيوشهم سنة ٨٤٦ م بميناء « أوستيا » وهو المرفأ البحرى لمدينة روما ، واستمر تهديدهم لها سنوات ثلاثاً ، بكل ماعناه ذلك من

اقتحام المعقل الذى ظل طويلا مركز الخطر الرومانى الذى احتل الشرق وأقام لنفسه الدول بالشمال الأفريقى ومصر والشام ، ثم استخدمّ نصرانية الحبشة فى محاولة القضاء على البقعة العربية التى أفلتت من سيطرته ، فحاولت غزو مكة عام الفيل ، بعد أن احتلت اليمن ردحا طويلا من الزمان .

* وحتى بعد انحسار هذا التهديد العربى لروما سنة ٨٤٩ م ، عادوا فحاولوا غزوها سنة ٨٧٢ م .. واستمر تهديدهم لها ولإيطاليا حتى سنة ٩١٦ م .. وأثناء تلك الفترة فرضوا الجزية على روما ، وسجل التاريخ أن البابا يوحنا الثامن ظل - لعامين - يدفع للعرب جزية سنوية مقدارها ٢٥,٠٠٠ رطل من الفضة !

* ومرة ثالثة عاد التهديد العسكرى العربى إلى أرض إيطاليا ، بعد أن قامت الدولة الفاطمية بالمغرب - (تونس) - سنة ٩٠٩م ، فلقد اتخذت من «صقلية» سنة ٩١٧ م قاعدة لهجماتها ضد الشواطىء الأوربية ، ووصلت حملاتها إلى « البندقية » و« جنوى » سنة ٩٣٥ م..

* وفى النصف الثانى من القرن التالى - (سنة ١٠٧١ م) - أحرز السلاجقة انتصارا كبيرا ضد البيزنطيين فى معركة « منزكرت » (ملاذ كرد) وأسروا يومها الإمبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجنس » - وحتى ذلك التاريخ كانت الدوائر الكنسية الكاثوليكية فى أوروبا - وهى وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك - تقيم أمنع الحواجز ضد ماكانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات .. كانت أوروبا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون ،

وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلانى والجدل النظرى الذى يعلى من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقى لإنسانية الإنسان ..

ولكن هذه الدوائر الكنسية ـ التى أفلحت فى صد جيوش العرب الغازية ـ قد أخفقت فى تحصين العقل الأوربى ضد الفكر العربى ، فحدثت وعملت قوانين تلك « السنة » الكونية التى تكررت على مر العصور : تحدث الصراعات المسلحة وتنتهى ، وتنجح الحملات الحربية وتخفق ، وتقوم الدول وتضمحل .. ولكن الأبقى والأفعل هو ـ دائما وأبدا ـ التأثيرات الفكرية والحضارية التى تستفيدها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات !. ولذلك فإن التاريخ يسجل ـ أويجب أن يسجل ـ أن النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى هو الذى شهد طلائع التأثر الأوربى بالفكر العربى ، وهو التأثر الذى أصبح المنطلق الحقيقى الذى انطلقت منه أوروبا ـ عبر قرون عدة وأحداث كبرى ـ إلى عصر النهضة والتنوير..

* فقسطنطين الأفريقى (المتوفى سنة ١٠٨٧ م) هو الذى ارتاد حركة إيقاف الأوربيين على الثمارالعقلية للحضارة العربية الإسلامية .. وهو مفكر طلائعى خلف وراءه أربعة وعشرين كتابا ..

* ولقد جاء قسطنطين الأفريقى وفكره ومصنفاته ثمرة لعاملين رئيسيين :

أ ـ رحلته التعليمية والعلمية التى زار فيها كلا من : خراسان ، والهند ، وبغداد ، والشام ، ومصر، والقيروان ، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكرى والحضارى العملاق ..

ب ـ الدراسة والتخرج فى أول مدرسة طبية بإيطاليا ، وهى مدرسة (سالرنو) التى تأسست فى القرن التاسع الميلادى ، والتى كان تأسيسها بداية

إسهام العرب المسلمين فى إيقاظ أوروبا ، عن غير طريق الأندلس ، فلقد أسس هذه المدرسة ـ التى التحق بها قسطنطين الأفريقى سنة ١٠٦٠ م ـ أربعة رجال: لاتينى ، ويونانى ، ومسلم ، ويهودى ! فكانت أول مدرسة ، خارج الأندلس ، تعلم الناس الطب فى أوربا ! ..

* وفى تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الإيطاليين أسوار جامعة «بولونيا» ، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦ م ..

الموجة المعاكسة :

إن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال ، والذين يفسرونها هذا التفسيرالسطحى لا يبصرون ما فى الأعماق لكننا ـ فى ذات الوقت ـ يجب أن نعطى اهتماما كبيرا لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصيلة ذات الحضارات والتراث ما تولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم التى تمتحنها هذه المخاطر تستجمع عناصر قوتها، وتجدد شباب حياتها ، ثم تنهض لتحدى الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء ..

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجا وسبيلا يعفينا من سرد أسباب كثيرة ـ لا يتسع لها المقام ـ وقفت خلف المد الأوربى الذى تمثل فى الحروب الصليبية على الشرق العربى ، ذلك المد الذى أرادت به أوروبا أن تسترجع ما تحرر منها تحت رايات الإسلام ..

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط إلى بحيرة عربية خالصة وخالصة ، ثم هى قد شرعت تحتل وتهدد شاطئه الأوربى ، بعد أن استقرت فى جزره الأوروبية الكبرى ..

* والمدن التجارية الأوروبية ـ وخاصة الإيطالية منها ـ لم تحرم فقط من امتيازاتها التقليدية فى التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية ، وإنما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين ..

* والنمط الفكرى المتخلف الذى سجنت فيه الكنيسة الكاثوليكية قارتها الأوروبية قد سددت العقلانية العربية الإسلامية إليه السهام ..

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية ـ خاصة فى عهد البابا الذهبى إربانيوس الثانى (١٠٤٢ ـ ١٠٩٩ م) ـ لقيادة أوربا فى زحف تاريخى بربرى استهدفت من ورائه ، لاهزيمة العسكرية العربية فحسب ، بل وإطفاء المنارات الفكرية العقلانية التى ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة فى ديار الإسلام ..

* فبدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس ، وسقطت «طليطلة» بيد ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م..

* وبعد خمس سنوات سقطت « صقلية » بيد النورمان ـ (سنة ١٠٩٠م) ..

* وفى نفس التاريخ ـ (سنة ١٠٩٠م) ـ سقطت « مالطة » .. وانحسر عنها الحكم العربى..

* وفى سنة ١٠٩٥ م اكتمل للكنيسة تجميع عناصر قوتها : فالدعاة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين « الوثنيين » الذين يعبدون الحجر الأسود ويسجدون لمحمد ، ويدنسون مهد يسوع وقبره ! .. وفرسان الإقطاع الأوربى أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراته إن هم وجهوا فروسيتهم وبأسهم لقتال المسلمين ، بدلا من حروبهم المحلية التى لا تنتهى ..

والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التى حرمها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الإسلام..

ولقد دشنت الكنيسة نصرها الاستعدادى هذا فى « المجمع » الذى عقدته سنة ١٠٩٥م بمدينة « كليرمونت » بجنوبى فرنسا ، وهو المجمع الذى خطب فيه البابا الذهبى إربانيوس الثانى ، فخاطب فرسان الإقطاع الأوربى بقوله : « .. أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم ... ولكن ، تعالوا وحاربوا الكفار - (المسلمين) - ... يا من تنابذتم اتحدوا ... يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا !... تقدموا إلى بيت المقدس ... انتزعوا الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا !.. إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ! ... »

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات الغزو والاستيطان التى عرفها ذلك التاريخ ، ففى خلال نحو قرنين قذفت أوربا أرض الشرق العربى بنحو عشر حملات حربية مولها التجار وقادها فرسان الإقطاع وزحف فى ركابها الغوغاء ، وتضامنت - فى قذف الشرق بها - الممالك والإمارات والولايات ..

* (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) : كانت الحملة التى قادها كل من الملوك والأمراء: جود فرى دوبويون يوليون ، وبودوين ، وبوهمند ، وريمون نانكرد ..

* (١١٤٧- ١١٤٩ م) : كانت الحملة التى قادها كونراد ، ملك جرمانيا ، ولويس السابع ، ملك فرنسا ..

* (١١٨٩ - ١١٩٢ م) : كانت الحملة التى قادها : فريدريك باربروس ، إمبراطور جرمانيا ، ورتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، وفيليب أوجست ، ملك فرنسا ..

* (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) : كانت الحملة التى قادها بودوين التاسع ، كونت الفلاندر ..

* (١٢١٩ ـ ١٢٢١ م) : كانت الحملة التى قادها جان دى بريان ، ملك القدس ، وأندريا الثانى ، ملك المجر ..

* (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م) : كانت الحملة التى قادها فريدريك الثانى ..

* (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م) : كانت الحملة التى قادها لويس التاسع ، ملك فرنسا ، ضد مصر ..

* (١٢٦٧ ـ ١٢٧٠ م) : كانت الحملة التى قادها لويس التاسع ، ضد تونس ...

ولقد نجحت هذه الحملات حينا ، فكونت الدول والإمارات الاستيطانية اللاتينية ، بأرض الشام وفلسطين ، حتى استطاعت ـ زمنا ـ تحقيق الهدف الاستراتيجى للغزاة ، فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربى ، وعزلت مشرقه عن مصر ـ القلب ـ والمغرب ، بكياناتها التى احتلت الأرض الفلسطينية التى تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة ، ثم أخذت تهدد مصر ، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمنا ، وأقامت لفرسانها مركزا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها ، مستغلين فى ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان !

نجحت هذه الحملات عندما نفذت إلى الوطن العربى من تلك الثغرة التى أفقدته التوازن الحضارى الضرورى والمطلوب .. فالعرب قد نجحوا فى التحرر من البيزنطيين ، بل وفى تهديد أوربا فى مواطنها عندما امتلكوا : السيف والقلم ، ودان لهم : العقل والقوة ، ووظفت القوة طاقاتها فى خدمة العقل .. فلما

اعتمد العباسيون على القوة غير العربية ، وتكون الجيش من المماليك ، زال الانسجام بين العقل والقوة ، فتحولت القوة الضارية ـ وهى غير قومية ـ إلى قيد على العقل العربى ، فكانت السلطة العسكرية المحافظة فكريا والمستبدة سياسيا ، والتى أصابت المد الحضارى وعصره الذهبى بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن ..

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسى ، نجحوا بعض النجاحات ، خصوصا عندما أقاموا فى قلب الوطن العربى عاصمتهم ـ بالقاهرة ـ التى صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت فى جناحيه عملية التعريب وتوحدت هويته الحضارية إلى حد بعيد ..

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضارى العقلانى الراقى الذى تمثل فى الأزهر ودور الحكمة والمراصد والمكتبات .. فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة ، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية ، الأمرالذى أفقد العقل درعه وحرم القلم سيفه ، فكانت الثغرة التى نفذ منها الصليبيون عندما نجحوا فى تحقيق ما حققوا من انتصارات ..

المطامع العارية :

ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التى حملها الفرسان أن تخفى المطامع الحقيقية ، والأسباب الموضوعية التى حركت أوربا الاستعمارية فى هذه الحملات ..

* فالذين حملوا إنجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة ، كتبوا هم أنفسهم إلى البابا الذهبى يباهون بالمجازر التى صنعوها بالعرب والمسلمين ، بعد دخولهم القدس ، فقالوا : « .. إذا أردت أن تعرف ما يجرى لأعدائنا ، فثق أنه فى معبد

سليمان - (جامع عمر بن الخطاب) - كانت خيولنا تغوص إلى ركبها فى بحر من دماء الشرقيين ! » .... والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب ، مسلمين ومسيحيين !!..

* وهذه الحرب التى صورتها الكنيسة على أنها مهمة دينية مقدسة يبتغون بها وجه الله ورضاء يسوع ، تكشفت عن حرفة دمار هدفها المال ، وإنجاز بربرى يبتغون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق الدنيوية .. ووفق كلمات البطريرك مكسيموس مونروند فى كتابه (تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ، المدعوة حرب الصليب) « ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ » يقول عن غايات فرسان الإقطاع الأوربى من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب : « .. فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية ، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة ! .. »

* وأرض الشرق التى وعد البابا الذهبى فرسانه بها ، قال لهم عنها : إنها تدر سمنا وعسلا !.. بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم إقطاعات ، حتى قبل أن تقع فى أيديهم ممالك وإمارات .. فعندما عزموا على غزو مصر ، «مسحوا» أرضها ، ووزعوها على الأمراء والفرسان .. وبعبارة « أبو شامة » فى كتابه (الروضتين فى أخبار الدولتين : النورية والصلاحية) يقول - « ج ١ ص ٤٣٠ » : « ... وكان ملكهم - لعنه الله - لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر ارتفاع - (دخلها) - وأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته - (فرسانه) - وفرّق قراها على أجناده ! »

* والتمويل الذى قدمته مدن أوربا التجارية ـ خاصة : جنوه ، ونابلى ، وبيزا ، والبندقية ـ لهذه الحملات ، أخذت تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة ، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التى نجت من الاحتلال المباشر .. و« غليوم الصورى » يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول : « .. كانت خزائن مصر تحت تصرفنا .. كما أن موانىء أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا ، وتجارها كانوا ينقلون إلى موانى بلادنا غلات أراضيها ، وهذه المتاجر كانت كلّية الفوائد لنا ... وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام ! (ج ٢ ص ٧٦ من : حرب الصليب) .. هكذا تكشفت المطامع عارية ، ولم تفلح فى سترها دعايات الكهنة ولا أردية الكهنوت ..

فماذا صنع الشرق ؟:

وأمام هذا الخطر المدمر والبربرى لهذا الاستعمار الاستيطانى انتفض كيان الشرق العربى فأفرز عوامل القوة والمقاومة التى تصدت لفرسان الإقطاع الأوربى حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغريبة إلى مواطنهم الأصلية..

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التى ميزت شخصية الإنسان العربى أمام المخاطر والتحديات ، وهى القسمة التى بلغت مبلغ القانون الذى حكم صراعاته ضد أعدائه .. فهو يبصر سر تفوق الخصم ، ثم يسعى لامتلاك هذا السر ، فيضيف فاعليته وتأثيره إلى سلطان الحق المتمثل فى عدالة قضيته .. وبذلك تجتمع لديه إمكانات النصر فى هذه الصراعات ..

ولقد كانت الفروسية الإقطاعية الأوربية فى مقدمة أسباب التفوق الصليبى على العرب فى ذلك الصراع .. فأوربا المتخلفة حضاريا كانت تمتلك مؤسسات

للفروسية ، أفرزها عصرها الإقطاعى ، رسخت تقاليدها فى الحرب ، وبرزت وحشيتها فى حملاتها ضد العرب والمسلمين . كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل فى الإخلاص والطاعة والشجاعة .. وكانت أهدافها : حماية السادة ، والكنيسة ، وقتال الكفار - (المسلمين) -!! .. ولقد ساعدت الحروب الصليبية على إعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا فى ذلك العصر ، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفى مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة .. وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ - وهو معاصر لتلك الأحداث - (الاعتبار ص ٦٤ - ٦٥) - : فإن « الفرنج - خذلهم الله - ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم !.. »

ومن هنا صحت عزيمة الشرق فى انتفاضته ضد هذا الخطر على امتلاك سلاح الفروسية وإقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلى بواسطتها غزاته ، فلا يفل الحديد إلا الحديد !

ولكن الشرق ذا الحضارة والتراث الإسلامى لم يكن ، وما كان له ، أن يصنع فروسيته على النمط الوحشى الذى ميز فروسية أمراء أوربا الإقطاعيين .. فهؤلاء كانوا نتاج إقطاع أوربا المظلمة ، بينما كان للشرق العربى والمسلم تراث فى الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أن ظهر فيه الإسلام ..

ومنذ قرون كانت قد استكنت فى ضمير هذه الأمة القيم الإسلامية السامية التى علمها أبو بكر الصديق قائد جيشه يزيد بن أبى سفيان عندما قال له : «إنى موصيك بعشر : لا تقتل امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا ، ولا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ، ولا تغلل - (تخن) - ، ولا تجبن ! .. »

ولقد تحول هذا التراث الشرقى فى الفروسية ـ عند مواجهة الخطر الصليبى ـ إلى الخصال والسجايا العشر التى أصبحت دستور مؤسسات الفروسية الإسلامية التى شرع العرب فى إقامتها كى يدفعوا بواسطتها غزاة أوربا الصليبيين .

فنشأت فى الوطن العربى أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية وعمادها الجيش الذين تكون فى معسكراتها .. تلك المعسكرات التى كان يجلب إليها المماليك الصغار ، حيث ينشأون نشأة حربية صرفة وكاملة، لا صلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها ، ومع حياة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر : التقوى .. والشجاعة .. ورقة الشمائل .. والصبر .. ومراعاة الجوار .. والمروءة .. والكرم .. وحسن الضيافة .. ومساعدة النساء والأرامل .. والوفاء بالعهود .

ومن مؤسسات الفروسية الإسلامية هذه نشأت الدولة الزنكية ، التى أسسها فى الموصل ، بالعراق ، أتابكها : عماد الدين زنكى سنة ١١٢٧ م .. وبفرسانها انتزع الشرق أول انتصاراته على الصليبيين عندما حرر « إمارة الرها» سنة ١١٤٤ م ..

وبعد ذلك توالت انتصارات دولة الفروسية هذه على الصليبيين بقيادة السلطان الزنكى : نور الدين محمود .. ثم خلفتها على نفس الطريق ـ طريق الفروسية الشرقية ـ الدولة الأيوبية بانتصاراتها المدوية منذ عهد مؤسسها صلاح الدين .. ثم دول المماليك الذين أنجزوا مهمة الشرق الحضارية فى كسر شوكة التتار بعين جالوت سنة ١٢٦٠ م .. وطووا صفحة الحروب الصليبية عندما اقتحم فرسانهم عكا فأزالوا آخر معقل للصليبيين بالوطن العربى فى مايو سنة ١٢٩١ م على عهد السلطان الأشرف بن قلاوون .

وبمؤسسات الفروسية الإسلامية هذه أكد الشرق مرة أخرى صدق القانون الذى لم يتخلف طوال عصور صراعاته الحضارية التاريخية ، والذى أصبح قسمة من قسمات شخصية إنسانه : أمام الخطر ، وفى مواجهة المخاطر يبحث الإنسان العربى ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم فيسعى لامتلاك هذا السر، ويضيف قوته إلى قوة الحق المنبعث من عدالة قضيته ، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه .. مثبتاً بذلك ـ دائما وأبدا ـ أنه إيجابى ، بل وثورى أمام المخاطر والتحديات .!



أبرز معارك الصراع العربى - الصليبى

فى سنة ١١٢٩ م (سنة ٥٢٤ هـ) وتحت قيادة مؤسس الدولة الزنكية عماد الدين محمود زنكى (٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦ م) دارت ضد الصليبيين معارك أحرز فيها المسلمون بواكير انتصاراتهم فى « حصن الأثارب» - بين حلب وأنطاكية - و« حصن حارم » - تجاه أنطاكية .

* وفى عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٣م) الذى خلف عماد الدين محمود زنكى ، وضحت معالم المد العربى الإسلامى ، وأخذت الموجة الصليبية فى الانحسار .

فى سنوات (٥٣١ - ٥٦٧ هـ / ١١٣٦ - ١١٧١ م) أحرز المسلمون انتصارات باهرة غطت ميادينها أغلب البقاع التى تدنست بالغزو الصليبى .. وسجل التاريخ أحداث الحرب والفتح فى : « حصن بعرين » - بين حمص والساحل - سنة ٥٣١ هـ / سنة ١١٣٦ م .. و« حصن عرقة - وقلعتها » - شرقى طرابلس - سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م .. ومدينة « الرها » - التى كانت عاصمة «كونتيه الرها » الصليبية - .. و« قلعة البيرة » - المطلة على الفرات - سنة ٥٣٩هـ/ سنة ١١٤٤م .. و « حصن العزيمة » - من أعمال طرابلس - .. و«بصرى » سنة ٥٤٣ هـ / سنة ١١٤٨ م .. و« حصن حارم » .. و« حصن أنب » .. و « حصن أفامية » - بنواحى حلب - سنة ٥٤٤ هـ / سنة ١١٤٩ م .. ومواقع وبلاد : « تل باشر » و « عين تاب » ، و« إعزاز » ، و « قورس » ،

و«الرواندان »، و« حصن البارة » ، و« تل خالد » ، و« كفر لاثا » ، و« كفر سوت » ، و« حصن بسرفوت » ، و« دلوك » ، و« مرعشى » ، و« نهر الجوز » ، و« برج الرصاص » .. وهى جميعها قد فتحت فى سنة ٥٤٦ هـ / سنة ١١٥١م .. و« قلعة حارم » - غربى حلب ، بالقرب من أنطاكية - وهى التى حوصرت فى سنوات ٥٥١ هـ و٥٥٧ هـ / سنة ١١٦٤ م .. و« قلعة بانياس » سنة ٥٦٠هـ / سنة ١١٦٥ م .. و« حصن المنيطرة » - قرب طرابلس - سنة ٥٦١هـ/ سنة ١١٦٢ م .. وحصون : « عرقة » ، و« صافيثا » ، و« عريمة » التى فتحت سنة ٥٦٧ هـ / سنة ١١٧١ م ..

فلما تأسست الدولة الأيوبية (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) وانعقدت ألوية القيادة فى هذا الصراع لمؤسسها صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م) تزايد مد الانتصارات العربية ضد الغزوة الصليبية .. واستمرت أسماء المعارك ومواطنها تغطى ساحات الإمارات الصليبية - حصونا وقلاعا ومدنا وقرى - كما شهدت الدولة الأيوبية وقوع عدد من المعارك الكبرى التى تميزت بآثارها الحاسمة أو المؤثرة فى أحداث ذلك الصراع .. وذلك مثل :

معركة حطين (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) :

اشتعل قتالها يومى الجمعة والسبت ٢ ، ٣ يوليو سنة ١١٨٧ م (٢٣ ، ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ) عند بحيرة طبرية وعلى هضبتها وفوق جبل حطين ..

وكانت قيادة القوى القومية فيها لصلاح الدين الأيوبى ، بينما قاد الصليبيين « ريموند » أمير طرابلس ، و« جاى لوزنجان » ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ..

ولقد بدأت وقائع هذه المعركة عندما أكمل صلاح الدين استعداده لمعركة أرادها مؤثرة على أوضاع الصليبيين العسكرية والسياسية .. فخرج بجيشه من دمشق في يوم السبت أول محرم سنة ٥٨٣ هـ (مارس سنة ١١٨٧ م) .. وفى الطريق إلى طبرية قام بعدد من الجولات القتالية التى أنجز فيها عددا من المهام .. فحاصر حصنى (الكرك) و (الشوبك) كى يؤمن طريق « مصر - فلسطين » ، حتى لا يستفيد خصومه فى المعركة المرتقبة بإمكانات هذين الحصنين المعاديين له .. كما أرسل جزءاً من جيشه لمقاتلة الصليبيين فى «صفورية » قرب « عكا » .. وتقدمت سرية للإغارة على مدينة « طبرية » ، اختباراً للمعقل الرئيسى الذى سيدور عنده القتال .. كذلك نهض قسم من جيش صلاح الدين بمعركة كبرى فى إقليم الجليل فى مايو سنة ١١٨٧ م ..

وخلال هذه الجولات القتالية تحققت لصلاح الدين ثلاثة أمور :

أولها : اختبار قدرة جيشه وإمكانات قواته ، وتقدير مدى قوة الصليبيين..

وثانيها : وضع الأمة فى حالة من الاستنفار جعلت أمراء الأقاليم وسكان الولايات يقدمون للمعركة ما لديهم من إمكانات بحيث غدا الجيش صورة تجسد وحدة الأمة فى صراعها ضد الأعداء .

وثالثها : التعمية على العدو بصدد الميدان الذى يريد صلاح الدين أن تنشب فوق أرضه المعركة الكبرى التى جرى ويجرى لها التحضير ..

وعندما بدأ النصف الثانى من ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ تحرك جيش صلاح الدين إلى نهر الأردن ، فعسكر خمسة أيام عند ثغر « الأقحوانة » جنوبى بحيرة طبرية ، أكمل فيها استعداداته .. ثم تقدم ففرض الحصار على مدينة طبرية كى يستدرج للدفاع عنها معظم فرسان الصليبيين ، وذلك حتى تكون نتائجها مؤثرة على موازين الصراع .

وشرع « الجاندرية » و « النقابون » و « الخرسانية » و « الحجارون » فى توجيه أدواتهم إلى أبراج المدينة وحصونها وسورها الحصين .. ونجحوا فى هدم أحد الأبراج ..

وتحرك الصليبيون لنجدة طبرية ، فأمدتها « صفورية » بـ ٥٠,٠٠٠ مقاتل ، حتى بلغ جيش الصليبيين بها ٦٣,٠٠٠ من الفرسان والمشاة .

وأدرك الطرفان الأهمية المحورية للمعركة ، فالصليبيون رأوا فى صمود طبرية الدرع الذى يحمى القدس من صلاح الدين ، وصلاح الدين كان يرى فى فتح طبرية فتح الطريق إلى القدس كى تعود إلى قلب العرب وأحضان المسلمين .

وبدأت المواجهة بين الجيشين فى يوم الخميس أول يوليو (٢٢ ربيع الثانى) ، وفى اعتقاد كل منهما أنه يدخل معركة مصيرية - بلغة عصرنا - وبلغة « ابن شداد » ، مؤرخ تلك الفترة : فلقد « علمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس !! »

واشتعل القتال ظهر يوم الجمعة ٢ يوليو .. واجتمعت على الجيش الصليبى: حرارة القتال الذى شنه فرسان العرب والمسلمين ، وحرارة شمس يوليو وحرارة النيران التى أشعلها العرب فى الحشائش المجاورة لأرض المعركة ، وحرارة العطش بعد أن حرموا ماء طبرية بواسطة الحصار .. وكما يقول أحد مؤرخيهم: لقد كانت « النبال متطايرة فى الهواء مثل طيران العصافير المحرقة بحرارتها ؟! وماء السيوف (أى الدماء) جامد فى وسط المعركة ، يغطى الأرض كمياه المطر ؟! »

وعندما لاحت بوادر الهزيمة للجيش الصليبى انسحب ؛ كى يحتمى بجبل

حطين ، فتعقبه جيش صلاح الدين .. وعلى الجبل حارب الفرسان الصليبيون حرب اليائس ، ولكن الهزيمة أطبقت عليهم ، وعندما سقطت خيمة الملك الصليبى « جاى لوزنجان » ترجل صلاح الدين الأيوبى وسجد ، وقبل الأرض شكرا لله على هذا الانتصار .

ومن بين الثلاثة والستين ألفا الذين تكون منهم الجيش الصليبى فى هذه المعركة قتل ثلاثون ألفاً ، وأسر ثلاثون ألفا ، بينما تمكن ثلاثة آلاف من الفرار!.. وكما يقول المؤرخ « أبو شامة » : « إن من شاهد القتلى قال : ما هناك أسير .. ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل ؟!.. ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين !.. »

وهذه المعركة المصيرية لم تشف فقط صدور العرب والمسلمين من الاحتلال الصليبى ، بل فتحت الأبواب للجيش العربى كى يتعقب الجيش المهزوم ..

وهنا تجلت عزيمة صلاح الدين وعبقريته عندما استثمر آثار ذلك النصر العربى والهزيمة الصليبية فاندفع بجيشه يفتح الحصون ويحرر المدن ويستولى على البقاع :

* ففى يوم الأحد ٤ يوليو سنة ١١٨٧ م فتح قلعة طبرية .

* وفى يوم الأربعاء ٧ يوليو حرر عكا ..

* ثم انقسم جيشه إلى فرق زحفت فحررت العديد من المدن والقلاع والحصون ، من مثل : « مجد بابا » ، و « الناصرة » ، و « قيسارية » ، و« حيفا » ، و « صفورية » ، و « دبورية » ، و « الفولة » ، و « جنين » ، و« زرعين » ، و « الطور » ، و « اللجون » ، و « القيمون » ، و « الزيب » ،

و« مـقليـا » ، و« البـعـنـة » ، و« إسكندرونة » و« متراث » ، و« أرسـوف » ، و« عـفربلا » ، و« ريحـا سنجيل » ، و« البيرة » و« قلونيـة » ، و« صرفند » ، و« مجدل الحباب» ، و« جبل الجليل » ، و« تـل الصافيـة » ، و« تـل الأحمـر » ، و« فريتـا » ، و« سوبا » ، و« هرمس » ، و« السلع » ، و« يافا » ، و« صيدا » ، و« نابلس » ، و« قلعـة نابلس » ، و« سيـسطيـة » و« تبنين » ، و« بيـروت » ، و« عـسـقـلان » و « الرملة » ، و« الداروم » ، و« غــزة » ، و« بيت لحم » ، و« يبنى » ، و« بيت جبريل » ، و« النطرون » ، و« مشهـد الخليل » ، و« لد » ، وغيرها وغيرها من الحصون والقلاع والمدن والبلاد ..

وهكذا فتحت معركة حطين الباب لانتصارات عديدة .. وشهدت الأيام التى تلتها قتالا يشتعل فى مختلف أرجاء البقاع التى احتلها الصليبيون ، وهزائم تتـحـرر بعـدها - شبـرا بشبـر وذراعـا بذراع - تلك البـقـاع التى دنسـهـا هـذا الاحـتـلال ..

كما فتح هذا النصر الباب أمام العرب والمسلمين كى يحرروا بيت المقدس من احتلال الصليبيين .

معركة القدس (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) :

جمع الصليبيون فى القدس ٦٠,٠٠٠ من فرسانهم ومـقاتليهم ، واحـتشدوا ينتظرون جيش صلاح الدين .. وفى يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م وصل صـلاح الدين على رأس جـيشـه ، وعـسكر مـحيطا بالجانب الغربى من سـور المدينة المقـدسـة ، فى نفس المكان الذى دخلهـا منه الجـيش الصليـبى سنة ١٠٩٩م .. أى قبل ثمانية وثمانين عاما !

وبعد جمع المعلومـات عن حصون المدينة وأبراجها وعـدتها وعـتادها انتقل بجيشه إلى الجانب الشمالى يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ..

وقبل أن يبدأ القتال بعث إلى الصليبيين يطلب تسليم المدينة ، لقاء تعويض يرضيهم ، وذلك حفاظا على مقدساتها التى هى موضع إجلال وتقديس من كل المؤمنين بكل ديانات السماء !.. ولكنهم رفضوا العرض ، فبدأت مقدمات القتال يوم السبت ٢٦ سبتمبر ، إذ نصبت « المنجنيقات » على المرتفعات لترسل قذائفها من فوق السور ، وشرع « النقابون » يختارون المواطن المناسبة فى هذا السور كى يعملوا أدواتهم فيها .. وأخذت فرق التسلل وأعمال الفداء تتخذ من ظلام الليل ستارا لجمع المعلومات وقنص الأعداء ..

ولقد ألقى الصليبيون بكل ما فى حوزتهم فى المعركة .. فعقدوا لواء القيادة لفارسهم « باليان ده إيبالين » ، وهو من الذين تمكنوا من الهرب فى حطين .. وأمده البطريرك بما تحتاجه الحرب ، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، بل وزينة الكنائس ، ولم يستثن من ذلك الذهب والفضة التى زينوا بها قبر المسيح !

ولكن هجمات « النقابين » فى الجيش العربى أفلحت فى فتح ثغرة كبيرة فى سور المدينة عند « وادى جهنم » ـ من باب يوشفاط إلى باب القديس استفانوس ـ .. وأصبح اقتحام العرب للمدينة وشيكا .. وفزع الصليبيون ، وألقى عامتهم سلاحهم ، واستبدلوا به التضرع والبكاء ! .. وعند ذلك قرر الصليبيون السعى إلى صلاح الدين فى طلب الأمان .. وكان صلاح الدين يؤجل الاقتحام ، انتظاراً لهذا الأمر ، كى يتفادى اشتعال القتال داخل المدينة ، خوفا على ما بها من مقدسات !

وبعد مفاوضات .. اتفق الطرفان على أن يسلم الصليبيون المدينة للعرب ، وأن يرحلوا عنها خلال أربعة أيام ، وأن يحملوا معهم متاعهم وأموالهم

وكنوزهم ، نظير فدية قدرها عشرة دنانير للرجل ، وخمسة للمرأة ، ودينار واحد للطفل .. واقتصر هذا الرحيل والفداء على الصليبيين المستوطنين ذوى الأصول اللاتينية ، أما المسيحيون العرب ، فلقد نظر لهم صلاح الدين كمواطنين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فاستمرت إقامتهم بمدينتهم مثل غيرهم من المواطنين ، من غير أن يفرق بينهم اختلاف الدين .

وكان توقيع الوثيقة التى عادت بها القدس عربية ظهر يوم الجمعة ٣ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، فى يوم وافق ذكرى الإسراء ، إسراء الله برسوله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

معركة دمياط (٦١٥ ـ ٦١٨ هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م) :

بعد موت صلاح الدين الأيوبى ، وانقضاء ثلاثين عاما على تحريره للقدس ومعظم ولايات الصليبيين ، انتهزت أوربا ما طرأ على السلطة الأيوبية المركزية من ضعف فى زمن الملك العادل (٥٩٦ ـ ٦١٥ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٨م) فتحركت من مدنها وموانيها عدة حملات صليبية جديدة لتشد من أزر بقايا إماراتهم على الساحل الشامى أملا فى استعادة ما تحرر من حصونهم وسقط من قلاعهم بواسطة جيش صلاح الدين .. ولقد وصلت هذه الحملات إلى «عكا» سنة ١٢١٧ م ..

وشن الصليبيون سلسلة من حملات السلب والنهب والإغارة على المدن والحصون ، فهاجموا فى رمضان سنة ٦١٤هـ (سنة ١٢١٧ م) كلا من «بيسان »، و « نوى » ، و « بانياس » ، و « صيدا » ، و « الشقيف » ، فشرع العرب يجمعون إمكاناتهم لملاقاة هذه الحملات ، وأخذوا يستخدمون مختلف

الأسلحة لإعاقة هذا الغزو ، بمافى تلك إغراق الأرض بالمياه ، كما حدث فى « داريا » ، و « قصر حجاج » ، و « الشاغور » !.. وعند قلعة الطور دارت معركة استمرت سبعة عشر يوما ، لقى مصرعه فيها عدد من ملوك الصليبيين، فأعاقت تقدمهم نحو القدس ، وعادوا إلى قاعدتهم « عكا » ، يفكرون فى غزو مصر ، لأنها القاعدة التى تتجهز منها الجيوش المتصدية لحملتهم ، ولأن فيها مقر السلطة الأيوبية التى توحدت خلفها إمارات المشرق مع مصر لقهر هذا الغزو الجديد ..

ولذلك ـ كما يقول المؤرخون القدماء ـ « اجتمع رأى الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر ، والاجتهاد فى تملكها .. » فوصلت أساطيلهم ـ فى واحدة من أكبر حملاتهم ـ إلى مياه « دمياط » يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة ١٢١٨ م (٤ ربيع الأول سنة ٦١٥هـ)

وبعد أن توافدت الإمدادات على الصليبيين واكتملت استعداداتهم ، تحركوا يبتغون دخول مجرى نهر النيل لمحاصرة دمياط ، فاعترض سفنهم ذلك «البرج » ـ برج السلسلة ـ الذى أقامه المصريون فى مدخل النيل ، بحذاء دمياط، وربطوه بسلسلتين من الحديد إلى بر دمياط وبر الجزيرة المواجهة لها .. ودارت بين الصليبيين وبين حامية هذا البرج معركة استمر قتالها أربعة أشهر كاملة !.. ولكن الصليبيين نجحوا ـ بسفنهم الحديدية الضخمة ، «المرمات» ، وبالأبراج المتحركة التى استخدموها ـ نجحوا فى الاستيلاء على «برج السلسلة » ، فدخلت سفنهم مجرى النيل ، وانتقلوا إلى بره الشرقى ، لمحاصرة دمياط .

وبعد موت الملك العادل فى جمادى الثانية ٦١٥ هـ ، وتولى الملك الكامل

(٦١٥ـ ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٧م) مقاليد الحكم ، أسرع المصريون بإقامة جسر على النيل ؛ لإعاقة تقدم الصليبيين نحو القاهرة ، فلما استولى الصليبيون على هذا الجسر أسرع المصريون إلى إغراق عدد من المراكب فى مجرى النيل حالت بين الصليبيين وبين التقدم ..

واتخذ الملك الكامل من « العادلية » قاعدة لقيادته ، وبعد نجاحه فى وقف تقدم الصليبيين أخذ يستفز قواته ويستجمع إمكانيات الدولة ، فاجتمع له عشرون ألفا من المقاتلين بينما أخذت الإمدادات تترى على معسكرات الصليبيين من أوربا ، عبر قاعدتهم فى عكا ..

ولم يستطع الصليبيون اقتحام دمياط ، رغم تفوقهم فى العدد والعتاد، ولكنهم انتهزوا فرصة ثغرة حدثت فى الجبهة الداخلية بمصر ، عندما تطلع الأمير الأيوبى « الفائز » إلى انتزاع السلطة من أخيه « الكامل » ، الأمر الذى فرق صفوف الجند والأمراء ، وأشاع الارتباك فى معسكر المدافعين عن دمياط .. وعندما غادر الملك الكامل المعسكر سرا ، خوفا على حياته ، وافتقد الجند قيادتهم ، انفرط عقد القوة المدافعة ، فرحل الجند عن مواقعهم ، ووجد الصليبيون الطريق خاليا أمامهم فحاصروا دمياط يوم الثلاثاء ٦ ذى القعدة سنة ٦١٥ هـ (يناير سنة ١٢١٩ م) ..

وفى الوقت الذى نجح فيه الملك الكامل فى تأمين سلطته ، وعاود جهوده ضد الغزاة ، كانت الإمدادات الصليبية قد توالت من « النمسا » و « بيزا » و« جنوه » و « البندقية » و « إنجلترا » و « فرنسا » ، يقودها مندوب البابا «الكاردينال بيلاجيوس » ، فقوى حصار الصليبيين لدمياط ، وقطعوا عنها المؤن والإمدادات ، وحفروا حولها خندقا، وبنوا على هذا الخندق سورا عاليا يرتفعون به إلى سور المدينة ، ثم اشتد بين الفريقين القتال ..

وشهدت شهور الحصار ألوانا من البطولة والصمود لحامية دمياط أفاض في الحديث عنها المؤرخون .. ولم يستطع الصليبيون دخولها ـ رغم التفوق وانعدام التكافؤ ـ إلا في أكتوبر سنة ١٢١٩ م (الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ) أي بعد سبعة عشر شهرا من نزول قواتهم الغازية إلى مياه دمياط !..

وفي دمياط كرر الصليبيون فظائعهم وأعادوا بشاعاتهم من جديد ؛ إذ نقضوا ما تعهدوا به للحامية والسكان من الأمان ، فقتلوا من قتلوا ، ومن لم يصبه القتل وقع في الأسر .. وباتوا ليلتهم الأولى بجامع المدينة يفجرون بالنساء ويغتصبون بكارة البنات . ثم حولوا الجامع إلى كنيسة .. وبعد ذلك جمعوا الأسرى ورءوس القتلى والمصاحف ومنبر الجامع وبعثوا بها جميعا إلى « بلادهم » !..

وهزت نكبة دمياط ضمير العرب والمسلمين ، وجسدت أمامهم الخطر المحدق بمصر ، فأيقنوا أن سقوطها يعني سقوط كل ديار العرب والإسلام .. وخرج من عند الملك الكامل سبعون رسولا يستنفرون أنحاء العالم العربي ، ويبلغون قادته أن « الفرنج إذا تغلبوا على مصر وملكوها لم يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها ! » ..

ودوى النفير العام في مصر ، من أسوان إلى الإسكندرية ، وعرف الشعب أن الصليبيين قد أقطعوا أرض مصر لفرسانهم ! فهجر الرجال المدن والقرى وتوجهوا إلى معسكر « المنصورة » ، وقاد التعبئة والاحتشاد العلماء والمتصوفة والشعراء .. وفرضت ضرائب المعركة على مختلف الفئات والطبقات ..

وتوالت طلائع النجدات من العراق والشام وحلب وحماة وحمص وبعلبك .

وأخذ أمراء المشرق يشنون الغارات ضد مواقع الصليبيين بالشام ؛ كي

يفتحوا عليهم جبهة ثانية ، يخف بها ضغطهم على مصر ، وتقل بسببها إمداداتهم لقوات غزوهم هناك ..

وفى الأيام الأولى من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٢١ م) وقعت المعركة الفاصلة ، فاقتحمت طلائع الجيش والشعب معسكر الصليبيين ، عبر (بحر المحلة) ، ثم فتحوا ثغرة فى الشاطىء تدفق منها الماء الذى أغرق المعسكر ، فعزلوهم عن دمياط .. ووقع فى هذا الحصار قائدهم «يوحنا» ملك عكا ، ومندوب البابا ، وأحد الدوقات .. وبعد أن أيقن الصليبيون من الهلاك ، طلبوا وقف القتال ، والأمان ، مقابل الجلاء وتسليم دمياط .. فاستجاب الملك الكامل لطلبهم ، ووقعت بذلك وثيقة فى ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ تحدد قواعد الأمان والجلاء وتسليم الأسرى .. وغادر الغزاة دمياط بعد ذلك التاريخ باثنى عشر يوما .

وسجل المؤرخون أن هذه الوثيقة كانت هدنة ، ولم تكن صلحا بين الملك الكامل والصليبيين !

معركة المنصورة (٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م) :

لم تستطع الكيانات الصليبية على أرض فلسطين والشام تحقيق كل الحلم الاستعمارى ، وخاصة القضاء على مصر ، فجاءت الحملة الصليبية التى قادها ملك فرنسا القديس لويس التاسع ، وصحب حملته سعى أوربا لدى التتار الوثنيين كى يتحالفوا معها ، فيتجه الزحف التترى المدمر إلى العالم العربى ، كى يشغل مشرقه عن نجدة مصر عندما يغزوها جيش الملك لويس !

وفى قبرص قضى الجيش الصليبى شتاء (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩ م) يكمل استعداده ، ريثما تتم الاتصالات مع التتار ، وأخذت مصر تستعد لملاقاة الغزاة

الجدد ، فحصنت دمياط ، التى كانت بوابة مصر يومئذ ، وجمعت وجهزت الجيش والأسطول . واستثمرت إنجازات سلطانها الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ ـ ٦٤٧ هـ / ١٢٣٩ ـ ١٢٤٩ م) فى توحيد المشرق معها .. ورغم مرض السلطان فلقد انتقل ـ على سرير مرضه ـ إلى مقر قيادته على مقربة من ميدان الصدام ، إلى قرية « أشموم طناح » بالدقهلية ، قرب دمياط فى أبريل سنة ١٢٤٩م « المحرم سنة ٦٤٧ هـ » .

وبعد أن اكتمل للجيش الصليبى الاستعداد تحرك من قبرص ، فعرج على حصون الصليبيين وإماراتهم بالساحل الفلسطينى ، فانضم إليه من بها من الفرسان والجنود ، ثم اتجه إلى دمياط عازما على احتلال مصر التى أيقنوا أن لا مكان لكياناتهم فى الشرق ولا حياة لأطماعهم هناك إلا بالقضاء عليها .. وبعبارة المؤرخ « ابن واصل » فى كتابه (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) فإن الصليبيين قد رأوا أن طريقهم لابد أن يمر عبر القاهرة ! .. فلويس التاسع « قد حدثته نفسه أن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج .. وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية .. ! »

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ٤ يونيو سنة ١٢٤٩ م (٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ) وصلت الحملة الصليبية إلى مياه دمياط ، يحملها أسطول مكون من مائتى سفينة ، وتضم ٩,٥٠٠ فارس و١٣٠,٠٠٠ جندى ، وذلك غير الغلمان والسوقة والبحارة والنساء !

وأرسل لويس التاسع إنذارا شديدا إلى الصالح نجم الدين ، فرفضه ، وتوعد الغزاة بنهاية الظالمين ومصارع البغاة .. وفى ٥ يونيو سنة ١٢٤٩ م نزلت قوات الغزو إلى البر ، وعسكرت تجاه معسكر المصريين الذى كان يقوده الأمير

فخر الدين .. وبعد مناوشات محدودة وقصيرة بين الجانبين ، حل الظلام فأرجأ الفريقان القتال إلى الغد .. ولكن المفاجأة حدثت فى جنح الظلام .. فالأمير فخر الدين ـ لأسباب غير مفهومة ولا معلومة ولامعلنة ـ انسحب بقواته ليلا ، وترك مدينة دمياط بما فيها من عدة وعتاد بلا حماية أو دفاعات ، فأحدث ذلك فراغا وفزعا فى المدينة ، فهجرها جمهور كبير من السكان .. وأصبح الصباح فوجد الصليبيون الطريق مفتوحا وخاليا إلى دمياط ، فلم يصدقوا أعينهم ، وحسبوها مكيدة .. ولكن الأمر تأكد ، فدخلوا دمياط دون قتال ، وغنموا حصونها المنيعة ومخازنها العامرة ، وازدادت قوتهم بما غنموا من المؤن والعدة والعتاد !

وثارت ثائرة السلطان لهذه الخيانة .. ولكنه لم يفقد العزم على تعويض الخسارة ، وإقامة الخط الدفاعى الجديد والسعى لاستعادة دمياط ودحر الغزاة . واستفتى الفقهاء فأفتوا بإعدام عدد من المنسحبين منهم نائب دمياط وخمسون من الأمراء ..

وفى ٨ يونيو سنة ١٢٤٩ م انتقل السلطان بمقر قيادته إلى « المنصورة » ، وانعطف ـ وهو يعبىء للمعركة ـ نحو العنصر الوطنى وجماهير الشعب ، بعد ذلك الذى حدث من جنوده المماليك عند دمياط ، وكما يقول مؤرخ تلك الفترة « ابن إياس » : « فإن السلطان أمر بإشهار (إعلان) النداء : بأن النفير عام .. ولا يتأخر صغير ولا كبير .. فخرج الناس قاطبة ، وسائر الأمراء .. وأمر بجمع العربان من سائر النواحى ، فاجتمع من العالم ما لا يحصى !.. » وبعبارة « المقريزى » فلقد « خرجت عوام الناس الذين يريدون الجهاد ، من كل النواحى ، ووصلت عربان كثيرة جدا ، وأخذوا الغارة على الفرنج ومناوشتهم »

أما « ابن تغرى بردى » فيصف الزحف الشعبى إلى ميدان القتال بقوله : لقد «وقع النفير العام فى المسلمين ، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوّعة والعربان .. ومع عامة الشعب خرج العلماء والفقهاء والمتصوفة للجهاد .. »

وعلى امتداد شهور خمسة ـ (ربيع الأول ـ رجب سنة ٦٤٧ هـ) ـ تواصلت هجمات المجاهدين على أطرف معسكر الصليبيين ، وأخذت أرقام خسائرهم فى الارتفاع ، وأبدعت عبقرية الشعب ألوانا وسبلا فى القتال والفداء .

وفى المشرق فتح أهل دمشق على الصليبيين جبهة جديدة يستنزفون بها بعض قواهم ، فزحفوا واستولوا على « صيدا » .. والتحمت صفوف التضامن مع السلطان ، حتى من قبل الأمراء الذين كانوا يعادونه قبل احتلال الغزاة لدمياط! .

وفى ليلة الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ودفن سرا ، بينما واصلت زوجته شجرة الدر ، وقادة الجيش والدولة إدارة دفة الصراع ضد الصليبيين ، حتى حضر فتسلم السلطنة الأمير « تورانشاه » ..

واستشعر الصليبيون موت السلطان ، فحسبوها فرصة سانحة ، إذ تقدموا إلى « فارسكور » فى ٢٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ .. فزاد الناس من حشدهم وتعبئتهم للقتال .. وتكلف الصليبيون الكثير من الخسائر ، ولكنهم وصلوا إلى قرب «المنصورة » فى ١٣ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، حيث عسكروا بالبر الغربى لبحر أشموم (البحرالصغير) بينما معسكر الشعب بالبر الشرقى .. واستمرت المناوشات ، وأعمال الفداء ..

ولقد حـول المصـريون هذا التـقـدم الصليـبى إلى مـقـتل أصـاب حـملتـهم بالهـزيمة، وذلك عندمـا اسـتـولوا فى ٩ ذى الحـجـة سنة ٦٤٧ هـ على اثنتين وثلاثين سـفينة من سفن العدو فى معـركـة بحـرية عند « مـسـجد النصـر » ، وتمكنوا بعـد ذلك من قطع الصلة بين المعـسكر الصليـبى وبين قـاعـدتـهم فى دمياط .. ولما رغب الصليبيون - بعد حـصار معسكرهم - فى الجلاء ، وطلبوا القـدس وبعض حـصـون السـاحل الفلسطينى لقـاء الجـلاء عن دمـيـاط ، رفض المصريون ، وأحكموا عليهم الحصار ، إلى أن كانت ليلة الأربعاء ٣ محرم سنة ٦٤٨ هـ (٧ أبريل سنة ١٢٥٠ م) عندما تحرك الصليبيون من معسكرهم بغية العودة إلى دمياط ، فانقض عليهم المصريون ، ودارت ملحمة الذروة فى هذه الغزوة عند «فارسكور» ، وانجلت ساعات القتال عن أرقام عالية من الأسرى والقتلى .. فلقد وقع فى الأسر ما يناهز المائة ألف .. بينما بلغت عدة القتلى - كـمـا يقـول المقـريزى - : « عـشـرة آلاف ، فـى قـول المقل ، وثلاثين ألفـا ، فـى قـول الـمـكـثـر ؟؟ » .. وبين الأسرى كان الملك لويس ..

وعند هذه النهاية .. ظهرت الكرامة العربية والخلق المسلم .. فأطلقوا سراح الأسرى ، لا فى مقابل فدية - كما اشتهر لدى العديد من الكتاب - وإنما بعد دفع تعويض ما نهبوه من عُدة دمياط وعتادها ومخازنها ، عندما دخلوها دون قتال فلقـد قـدر مـخـزون المدينة بـ ٨٠٠,٠٠٠ دينار (١٠ مليـون فـرنك) ، وكـان الصليـبيون قـد أنفقوا نصفه (٤٠٠,٠٠٠ دينار) ، فـجمع الملك لويس وقادة حـملتـه مقدار ما أنفقوا ، ودفعوه مع ما بقى من المخزون ، فأطلق المصريون سراحـهم .. وارتفع العلم المصرى على دمياط فى يوم (الجـمعة ٧ مـايو سنة ١٢٥٠ م - ٣ صـفـر سنة ٦٤٨ هـ) . وفى اليـوم التـالى خـرج الصليـبـيـون

مدحورين من مياه دمياط .. وعاد القديس لويس إلى فرنسا دون أن يستعيد بيت المقدس ؛ لأنه فشل فشلا ذريعا فى امتلاك الديار المصرية !.

معركة عين جالوت (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :

العدو الذى حاربه العرب والمسلمون فى «عين جالوت » لم يكن جيشا صليبيّاً ، وإنما كان جيشا تتريا ، قدم من الشرق الآسيوى ، لا من الغرب الأوروبى .. ولكنه - مع ذلك - لم يكن مقطوع الصلة بالغزوة الصليبية ولا منبت الأسباب بالصراع الذى خاضته أوربا لاحتلال الشرق فى العصر الوسيط.

فبعد فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٥٠ م استمرت الاتصالات « الأوربية - التترية » بهدف إقناع خاقان التتار الشرقيين بتجهيز حملة تزحف لتنهب وتدمر ديار العروبة والإسلام ، وتنجز ما فشل فيه الصليبيون ..

* فسافرت من حصن الصليبيين فى « عكا » لهذا الغرض ، إلى «قراقورم» عاصمة التتار بعثة فرنسية رأسها رجل الدين « جليوم ردبروك » سنة ١٢٥٢ م ، ومكثت هناك تفاوض خمسة أشهر .

* واستعان الصليبيون على تحقيق هدفهم بالمسيحيين النساطرة الذين كان لهم نفوذ مؤثر فى بلاط خاقان التتار ، منهم « دوقوز خاتون » إحدى زوجات «هولاكو » !..

* وعاودت الإمارات الصليبية - (أرمينية وأنطاكية) - المسعى ، فنجح الأمير « هيتوم » ملك أرمينية فى إقناع هولاكو بالزحف على بلاد العرب والمسلمين ، كما نجح فى أن يكون قائد هذا الزحف مسيحيا نسطوريا من قواد التتار هو « كتبغا » !

وهكذا نجح الصليبيون فى تدبير غزوة جديدة مدمرة ، قبضتها وقفازها : التتار الوثنيون .. وعبر فارس ، وصل الزحف التترى إلى الوطن العربى ، واقتحم بغداد فى ٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ، فأزال الخلافة العباسية ، ودمر الحضارة المزدهرة ، وصنع بالبشر والعمران مأساة ظلت منذ ذلك التاريخ - ولا تزال - مضرب الأمثال ..

وأراد التتار استثمار الهول والفزع اللذين أحدثتهما مأساة بغداد ، فاندفعوا إلى الغرب نحو الشام .. وأرسل هولاكو إنذاراته الفظة والمتعالية إلى أمراء الشام ، يطلب الاستسلام (لملك الملوك على وجه الأرض) ! ويحذر من الاعتماد على مصر وسلطانها !.. وفعل الرعب فعله .. وسقطت « حلب » بيد التتار فى المحرم سنة ٦٥٨ هـ ..

وجمع التتار حشودهم ، وتقدموا - عبر فلسطين - يريدون مصر ، وبعثوا بإنذارهم إلى سلطانها « الملك المظفر قطز » طالبين الاستسلام .. ولكن المصريين رفضوا الإنذار ، بل وقتلوا رسل هولاكو الذين حملوا إنذاره وعلقوا جثثهم على أبواب القاهرة - وهى سابقة غير مألوفة - كى يعلنوا للناس العزم الأكيد على المقاومة والاستعداد لملاقاة الغزاة !

وانعطف السلطان والمماليك إلى جماهير الشعب ، فانخرط العامة فى الجهد القومى المعبأ للمعركة ، وأسهم علماء الشريعة وأقطاب التصوف فى الدعوة للنفير العام والجهاد المقدس .. وفرضت الضرائب للحرب ، فدفع ملاك الأرض والعقارات والآلات أجرتها شهرا ، وقدم الأغنياء زكاة أموالهم مقدما ! واقتطعت الدولة من الأثرياء ثلث ما لديهم من أموال ، بينما دفع كل مواطن من العامة دينارا واحداً .. كما يقول « ابن إياس » .

وانضم الذين هاجروا من الشام إلى مصر ، انضموا للجيش الذى خرج إلى المشرق يبغى لقاء التتار ، حتى لقد انخرطت فيه - كما يقول « ابن تغرى بردى » - : « أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمتطوعة » .

ومن «القاهرة » إلى « الريدانية » إلى « الصالحية » إلى « غزة » كانت مسيرة الجيش ، الذى قاد مقدمته الأمير بيبرس البندقدارى .. ومن « غزة » اتجه شمالا إلى « عكا » ، حيث أنذر بقايا الصليبيين بالفناء إن هم أعانوا التتار فى القتال .. وأخيرا اتجه للقاء التتار فى عين جالوت ، بالقرب من «الناصرة » .

وفى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م) دارت المعركة الحاسمة ، عندما اندفعت أمواج الزحف العربى المسلح ، ومن حولهم الفلاحون الفلسطينيون الذين أحاطوا بالجنود يصيحون ويهللون ويكبرون ليشعلوا الحماسة فى المقاتلين .. وتتابعت وتعالت دقات طبول السلطان والأمراء لتتحول إلى موجات صوتية دافعة للحماس ومعينة على الإقدام ومانعة من التفكير فى أى شىء غير القتال !..

وبلغ الحماس مبلغه ، ووصل الإقدام مداه عندما اقتحم السلطان ميدان القتال ، وشارك فيه ، وهو يصيح : وا إسلاماه : وا إسلاماه !.. وا إسلاماه ..

وللمرة الأولى - فى التاريخ - انهزم التتار !.. فنصف جيشهم قد قتل ، والنصف الآخر فر إلى « بيسان » .. وعند ذلك نزل السلطان من على ظهر جواده ، فقبل أرض المعركة ومرغ وجهه فى ترابها ، وصلى ركعتين شكرا لله !

وإلى « بيسان » تقدم الجيش فى أثر فلول التتار ، فوجدهم هناك قد جمعوا حشودهم من أنحاء الشام ، حتى لقد زاد تعداد جيشهم عن عدده فى عين

جالوت ـ ولكن الهزيمة لاحقتهم فى « بيسان » أيضا ، فاندحرت موجة غزوهم إلى الشرق .. وظلت أعلام الحضارة العربية الإسلامية خفاقة بعد أن نجت معاقلها ومعالمها من الدمار ، بالانتصار الذى تحقق فى « عين جالوت » ..

نهاية الغزوة الصليبية :

أما الكيانات الصليبية التى بقيت على الساحل الفلسطينى ـ وحول « عكا » بالذات ـ والتى ظلت رمزا يشير إلى الغزوة الكبرى التى شنها الغرب ضد الشرق منذ سنة ١٠٩٦ م فلقد أسدل التاريخ عليها الستار عندما زحف الجيش المصرى بقيادة السلطان الأشرف بن قلاوون (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) لتحريرها ..

* وبعد معركة استمرت شهرا فتحت عكا فى مايو سنة ١٢٩١ م.. رغم الإمدادات الصليبية التى جاءت فرسانها من قبرص .

* ثم سقطت صور فى ١٨ مايو ..

* وفى ١٤ يوليو فتحت صيدا ..

* وفى ٢١ يوليو استسلمت بيروت ..

* وفى ٣ أغسطس تحررت أنطرطوس ..

* وفى منتصف أغسطس سنة ١٢٩١ م دمر الجيش المصرى آخر قلعة للفرسان الداوية الصليبيين ، وهى قلعة « عتليت » ..

وبذلك أسدل الستار على إحدى جولات الصراع التاريخى بين الغرب الاستعمارى وبين الشرق العربى .. تلك الجولة التى شهدتها العصور الوسطى ، والتى جاءت أوربا الاستعمارية فيها تسعى إلى مطامعها ، ساترة هذه المطامع ـ أو محاولة سترها ـ برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام !

سينــاء

الشرط الثالث للقومية العربية

فى التعريف العلمى للقومية والأمة عدة شروط وقسمات لابد من توافرها حتى نستطيع أن نقول إن هذه الجماعة البشرية أمة واحدة ، وأنها تكون قومية واحدة من القوميات .. وهذه الشروط والقسمات هى :

١ ـ أن تكون لهذه الجماعة البشرية إقامة ثابتة فى وطنها ، بحيث لا يكون لقاؤها عرضا ينتهى بالهجرات والرحيل .. وأن يكون تكوين هذه الجماعة قد حدث خلال المراحل التاريخية ، فأصبح طبيعيا راسخا ، وليس مجرد عملية مصطنعة قهرية .. وأن يكون المعيار الذى يحدد الدخول فى هذه الجماعة ، والخروج منها مبرأ من النزعات القبلية والعرقية والعنصرية .

٢ ـ وأن تكون لهذه الجماعة البشرية لغة مشتركة .

٣ ـ وأن تكون لها أرض مشتركة ، تصبح ـ بالنسبة لقسماتها القومية ـ الوعاء الذى يتم فيه التفاعل والانصهار .. بحيث تخلو من الحواجز الطبيعية والصناعية التى تحول دون هذا التفاعل وذلك الانصهار .

٤ ـ وأن تكون لهذه الجماعة البشرية حياة اقتصادية مشتركة ..

٥ ـ وأن يكون لها تكوين نفسى مشترك ، ينعكس ويتجسد فى ثقافتها العامة والمشتركة .

وعلى هذا الأساس ـ وانطلاقا من هذا الموقف العلمى فى الدراسات القومية ـ

يجب أن يكون الفهم العربى لقضية الاحتلال الإسرائيلى لسيناء والأطماع الصهيونية فيها[1] والإصرار على زيادة رقعة الحاجز الصناعى الذى تمثل ويتمثل فى الكيان الصهيونى العنصرى ، والذى شطر الأرض المشتركة للقومية العربية إلى شطرين : مشرق ومغرب ، ثم قام بينهما حائلا دون الاتصال الأرضى ، على أمل الحيلولة بين العرب وبين وحدتهم ، وتمهيدا لإصابة باقى قسمات القومية العربية بالتحلل والذبول بدلا من التفاعل والانصهار .

وعلى هذا الأساس ـ ومن هذا المنطلق ـ تصبح سيناء أكثر من صحراء رملية .. وأكثر من ثروات اقتصادية تختفى أو تظهر فى أرض هذه الصحراء وأكثر من موقع استراتيجى بالنسبة لمصر كوطن من الأوطان العربية .. وأكثر من قطعة عزيزة على قلوب المصريين لا يمكن للعقل ولا للقلب أن يهدأ دون أن تتحرر من قيد الأعداء .. تصبح سيناء أكثر من كل ذلك ، وفوق كل ذلك وقبله :

قضية العروبة بالنسبة لكل من يؤمن بالعروبة .. قضية القومية العربية والأمة العربية بالنسبة لكل من ينتمى إلى هذا الكيان من المحيط إلى الخليج .. قضية البقاء والازدهار لكل القيم العربية على كل الأرض العربية ، إذ فى تحريرها قيام هذا الوعاء، وعاء الأرض العربية المشتركة ؛ كى تتفاعل فيه هذه القيم التى يريد لها الأعداء الذبول والاضمحلال والفناء .

ونحن إذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على هذه الأهمية الكبرى التى

---

(١) نشرت هذه الدراسة ، إبان احتلال إسرائيل لسيناء ـ بمجلة الهلال ، عدد يونيو ١٩٧١م .

تمثلها سيناء فى وحدة الأرض العربية المشتركة ، تلك القسمة القومية الضرورية لوحدة شعوب هذه الأمة ، وجدنا فى كثير من تجارب الأمم فى قارات العالم المختلفة ، وفى عصور البشرية المتعاقبة الكثير من الأمثلة على هذا الذى نقول :

فعندما تكونت « باكستان » فى أعقاب الحرب العالمية الثانية شهدت جماهيرها وزعاماتها السياسية والفكرية موجات من الحماس الوحدوى بلغت حد العقيدة الدينية التى تكونت على أساسها هذه الدولة بعد الاستقلال .. بل إن هذا الحماس قد جعل الكثيرين - من بلاد كثيرة - ينظرون إلى هذه التجربة كنموذج يجب أن يحتذى فى إقامة الدولة الإسلامية ، واليوم أكدت الأحداث التى عاشتها هذه البلاد أن انعدام « الأرض المشتركة » بين إقليميها الشرقى والغربى ، كان فى مقدمة الأسباب التى جعلت القسمات التى تميز هذين الإقليمين تسير فى اتجاه التميز والابتعاد ، بل والتعارض والتناقض بدلا من أن تسير فى اتجاه التقارب والتفاعل والانصهار .. حتى لقد أفضى ذلك إلى الانفصال !

وحتى تجربة اليهود أنفسهم .. عندما جعلتهم الظروف التاريخية يعيشون فى أوطان عديدة ، فإنهم قد تمايزت طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم ، رغم تلك التنظيمات السرية التى ظلت تعمل لتوحيدهم على طول عصور ذلك التاريخ ، ورغم العنصرية التى ظلت تشدهم إلى رباطها باستمرار ، ورغم الأحلام الاستيطانية والاستغلالية التى ظلت تراودهم جميعا تقريبا فى أرض فلسطين ..

واليوم يشهد المجتمع الإسرائيلى - رغم التخطيط الواعى الذى يواجهون به

سلبيات عصور الشتات - انقسام الصهيونية إلى أناس من الدرجة الأولى ، والثانية ، والثالثة .. ويعيش تناقضات لا يمنع تفجرها سوى ظروف التعبئة التى تعيش فيها هذه الثكنة العسكرية العنصرية باستمرار ..

***

أما إذا شئنا - مجرد الإشارة - لتلك الكارثة التى يمكن أن تصيب الوطن العربى وقسمات أمته القومية ، إذا حدث ونجح الاستعمار والصهيونية فى ترسيخ الحاجز الذى يشطر أرضنا إلى مشرق ومغرب ، فيكفى أن نعلم أن مساحة مصر والمغرب العربى تصل إلى ضعف مساحة المشرق العربى ... وأن تعداد السكان فى مصر والمغرب العربى يصل إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف عدد السكان فى أقطار المشرق .. وأن اللغة العربية يتكلمها فى القارة الأفريقية - أى غربى سيناء - ما يزيد على مائة مليون من البشر .. بل وتتأثر بها وتقترب منها لغات أفريقية أخرى ، مثل « السواحلية » و « الهوسا » و«اليوربا » يبلغ عدد الذين يتكلمون بها من أبناء أفريقيا مثل هذا العدد كذلك .. وهى إمكانيات حضارية وسياسية لن تستطيع العروبة الاستفادة منها إلا بهزيمة المخطط الاستعمارى الصهيونى الذى يدور من حول هدفه الأساسى : فصم عرى الوحدة العربية ، والحيلولة دون القومية العربية ودون الوحدة .. وذلك عن طريق تقسيم الأرض المشتركة ، وتعميق الحاجز الذى أقيم فى سنة ١٩٤٨ فى فلسطين ، بمده غربا وجنوبا فى أرض سيناء .

ونحن نستطيع أن نقول أيضا : إن هذه الأهمية القومية لسيناء ، ليست وليدة العصر الحديث والصراعات التى يخوضها العرب لتحرير أوطانهم من الاستعمار وحليفته الصهيونية .. وإنما ترجع أهمية سيناء القومية ودورها

القومى إلى ما هو أبعد من هذا التاريخ بكثير .. كما أن وضعها كنقطة رئيسية فى جدول أعمال الذين خططوا لإعاقة تقدم هذه المنطقة ومنع وحدتها ، هو أبعد أيضا من ذلك التاريخ الحديث .. فمنذ أن قامت للعرب والعروبة إمبراطورية على أنقاض النفوذ والاحتلال البيزنطى لبلاد الشرق ، كان لسيناء ذلك الدور القومى العربى .. وللأعداء ذلك المخطط لشل فعالية دورها هذا ، والحيلولة بينها وبين القيام بدور الجسر الحضارى والقومى الذى يربط المشرق بالمغرب ويوحد العرب من الخليج إلى المحيط ..

فى العصر العربى الأول :

منذ أن عبر الجيش العربى الذى قاده عمرو بن العاص أرض سيناء سنة ٦٤٠م ليساعد العنصر الوطنى المصرى على إزاحة النير البيزنطى الاستعمارى، وسيناء تلعب فى التاريخ العربى دورا ما زال ينتظر الدراسة التاريخية الكبرى التى تجلى صفحاته وتضعها بين يدى الباحثين والقراء .

فهى لم تشهد فقط طلائع الجيوش التى حررت مصر ، ثم بلاد الشمال الأفريقى ، ثم عبرت البحر إلى الأندلس لتقيم الحضارة التى يفخر بها الشرق والغرب حتى هذا التاريخ ... وإنما كانت الطريق لكل عالم ، ولكل فقيه ، ولكل عقل عربى مستنير عبر من بلاد المشرق إلى بلاد أفريقيا والمغرب والأندلس ليوقد شمعة فى عقول الناس وقلوبهم ، وليسهم فى بناء ذلك المجد الفكرى الإنسانى الذى لولا وجوده فى العصور الوسطى لشمل وصف « العصور المظلمة » كل بنى البشر طوال هذه القرون ... ومن يدرى !! ربما لم يكن لأوربا عصر للنهضة بعد ذلك الانحطاط الذى عاشت فيه . فذلك البناء الحضارى الذى صنعه العرب والمسلمون إنما كان ثمرة تفاعل الجذوة الفتية التى خرجت من المشرق فوصلت إلى المغرب ، عبر سيناء ..

وعندما أخذت الإمبراطورية العربية على عهد (عبد الملك بن مروان) (٦٨٥ - ٧٠٥ م) تسلك طريق التعريب لأجهزة الدولة ، عبرت سيناء تلك الأفكار التى وضعت فى دمشق ، فربط البريد أجزاء البلاد ، وعربت دواوين الحكم والحكومة ، وعرفت الأسواق العربية النقود العربية لأول مرة فى التاريخ ... الخ .. الخ ..

وفى عهد « هشام بن عبد الملك » (٧٢٤ - ٧٤٣ م) أخذت القبائل العربية والبيوت البدوية فى الهجرة من شبه الجزيرة - عبر سيناء - إلى مصر ؛ كى تعيش فيها ، وتتفاعل حضاريا وعرقيا وثقافيا مع العنصر المحلى فيها ، ولتعطى فى النهاية ثمرة عملية التعريب الكبرى التى شهدها ذلك التاريخ ، تلك الثمرة التى تمثلت فى عروبة مصر ، وعروبة المغرب العربى ، تلك العروبة التى استعصت على المستعمر عندما أراد اقتلاعها، أو حتى مجرد النيل منها، سواء فى العصور الوسطى أو فى العصر الحديث ..

ففى سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) شهدت سيناء عبور طلائع هذه القبائل من عرب (قيس) .. ثم تبعتها غيرها .. فانتشرت بذلك العربية كلغة ، والعروبة كهوية قومية ، والتعريب كعملية حضارية عميقة الجذور فى أعماق الملايين من البشر الذين عاشوا غربى سيناء من مصر حتى شاطىء المحيط ... وكما شهد الذين أرخوا لتلك العملية .. « .. فلقد كان أكبر عامل فى انتشار الثقافة العربية فى مصر بتلك الدرجة الناجحة التى لم تبلغها سابقتها الهلينية : هو نزوح العرب الرحل إليها نزوحا تدريجيا واسع النطاق ، واستقرارهم بها[1] .. » وهو النزوح الذى كانت سيناء معبره وطريقه باستمرار .

---

(١) چورچ كيرك « موجز تاريخ الشرق الأوسط » ص ٣٧ . ترجمة عمر الإسكندرى - طبعة الألف كتاب - القاهرة .

وبعض هذه القبائل التى عبرت سيناء إلى مصر واصلت سيرها بعد حين من الدهر إلى بلاد المغرب العربى ، فأضافت إلى عقيدة الإسلام قسمة العروبة لهذه البلاد ، ولم يعد سكان المغرب مجرد « بربر » مسلمين ، وإنما ضربت العروبة بجذورها فى أعماق هذه البلاد .. ونحن إذا شئنا أن نعرف جذور ذلك العود العربى الذى استعصى على الفرنسيين اقتلاعه أو كسره فى الجزائر والمغرب وتونس ، فلا بد لنا من ذكر طلائع العروبة والتعريب التى زحفت إلى هناك فى هجرات القبائل العربية من « بنى هلال » و « بنى سالم » و « رياح » .. الخ .. الخ .. تلك التى هاجرت إلى المغرب فى سنة ٤٤٤ هـ (سنة ١٠٥٣ م) .. والتى أضافت بهجرتها تلك إلى تراثنا الثقافى عددا من الملاحم والأساطير أسهمت فى إيجاد التكوين النفسى المشترك للمواطن العربى على امتداد الوطن العربى الكبير ..

وعندما اكتملت لهذه المنطقة من أفريقيا مقومات العروبة والتعريب ، وقامت فى مصر والمغرب الدولة الفاطمية ، وبنيت «القاهرة » إيذانا بأن الوقت قد حان كى تقوم هذه العاصمة بالدور القيادى للوطن العربى كله .. عندما حدث ذلك التحول الكيفى البالغ الأهمية فى تطور العالم العربى أخذت سيناء تردّ إلى المشرق ، من المغرب ، بعض الدين ، فتعطيه زادا فكريا وثقافيا ، وعرفت طرقها قوافل الدعاة الفاطميين ، أولئك الذين حملوا إلى المشرق رسالة «الأزهر» و « بيت الحكمة » ، ومعارف مكتبة القاهرة التى لم يكن لها نظير فى ذلك التاريخ .. كما عبرت سيناء كذلك جيوش الفاطميين كى تجدد شباب الدولة العربية الإسلامية التى شاخت فى العصر الأخير من حكم العباسيين .. وظلت تمارس دورها ، معبرا حضاريا ، وهمزة وصل .. وهى وإن بدت فقيرة

عريانة قاحلة . إلا أنها عاشت فى كنف الحضارة الزاخرة بالغنى وبالحياة ، والتى امتدت آثارها إلى ما هو أبعد من المحيط والخليج .

فى مواجهة الأخطار :

وعندما بدأت تلك الحقبة الشهيرة من صراع الغرب ضد الشرق ، والتى عرفت باسم « الحروب الصليبية » ، واستمرت قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١م) بدأت تتكشف للغزاة والمغامرين الأوربيين مخاطر الوحدة العربية كعقبة لابد من إزالتها حتى يدوم لهم الاحتلال والاستقرار ، فكانت عيونهم على فلسطين - تحت ستار المسيحية وقبر المسيح - حتى يصلوا إلى مركز التحكم فى طريق التجارة الدولية بين آسيا وأوربا .. ومن ثم وجدوا أن استقرارهم فى هذه البلاد ، وبقاء كياناتهم اللاتينية الاستيطانية المزروعة فى قلب فلسطين رهن بعزل المشرق عن المغرب . والحيلولة دون وحدة مصر البرية مع البلاد الواقعة إلى الشرق والشمال من فلسطين .

ومن خلال معارك هذا الصراع وأحداثه اكتشف الطرفان - « العرب والصليبيون » - حقيقة هامة ، ظلت تحكم معاركهما ، وبالذات فى المائة عام الأخيرة التى بدأت مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى .. وهذه الحقيقة تقول : « إنه لا سبيل للعرب كى يلفظوا الكيانات الصليبية التى زرعتها أوربا فى فلسطين والشام إلا بتوحيد المشرق مع مصر ، حتى يتم الالتفاف حول هذه الكيانات الغريبة ، فيضيق عليها الخناق ، فلا تجد سوى البحر المتوسط طريقا لها ، جاءت عبره من أوربا ، وعبره إلى أوربا تعود .. كما أنه لا سبيل أمام الصليبيين - كى يثبتوا كياناتهم فى الشام وفلسطين - إلا بمنع قيام هذه الوحدة العربية بأى ثمن ، وبأى شكل من الأشكال .

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة « مملكة أورشليم » الصليبية التى قامت سنة (١١٠٠م) وقارناها بخريطة الكيان الصهيونى فى فلسطين ، وخصوصا من حيث قيام هذين الكيانين وتحقيقهما لعزل المشرق عن المغرب العربى ، وإقامة حاجز يمتد من خليج العقبة إلى البحر المتوسط .. أدركنا وحدة الهدف الاستعمارى ، ووحدة المخطط رغم اختلاف العصور والملابسات ، ورغم اختلاف أدوات التنفيذ لهذا المخطط وتلك الأهداف ..

وإذا أضفنا إلى ذلك تلك المطالب والآمال الصهيونية الحالية فى سيناء ، تلك التى تريد مد عمق الحاجز إلى جنوبى سيناء حتى « شرم الشيخ » أدركنا أنهم اليوم يريدون إحكام المعزل أكثر مما حاول الأولون .. وأنهم يريدون ما هو أبعد من التجارة ، والأمن على التجارة الخاصة بهم فى البحر الأحمر .. إنهم يريدون الحيلولة دون تنفيذ ما طالب به البعض بعد سنة ١٩٤٨م من إقامة معبر برى يصل المشرق بالمغرب عبر خليج العقبة وسيناء ، وهو الأمر الذى يجعل الوحدة الأرضية للقومية العربية قائمة ، بل وملتفة حول الكيان الصهيونى الغريب من أغلب الجهات .. كما يريدون تحويل التجارة عن قناة السويس إلى قناة يخططون لإنشائها بين « إيلات » و « أسدود » .. كى يعيدوا تنفيذ وتطبيق ما صنعه البرتغاليون فى العصر الوسيط عندما حولوا التجارة إلى رأس الرجاء الصالح فأصابوا مصر والوطن العربى بالتحلل والتفكك فى عصر المماليك ؟!..

وكل هذه الأحلام تطوف بسيناء .. وكل هذه المطالب يريدونها من سيناء .. وتحقيق هذه الآمال أو فشلها رهن بالموقف من سيناء ..

ذلك أن سيناء كانت هى الطريق الذى سلكه العرب فى العصور الوسطى

لتبديد أحلام الصليبيين وتحطيم آمالهم .. وذلك عندما عبرتها جيوش صلاح الدين الأيوبى لتحرز الانتصارات الكبرى التى توجت باسترداد القدس وتحريرها فى سنة ١١٨٧ م .. وعندما عبرتها من بعد ذلك جيوش الملك قطز والظاهر بيبرس لتصد التتار فى « عين جالوت » سنة ١٢٦٠ م ، ولتفتح حصون الصليبيين وتحررها منهم بعد ذلك ، وعندما عبرتها جيوش السلطان الأشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) لتحرر عكا ، آخر معاقل الصليبيين فى الشرق ، فى مايو سنة ١٢٩١ م .. كانت سيناء ، وعبور سيناء هو بداية النهاية لذلك المد الاستعمارى الأوربى الذى زحف على الشرق ، ودام فى ربوعه قرنين من الزمان ؛ كى يعيد السيطرة والنير اللذين خلعهما هذا الشرق عن كاهله عندما ظهر فيه الإسلام وتسلح أهله بأسلحة العروبة والإسلام .

ونحن إذا شئنا أن نعرف مدى وعى قادة أمتنا العظام بأهمية سيناء كطريق لا بديل له لتحرير الشرق من ذلك الغزو الصليبى ، كفانا أن نورد ذلك المثل الذى حدثت وقائعه فى معركة العرب ضد الغزو الصليبى فى (٨ يونيو سنة ١٢١٨م) .. فلقد استطاع الصليبيون أن يحتلوا يومها مدينة « دمياط » ، بل ودام احتلالهم أكثر من ثلاث سنوات ـ « أربعين شهرا » ـ ودارت يومئذ اتصالات بين الملك الكامل الأيوبى وبين الصليبيين ، وعرض عليهم أن يتركوا « دمياط » ويعودوا إلى حصونهم على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط فى نظير أن يعيد إليهم عددا كبيرا من الحصون التى سبق أن حررها منهم صلاح الدين .. بما فى ذلك القدس .. ولكن المفاوضات فشلت لاصطدامها بعقبة لا يمكن إدراك أهميتها إلا فى ضوء حديثنا هذا عن دور سيناء ، ودور وحدة الأرض العربية فى اقتلاع ولفظ الكيانات الغريبة والشاذة التى اجتهد الاستعمار تاريخيا فى زرعها بأرض فلسطين ..

ذلك أن الملك الكامل ـ كما قلنا ـ قد عرض على الصليبيين عددا كبيرا من الحصون ، ولكنه تمسك بالطريق البرى الذى يصل سيناء بالمشرق ، وبأن تبقى حصون جنوب فلسطين بيد جيشه ، وفى مقدمتها حصنا « الكرك » و«الشوبك» شمالى خليج العقبة وجنوبى فلسطين .. وكان الملك الكامل يقدم يومئذ من التنازلات ما لايتعارض مع الاستراتيجية العربية التى رسمت فى عهد الدولة « الزنكية » فى المشرق(1) ، والتى نفذها « نور الدين » (١١٤٦ - ١١٧٣ م) ثم من بعده « صلاح الدين » .. استراتيجية وصل المشرق بالمغرب، وتوحيد المشرق ومصر ، وإحاطة الكيانات الاستيطانية الغربية من كل الجهات حتى لا يبقى أمامها سوى البحرالمتوسط لتعود عبره إلى أوربا حيث جاءت إلى بلادنا من هناك ..

وتوقفت المفاوضات بين الملك الكامل وبين الصليبيين .. ودارت الحرب ، وأحرزت فيها مصر انتصارا تاريخيا بدد كل آمال الغزاة وأحلامهم فى سبتمبر سنة ١٢٢١ م . توقفت المفاوضات وتعثرت بسبب إصرار العرب على ذلك الممرالبرى الذى يصل المشرق بالمغرب شمالى خليج العقبة وجنوبى فلسطين .. وهى نفس المنطقة التى دفع « برنادوت » حياته ثمنا لاقتراحه إعطاءها للعرب عند قيام إسرائيل ؟!!..

فى العصر الحديث :

وعندما شرع الاستعمار ـ مع مطالع العصر الحديث ـ فى تكرار محاولاته التاريخية للسيطرة على هذه المنطقة ، كان قد استفاد من كل خبرات أسلافه

---

(١) وهى التى تأسست فى الموصل سنة ١١٢٧م ، وامتد نفوذها إلى الشام ، وأحاطت بالكيانات الصليبية بعد وحدتها مع مصر على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٣م .

فى هذا الميدان .. ولكن بقى الهدف وهوالسيطرة ، وظلت وسيلته الأساسية هى تحطيم وحدة الأرض العربية بإقامة كيان غريب فى هذا المكان من العالم العربى .. والتقت عندئذ مخططاته بأحلام اليهود والصهونيين ..

فعندما كانت فرنسا تحاول بواسطة « بونابرت » إقامة إمبراطوريتها الشرقية طلب « بونابرت » من يهود العالم أن يتحالفوا مع فرنسا ضد العرب ، وأن يكونوا لفرنسا العميل والشريك الأصغر فى النهب الاستعمارى الذى جاءت به حملته إلى الشرق العربى فى ذلك التاريخ .. ومن على أبواب « عكا » ـ التى ردته مهزوما ـ وجه « بونابرت » نداءه الشهير إلى يهود العالم فى ٤ أبريل سنة ١٧٩٩م طالبا مؤازرتهم له فى نظير أن تعيد لهم فرنسا « وراثة فلسطين» .. (١) ؟!!

وعندما انهارت أحلام « بونابرت » فى سنة ١٨٠١ م .. وانهارت من بعدها مخططات بريطانيا فى معركة « رشيد » سنة ١٨٠٧ م ، ونهضت فى مصر دولة مدنية قوية حديثة بقيادة محمد على حاولت ـ بأسلوب ذلك العصر ـ توحيد مصر والسودان بالمشرق العربى (١٨٣١ ـ ١٨٤١ م) قادت بريطانيا العمل لتحطيم ذلك الاتحاد ، وأبصرت يومئذ دور الأقلية اليهودية العنصرية فى ذلك المخطط .. وكتب وزير الخارجية الإنجليزى « بالمرستون » إلى سفيره فى عاصمة الدولة العثمانية يقول فى سنة ١٨٤٠ م : « .. إن الشعب اليهودى بعودته إلى البلاد « فلسطين » .. يكون حجر عثرة فى سبيل أى أهداف سيئة

---

(١) انظر نص النداء فى كتابنا « إسرائيل ... هل هى سامية ؟ » ص ٣١ ، ٣٢ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م .

تخطر فى المستقبل ببال محمد على أو من يخلفه «(١) .. ومنذ ذلك التاريخ تحدد دور الحركة الصهيونية، كحجر عثرة فى سبيل أهدافنا فى الوحدة - وهى الأهداف السيئة فى نظر الاستعمار - سواء قام على تنفيذ هذه الأهداف محمد على أو غيره .. فالهدف هو الحيلولة دون وحدة الأمة العربية وقوتها وتحررها وتقدمها عن طريق تمزيق أرضها المشتركة بزرع الكيان الصهيونى الغريب فى هذا المكان ..

وقبلت الصهيونية هذا الدور .. بل قامت حركتها السياسية الحديثة على يد «هرتزل» سنة ١٨٩٧ م كى تنهض بدورها فى هذا المخطط الكبير .. قامت فى سنة ١٨٩٧ لتنفذ نفس الأهداف التى عبر عنها أحد قادة اليهود الفرنسيين قبل مائة سنة، فى ١٧٩٨ م عندما أخذ يتحدث إلى يهود العالم عن أهمية هذا الموقع، وعن توسط سيناء للخريطة التى يحلم بها، فقال : « .. أما البلاد التى ننوى قبوله - باتفاق مع فرنسا - فهى : إقليم الوجه البحرى من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة « عكا » إلى « البحر الميت »، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر .. فهذا المركز الملائم أكثرمن أى مركز آخر فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشمالية والجنوبية .. وموقع بلادنا من البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا . ولما كانت بلادنا فى موقع متوسط من العالم فإنها ستصبح كمستودعا لجميع الحاصلات التى تنتجها البلاد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢، ٤٣ .

الغنية»(١) فهو يرمى باختصار إلى سلب الوطن العربى قيمته الدولية وموقعه الاستراتيجى ، ومركزه التجارى.. كل ذلك بواسطة شطره ، والاستيلاء على الموقع الهام الذى تتوسطه سيناء .

وعندما يعقد حزب المحافظين الإنجليزى مؤتمرا استعماريا أوربيا فى سنة ١٩٠٥م لدراسة تجارب الفشل والنجاح التى أصابتها من قبل الإمبراطوريات الأوربية فى الشرق ، يدرك هذا المؤتمر دور الوحدة العربية المرتكزة إلى وحدة أرض المنطقة فى فشل إقامة واستمرار هذه الإمبراطوريات ... ولذلك يوصى هذا المؤتمر « بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط أوربا بالعالم القديم ، ويربطهما معا بالبحر الأبيض المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة ، وصديقة للدول الأوربية ومصالحها »(٢) .. ولقد قامت الحركة الاستعمارية الأوربية بتوظيف الحركة الصهيونية للقيام بهذا الدور منذ ذلك التاريخ ..

وهكذا نستطيع أن نبصرمن خلال كلماتهم هذه .. كلمات خبراء الشئون الاستعمارية فى أوربا ، والدعاة الصهيونيين نفس المخطط القديم فى ثوبه العصرى الجديد .. وأن نرى فى أطماع الإمبريالية والصهيونية فى سيناء نفس الأطماع التى حلم بها فرسان الصليبيين فى العصور الوسطى ، مع اختلاف طفيف - يتعلق بالشكل فقط - بين الاختفاء خلف « استعادة قبر المسيح » و«استعادة هيكل سليمان » ؟!!..

(١) نقلا عن كتاب « يقظة العالم اليهودى » للكاتب الصهيونى إيلى ليفى أبو عسل ، ص ١٠١ وما بعدها - طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

(٢) انظر هذه الوثيقة فى « ملف وثائق القضية الفلسطينية » ج ١ ص ١٤٣ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

أما المخطط والأطماع فهى هى لم تتغير : فصم عرى وحدة الأرض العربية ، للحيلولة بين العرب وبين التحرر والتقدم والاتحاد ، وذلك لإحكام القبضة الإمبريالية على ثروات ومقدرات هذه المنطقة من المحيط إلى الخليج .. ومفتاح كل ذلك هو عزل مصر عن المشرق العربى .. وبناء سور استعمارى أصم على مقربة من قناة السويس يحول دون نبض القاهرة الثورى حتى لا يُسمع فى ربوع المشرق العربى الكبير ...

وإذا كان هذا هو المخطط ، وتلك هى الأهداف .. فإن فلسفة المواجهة لهما، والعمل لإحباطهما ، تظل هى كذلك دون تغيير ، فيما يتعلق بالأسس والجوهريات .. نفس الإصرار على وحدة الموقف الثورى لهذه الأمة .. نفس الإصرار على بقاء أرضها المشتركة دون فصم ولا تمزيق .. نفس الإصرار على التقدم فى اتجاه تطويق الكيان العنصرى الصهيونى الإمبريالى حتى يأتى اليوم الذى يلقى فيه نفس مصيرالكيانات الغريبة والشاذة التى زرعها من قبل الاستعمار فى هذا المكان . وفى كل المواقف ، وجميع المراحل ، نفس الإصرار على أن تظل سيناء الجسر الحضارى والقومى الذى يحقق لأمتنا ويضمن لها امتلاك خصائصها وقسماتها القومية دونما ضعف أو نقصان ... نفس الإصرار على أن تظل سيناء : الشرط الثالث للقومية العربية ، ذات الرايات الخفاقة ، رغم المصاعب والأزمات والمنعطفات .



منذ متى كانت سيناء

مصرية(١) ؟؟!

هذه الصفحة من تاريخ وحدة هذا الوطن ، التى تحكيها هذه الدراسة ، مهداة إلى أولئك الذين يتصدون اليوم ـ بالسياسة ـ لمنازلة قوى العدوان التى خاضت ضدها قواتنا المسلحة معركة أكتوبر المجيدة .. وهى كذلك مهداة إلى كل باحث فى وحدة هذا الوطن التى ظلت مقدسة طوال عصور التاريخ .

** فى الجولة المسلحة التى أنجزها الإنسان العربى فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ ضد الحركة الصهيونية العنصرية المدعومة بالإمبريالية ، فى هذه الجولة المسلحة ـ التى هى صفحة من صفحات صراع طويل ـ أثبت الإنسان العربى قدرته الفائقة فى استخدام السلاح ، وإحراز الانتصارات فى ميادين القتال .. ولم يعد الجندى الصهيونى هو وحده الذى يملك زمام التفوق فى هذا الميدان..

ولما كان صراعنا الوطنى والقومى والحضارى ضد هذه الغزوة «الصهيونية ـ الإمبريالية» طويلا ، ومتعدد الفصول ، ومتنوع المجالات والميادين ، فإنه لأمر حيوى وضرورى أن يثبت الإنسان العربى ـ فى نضاله هذا ـ أن كفاءته فى مختلف الميادين ـ فكرية ، وإعلامية ، وحضارية ـ لا تقل عن الكفاءة الباهرة التى استخدم بها السلاح فى جولة أكتوبر المجيد ..

---

(١) فى أول زيارة لـ «هنرى كيسنجر» ـ مستشار الأمن القومى الأمريكى ـ لمصر ، عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م ، تساءل هذا التساؤل الاستنكارى ! .. فكانت هذه الدراسة التى نشرت ـ أول مرة ـ فى مجلة «الكاتب» مارس سنة ١٩٧٤م ، تحت العنوان الذى صاغه «كيسنجر» : «منذ متى كانت سيناء مصرية ؟!» .

ولقد علمتنا ـ وتعلمنا ـ الحركة الصهيونية العنصرية أن الفكر سلاح هام جدا من أسلحة هذا الصراع ، فهى لا تهتم به فقط كى تقنع الرأى العام العالمى ، وتؤثر فى الرأى العام العربى ، بل وتلجأ إليه كى تحكم قبضتها على العناصر اليهودية التى تجلبها وتشجعها على الهجرة من مواطنها الأصلية إلى دولة إسرائيل .. تلجأ إلى الفكر كى تقنع هذا الخليط المجلوب من الشتات بأن « الحل الصهيونى » هو الحل الأمثل والوحيد « للمشكلة اليهودية » ولتعميق هذه المفاهيم الصهيونية عن طريق تحويل أساطير التراث اليهودى إلى حقائق واقعية تجعل منها تراثاً قومياً « مصنوعا ومصطنعا » لكيان عنصرى تريد أن تزرعه فى قلب الأمة العربية كى يحول دون وحدتها وتحررها من الاستعمار الجديد ..

وإذا كانت هذه هى أهمية الصراع « العربى ـ الصهيونى » على الجبهة الفكرية ، فإن ذلك يلقى المزيد من التبعات على عاتق المفكرين والمثقفين العرب ، الذين لابد لهم وأن ينهضوا بمسئولياتهم على جبهتهم هذه بنفس الكفاءة والعطاء والفداء الذى قدمه المقاتل العربى فى جولة أكتوبر المسلحة ..

ولقد عودتنا الدوائر الفكرية والسياسية للحركة الصهيونية أن تثير من القضايا وتلقى من الشكوك حول أمور ومسلمات نحسبها بديهية ، فنهمل التصدى لها ، ثم لا نلبث أن نجد قطاعات من الرأى العام العالمى ـ فضلا عن الإسرائيلى ـ قد أصبحت لا ترى فى هذه الأمور إلا ما ألقت إليها الصهيونية من قضايا وشكوك .. حدث ذلك بصدد « عروبة فلسطين » ، وبصدد ما زعموا من « حقوق قومية » للحركة الصهيونية العنصرية على أرض إسرائيل الكبرى ، التى تمتد من النيل إلى الفرات ، وبصدد ما قالوا عن أن غزوهم لسيناء سنة

١٩٥٦ إنما كان « تحريراً » لجزء من أرض الشعب اليهودى !! ... إلخ ... إلخ..

واليوم .. ونحن نتصدى لجولة من الصراع السياسى والفكرى مع الحركة الصهيونية - بعد جولة أكتوبر المسلحة - تطرق أسماعنا أصوات تتساءل مشككة فى « عروبة سيناء ومصريتها » وتقول : منذ متى كانت سيناء مصرية ؟!

وإذا كان هذا السؤال استفزازيا - وهو كذلك - وخاصة عندما يوجه لشعب مثل شعبنا له حضارة وتراث وطنى يضرب فى أعمق أعماق التاريخ بأبعد الجذور وأطولها .. فإننا يجب أن لا ندع مشاعر الاستفزاز تسيطر على تفكيرنا ونحن نجيب على هذا السؤال .. ذلك أننا نخوض صراعا سياسيا وفكريا ضد عدو يستميت فى محاولة الحصول على مكاسب سياسية من وراء هذه الشكوك ويحاول أن يكسب تأييد الآخرين لما يطرح من قضايا يبنيها على هذه التساؤلات ، كما أننا يجب أن ندرك أن تفكيرنا الموضوعى والعلمى ، وإجابتنا المدروسة على مثل هذه التساؤلات المشككة ستمثل بالنسبة لنا تعميقا ضروريا ومطلوبا لوعينا بتاريخنا وتاريخ أرضنا وحضارتنا وتراثنا ، وهو أمر ضرورى فى ضمان النصر لنا فى هذا الصراع المتعدد الجنبات والميادين ..

خطأ منهجى فى الرد :

وبصدد الرد على هذا التساؤل المشكك فى عروبة سيناء ومصريتها ، والذى يريد أن يصل إلى طرحها على بساط البحث موضوعا للأخذ والعطاء ، ومجالا تطلب منه المغانم والأسلاب ؟!.. فلقد كانت هناك بعض الردود العربية والإجابات .. ولكنها جميعاً وبغير استثناء قد سلكت منهجا خاطئا فى الرد ، فلم تصل إلى الثمرة الفكرية المرجوة من وراء بحث يتصدى لتقرير الحقيقة التى

تؤكد أن سيناء مصرية منذ أن عرف الإنسان تاريخا يؤرخ لوحدة أرض وطن من الأوطان ..

لقد قال البعض في رده على هذا التساؤل المشكك : إن هناك « برديات » مصرية فرعونية تحكى رسائل حب بعث بها ضابط مصرى من العريش إلى محبوبته فى عاصمة مصر ... وهذا القول صادق .. ولكنه ليس جوابا كافيا ولا مقنعا .. إذ أن ذلك لا يثبت أن « العريش » كانت جزءاً من « الوطن المصرى » .. فأن يكون هناك ضابط أو ضباط مصريون مع حاميتهم العسكرية فى سيناء فإن ذلك لا يثبت أن سيناء جزء من الوطن المصرى ... ففى قلاع سيناء أقام ضباط « فرس » و « رومان » و « إنجليز » وكتبوا من هناك الرسائل والخطابات فى عصور مختلفة وقديمة من التاريخ ؟!..

وقال آخرون : إن من الآثار الفرعونية المحفوظة حتى اليوم فى متاحفنا ومتاحف أوربا : مجموعة من الصخور التى تسجل أعمال « التعدين المصرية » فى مغارات سيناء .. ونحن نعتقد أن حظ هذا الدليل لا يختلف عن حظ خطاب الغرام الذى سجلته « البرديات » من ضابط مصرى بالعريش إلى محبوبته فى عاصمة البلاد ؟!

على أن أكثر المحاولات جدية فى التصدى لذلك التساؤل المشكك كانت هى تلك التى سرد أصحابها وقائع محاولات الأتراك العثمانيين اقتطاع سيناء من مصر ، خاصة بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ م، ورفض الخديوى عباس حلمى التنازل عن سيناء عندما خلا فرمان توليته عرش الخديوية المصرية من ذكر سيناء سنة ١٨٩٢م ، مما اضطر الصدر الأعظم جواد باشا إلى أن يبرق للخديوى فى ٨ أبريل سنة ١٨٩٢ بأن ولايته على إدارة سيناء قائمة كما كان الأمر زمن جده محمد على ..

ورغم أهمية هذه الواقعة ، وواقعة الاتفاق المصرى ـ العثمانى الموقع فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ م ، والذى ينهى النزاع على الحدود الشرقية لمصر ، ويقرر أن سيناء مصرية(١) ... رغم أهمية هذه الوقائع ، فإننا نعود فنقول : إن الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وهم يجيبون على التساؤل المشكك فى مصرية سيناء وعروبتها ، قد وقعوا فى الخطأ المنهجى الذى يجب أن نتحاشاه ونحن نبحث هذا الموضوع الهام .

ذلك أن التصرفات الصادرة عن السلطة التركية العثمانية التى حكمت مصر ـ حقيقة أو اسما ـ من سنة ١٥١٧ م حتى سنة ١٩١٤ م .. وتعديلات هذه السلطة فى حدود مصر لا يمكن أن تتخذ حجة أو دليلا تاريخيا نعطيه أية أهمية ونحن نبحث مثل هذه الأمور .. فالأتراك العثمانيون كانوا وافدين على مصر ، والحدود الوطنية لا تقوم ولا تسقط ولا تتعدل بقرارات الوافدين وتصرفاتهم ـ سواء أكانت إضافة أم انتقاصا ـ وذلك بدليل أننا نشهد الكثير من الأمم التى تتحرر تخوض صراعات على الحدود ، كى تصحح الأخطاء وتعدل الآثار التى صنعها الأجانب ، فقيمة وثائق العثمانيين ، فيما يتعلق بحدود مصر رغم أهميتها .. ليست هى التى تحسم الشكوك والتساؤلات .. ولا هى أفضل البراهين على مصرية سيناء وعروبتها ..

هذا عن الخطأ المنهجى الذى وقع فيه الذين تصدوا للرد على التساؤل المشكك فى مصرية سيناء ..

---

(١) ألبرت برسوم (سيناء مصرية أولا وأخيرا) الأهرام ١٩٧٤/١/٧م .

كتب الخطط .. وعصور الاستقلال :

إذن فلا بد لنا أن ننهج طريقا آخر كى نضع بين يدى الباحث والقارىء العربى حقيقة عروبة سيناء ومصريتها ، وتاريخ ذلك .. ولا بد أن يكو ن منهجنا علمياً ، حتى نقدم ـ أيضا ـ لأولئك الذين يواجهون حجج العدو وشكوكه وشبهاته سلاحا فكريا وحقائق تاريخية تقطع الطريق على هذه الشكوك ..

ونحن نعتقد أن المنهج العلمى فى بحث هذا الموضوع يتطلب منا أن نولى الاهتمام لتبين حدود مصر ووحدتها الوطنية فى عصور استقلالها على وجه الخصوص ... وأن تكون مصادرنا التى نعتمد عليها فى ذلك هى الكتب التى اختصت وتخصصت فى تحديد حدود الوطن ومسح أرضه ، ووصف عمرانه ، والحديث عن تقسيماته الإدارية ، وقياس أطوال حدوده ، ورسم معالمها وآثارها، والتى استخدمت فى كل ذلك معارف عصرها والعصور التى سبقته ، وهى المصادر التى عرفت فى تراثنا التاريخى بكتب « الخطط » .. وأيضا أن يكون اعتمادنا الغالب على المصريين من كتاب هذه « الخطط » بالذات .. ذلك هو المنهج العلمى اللازم لتقرير الحقيقة فى مثل هذا الموضوع ..

ونحن إذا شئنا أن نستعرض أبرز علماء التاريخ الذين عرضوا لتحديد حدود مصر ـ وخاصة المصريين منهم ، وكتاب « الخطط » بالذات ـ فإننا سنجد منهم كثرة تبعث سمعتهم التاريخية ودقتهم العلمية على الاطمئنان اليقينى إلى ما يقررون .. فلدينا مثلا :

١ ـ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله « المتوفى سنة ٢٥٧ هـ / سنة ٨٧١ م » صاحب كتاب (فتوح مصر وأخبارها) الذى يعد أقدم مرجع يؤرخ لمصر العربية ، وهو حجة لا يرقى الشك إليه ، سواء فى دوائرالمؤرخين العرب

أو بين علماء الاستشراق .. وهو مصرى ، ولد وعاش ومات بمصر ، وكان أحد علماء عصره ..

٢ ـ ابن خرداذبة ، عبد الله بن أحمد (٢٠٥ ـ ٢٨٠ هـ / ٨٢٠ ـ ٨٩٣ م) وهو مؤرخ وجغرافى شهير .. وإذا لم يكن مصريا ، إلا أنه قد كتب عن حدود مصر فى كتابه الشهير (المسالك والممالك) .. وهو من أوثق المصادر فى علم (الجغرافيا) ـ الذى كان يسمى قديما (علم تقويم البلدان) .

٣ ـ المسعودى ، على بن الحسين (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / سنة ٩٥٧ م) ، وهو مؤرخ ورحالة وبحاثة ، نشأ فى بغداد ، ولكنه جاء إلى مصر فأقام بها وتوفى ودفن فيها .. وهو صاحب المرجع التاريخى الشهير (مروج الذهب) الذى عرض فيه لتحديد حدود مصر منذ أقدم العصور ..

٤ ـ أبو عمر الكندى ، محمد بن يوسف بن يعقوب (٢٨٣ ـ ٣٥٥ هـ / ٨٩٦ ـ ٩٦٦م) .. وهو مؤرخ وعالم من علماء الحديث المصريين ، بمصر ولد ونشأ وتوفى ، كتب عن (الولاة والقضاة) الذين تولوا الحكم والقضاء بها ، ويصفونه بأنه كان « أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها » ..

٥ ـ القضاعى ، محمد بن سلامة (المتوفى سنة٤٥٤ هـ / سنة ١٠٦٢ م) وهو مؤرخ ومفسر وفقيه ، مصرى ، اشتغل إلى جانب التأليف بالكتابة لأحد الوزراء الفاطميين . وتولى القضاء ، وذهب سفيرا إلى بلاد الروم .. ومن أشهرآثاره الفكرية ـ فى موضوعنا ـ كتابه (المختار فى ذكر الخطط والآثار) وفيه وصف حدود مصر كأوضح ما يكون الوصف الذى يرسم الخرائط فى عصرنا الحديث ..

٦ ـ ابن بركات، محمد بن بركات بن هلال السعدى المصرى (٤٢٠ ـ

٥٢٠ هـ / ١٠٢٩ - ١١٢٦ م) صاحب كتاب (خطط مصر) الذى كتبه فى أواخر العصر الفاطمى ..

٧ - الجوانى ، محمد بن أسعد (٥٢٥- ٥٨٨ هـ / ١١٣١ - ١١٩٢ م) وهو مؤرخ وعالم بالأنساب ، مصرى ، ولد وتوفى بمصر ، وكتب وصف مصر فى كتابه الذى سماه (النقط بحجم ما أشكل من الخطط) .. نبه فيه على ما حدث من المعالم بعد تأليف السابقين له ، وما اندثر من الآثار التى وصفوها .

٨ - ابن عبد الظاهر ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان (٦٢٠- ٦٩٢ هـ/ ١٢٢٣ - ١٢٩٣ م) ، وهو مؤرخ وأديب مصرى ، ولد ومات بها ، وإلى جانب اشتغاله بالتأليف تولى منصب القضاء .. وكتب فى موضوعنا كتابه (الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة) .

٩ - ابن المتوج ، محمد بن عبد الوهاب (٦٢٩ - ٧٣٠ هـ / ١٢٤١ - ١٣٢٩م) وهو مورخ مصرى ، كتب فى موضوعنا كتابه (إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل) فى أحوال مصر وخططها ، سجل فيه وصفها ورصد معالمه حتى سنة ٧٢٥ هـ

١٠ - ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد (٧٥٠ - ٨٠٩ هـ / ١٣٤٩ - ١٤٠٧م) وهو مؤرخ مصرى ، يصفه المستشرقون بأنه مؤرخ الديار المصرية فى عصره ويضعون كل ثقتهم فى تاريخه .. وفى موضوع خطط مصر كتب كتابه (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) إلى جانب كتبه التاريخية الأخرى(١) .

---

(١) انظر فى ذلك (خطط المقريزى) ج ١ ص ٦ ، ٧ - طبعة دار التحرير - القاهرة وكذلك (الأعلام) لخير الدين الزركلى - طبعة بيروت .

١١ ـ المقـريزى ، تقى الدين أحـمـد بن علـى (٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ ـ ١٤٤١ م) وهو مؤرخ مـصرى قاهرى ، ولد وعاش ومات بهـا ، وأتاحت له مناصبه التى تـولاها ـ الحسبة والخطابة والإمامـة ـ أن يغوص فى أعماق واقع مـصـر وأهلها فـألف الآثار التـاريخـية التى جـعلتـه مـؤرخ الديار المصـرية فى عصـره ، بل وجعلت منه واحـداً من قلة قليلة يعدون أبرز مؤرخى مـصـر على امتـداد تـاريخـها العربى .. كـمـا جعلت من كـتـابه (المواعظ والاعـتـبـار بذكر الخطط والآثار) أهم الكتب التى وضعت فى خطط مصـر ، خـصـوصـا وأنه قد سجل فيه آراء من تقدمه من كتاب (الخطط) فحفظ لنا مـلاحظاتهم ، نقرؤها بعد أن فقدت أصولها من مكتبة التاريخ ..

هؤلاء هم أبرز علماء التـاريخ المصـرى الذين كـتـبـوا فى (خطط مـصـر) فـحـددوا حـدودها الوطنية ، ووصـفـوا مـعـالم هذه الحـدود على ممر العـصـور والأحـقـاب .. فـمـاذا كـتـبـوا فى هذا الموضـوع ، وبالذات عن الانـتـمـاء الوطنى لسيناء ؟؟..

إننا سنعرض لحدود مـصـر ، والانتمـاء الوطنى لسيناء ، كـمـا قرره هؤلاء المؤرخون الأعلام ، وذلك فى المراحل التاريخية الآتية :

(أ) سيناء قبل الفتح العربى لمصر ..

(ب) سيناء عند الفتح العربى لمصر ..

(ج) سيناء بعـد الفتـح العربى لمصر ، وحـتـى عـصـر المقـريزى ـ القـرن الخامس عشر الميلادى ـ أى ما قبل الفتح العثمانى بثلاثة أرباع القرن..

ما قبل الفتح العربى :

عن حدود مصر ، والانتماء الوطنى لسيناء - فى هذه الفترة - يتحدث المؤرخون بادئين من نقطة البدء التى كان يحلو لهم الوقوف عندها كثيرا.. وهى ما بعد الطوفان .. وابن عبد الحكم يحدد حدود مصر فى ذلك الزمن السحيق بأنها كانت تبدأ من مكان خلف مدينة « العريش » ، عند مكان كانت فيه شجرتان ، وتمتد هذه الحدود جنوبا حتى «أسوان »، أما عرضها فيمتد من «برقة » فى الغرب حتى « أيلة » فى الشرق .. فيقول : إن أول ملوك مصر فى ذلك الزمن قد حاز « ما بين الشجرتين » خلف « العريش » إلى « أسوان » طولا ، ومن «برقة » إلى « أيلة » عرضا[1] .

وهنا يجب أن نلاحظ أن « برقة » تدخل فى حدود مصر ، من الغرب ، وأن « أيلة » - التى هى الآن « إيلات » - تدخل فى حدود مصر من الشرق .. وأن حدها الشمالى الشرقى لايبدأ من العريش ، وإنما من مكان ما « بين الشجرتين» خلف العريش ، وهو المكان الذى سيتضح كل الوضوح فيما سنعرض من نصوص ..

أما المسعودى فإنه يكتب عن نفس الفترة ، فيقول : إن المجتمع المصرى قد تكون يومئذ « فاجتمع الناس ، وانضافوا إلى جملتهم ، وأخصبت البلاد » وأن ملك مصر يومئذ قد تملك « وملك » من حد « رفح » من أرض فلسطين من بلاد الشام إلى بلاد « أسوان » من أرض الصعيد طولاً ، ومن « أيلة » - وهى تخوم الحجاز- إلى « برقة » عرضا .. »

---

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص ٩ - طبعة ليدن ١٩٢٠م ، بتحقيق المستشرق تشارلس تورى .

يروى المسعودى هذه الرواية على النمط الذى يجعلها الرواية الموثوق بها .... ثم يحكى بصيغة اللغة العربية التى تدل على ضعف الرواية وتدنى مرتبتها فى الصدق والثقة - صيغة « قيل » - يحكى الرواية التى تقول إن الحدود الشمالية لا تبدأ من رفح وإنما من مكان بين رفح والعريش فيقول : وقيل من العريش ، وقيل : من الموضع المعروف بالشجرة ، وهو آخر أرض مصر ، والفرق بينها وبين الشام ، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح » ..

ونحن نعتقد أن أصحاب هذه الرواية التى تقول إن الحدود كانت تبدأ من العريش ، لم يعنوا : العريش كمدينة ، وإنما العريش كمحافظة - بلغة عصرنا - أو كعاصمة و« بندر » إقليمى كانت تتبعه مساحات من الأرض تدخل فى ضمنها رفح ، وهو التفسير الذى يوفق بين الروايات .. والذى سيأتى عليه الدليل من النصوص التى سنعرض لها بعد قليل ..

عند الفتح العربى :

وإذا كان الفتح العربى قد أعاد صياغة المنطقة حضاريا، وأدخلها فى طور جديد لا زال عصرنا الحاضر يشكل امتدادا متطورا له ، كما أنه قد فتح الطريق لكتابة تاريخها الذى لازال فى يدنا موثقا محفوظا ، وأدخل فى هذا التاريخ كتابة « الخطط » التى تصف المعالم وتحدد الحدود... إذا كان الأمر كذلك ، فإن وصف المصادر الأصلية وتحديدها لحدود مصر عند حدوث الفتح العربى لها لهو أمر بالغ الأهمية فى تحديد الانتماء الوطنى لسيناء منذ ذلك التاريخ ..

ولحسن الحظ فإن أقدم هذه المصادر قد وصف وحدد لنا حدود مصر فى اللحظات - نعم اللحظات - التى كانت تزحف عليها فيها قوات الفتح التى يقودها عمرو بن العاص ، فهى حدود إذن لم يصنعها الفتح العربى ، وإنما وجدها العرب الفاتحون ..

وفى هذا المقام يتحدث ابن عبد الحكم - وهو يسرد القصة الشهيرة التى تحكى لقاء عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فى « الجابية » بفلسطين ، وكيف طلب عمرو من الخليفة أن يأذن له بالمسير لفتح مصر ، وكان الخليفة مترددا ، ولكنه وافق على أن يسير عمرو بن العاص بجيشه نحو مصر ، حتى يستكمل الخليفة مشورته وتفكيره ، ثم يبعث إليه بكتابه، فإن كان الكتاب يطلب إليه العدول عن فتح مصر وجاءه قبل أن يدخل حدود مصر ، فليرجع ، أما إن كان قد دخل حدود مصر فليكمل مهمة الفتح ، حتى ولو كان كتاب الخليفة يطلب منه الرجوع ... إذن فإن تحديد حدود مصر - وبالذات من الشرق - هنا أمر واضح ودقيق .. يقول ابن عبد الحكم : إن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص : « ... سر ، وأنا مستخير الله فى مسيرك ، وسيأتيك كتابى سريعا - إن شاء الله - فإن أدركك كتابى آمرك فيه الانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أوشيئا من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره .

فسارعمرو بن العاص ... واستخار عمر الله ، فكأنه تخوف على المسلمين - (وفى رواية) - أن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب ، فقال عمر : كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر .. فقال عثمان : يا أمير المؤمنين، إن عَمْراً لجرىء ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يعرض المسلمين للهلكة ... فندم عمر ... وكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين - (عن فتح مصر) - فأدرك الكتاب عمرا وهو برفح ، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الأمر بالانصراف .. فلم يأخذ الكتاب من الرسول ... حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل

عنها ، فقيل : إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه ، وقال لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا بلى ، قال : فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرنى : إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله !.. »(١) .

فعمرو بن العاص ـ هنا ـ لم يشأ أن يتسلم كتاب أمير المؤمنين إلا بعد أن «يتوغل » بعض الشيء فى أرض مصر ، ويتجاوز حدودها ، حتى لا تكون هناك شبهة فى دخوله حدودها ، وكان المكان الذى قطع فيه الطرق على هذه الشبهة قرية فى الشرق من العريش .

أما حدود مصر الغربية يومئذ فكانت « برقة » أيضا ، و« برقة » داخلة فيها .. فعمرو بن العاص يتحدث عن « قبط مصر » وأهلها ، فيذكر فيهم : أهل « أنطابلس » ـ(برقة) ـ عندما يقول : « لقد قعدت مقعدى هذا ، وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس ـ وهى برقة ـ فإن لهم عهدا يوفى لهم به .. »(٢) .

ما بعد الفتح العربى :

أما بعد الفتح العربى ، وعلى امتداد تسعة قرون ـ هى تاريخها السابق على الحكم العثمانى ـ فإن حدود مصر ، والانتماء الوطنى لسيناء ، قد ظلت واضحة ومتألقة فى مصادر التاريخ والخطط التى كتبها الأعلام عن هذه البلاد .

* ففى القرن الثالث الهجرى ـ أى بعد ابن عبد الحكم ـ يكتب ابن خرداذبة فى كتابه (المسالك والممالك) عن حدودها فيقول : « وحدها طولا من « برقة»

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ ، ١٧٠ .

إلى « أيلة » ، وعرضا من « أسوان » إلى « رشيد » .. »[1] .

* وفى القرن الثالث الهجرى يكتب المسعودى فيقول : « وأرض مصر : ما بين « أسوان » واليمن والعريش وأيلة وفرسيه ... وفى قبليها (جنوبيها) - النوبة ، وفى شرقيها الشام ، وفى شمالها بحر الزقاق - (البحر المتوسط) - ، وفى غربها برقة ... »

وهو هنا يدخل البحر الأحمرفى حدودها ، فيجعل اليمن فى شرقها المقابل لأسوان ..

* وفى القرن الخامس الهجرى يأتى القضاعى فى كتابه (المختار فى ذكر الخطط والآثار) ليرسم معالم حدود مصر ، فيقول : « ... الذى يقع عليه اسم مصر : أرض أنطابلس ، وهى برقة » .

وفى حديثه عن حدها الشرقى إلى الشمال من ميناء « عيذاب » ، على البحر الأحمر ، يدخل كل البحرالأحمر وأجزاء من شاطئه الشرقى فى حدود مصر ، فيقول: « ثم ينقطع البحر الملح عند عيذاب إلى أرض الحجاز ، فينزل الحوراء أول أرض مصر ، ... وهذا البحر هو بحر القلزم - (البحرالأحمر) - وهو داخل فى أرض مصر بشرقيه وغربيه وبحريه - (أى شماله ، وهو سيناء) - فالشرقى والبحرى منه مدينة القلزم - (ومكانها الآن مدينة السويس) - وجبل الطور... فهذا المحدود من أرض مصر ... »[2] .

وهنا نود أن نشير إلى أن تحديد القضاعى هذا يثير بعض القضايا وبعض الشبهات ..

---

(١) تاريخ ابن خلدون - المجلد الثانى - الجزء الأول ص ٧٨ - طبعة بيروت .

(٢) خطط المقريزى - ج ١ ص ٢٧ ، ٣٩٨ .

فهو يؤكد أن حدود مصر الشرقية - على البحر الأحمر - كانت تتخطى هذا البحر شمالى ميناء عيذاب ، فيصبح البحر بشاطئيه الشرقى والغربى داخلا فى حدود مصر، ويذكر من المواضع التى تدخل فى حدود مصر على شاطئه الشرقى مواضع: الحوراء ، وطنسة ، والنك ، ومدين ، ثم أيلة - (إيلات) فصاعدا ..

كما يثير شبهة اشتبهت على البعض ، ومنهم القلقشندى ، صاحب (صبح الأعشى) عندما ظن أن القضاعى يخرج رفح من حدود مصر الشمالية الشرقية ؛ لأنه ذكر أنها تبدأ من العريش ... وعن هذه الشبهة يقول القلقشندى: إنه « قد اضطربت عبارات المصنفين فى المسالك والممالك فى تحديدها - (أى تحديد حدود مصر) - والذى عليه الجمهور - (الأغلبية) - أن حدها الشمالى .. يبتدىء مما بين الزعقة ورفح -(شرقى رفح) - عند حدها من الشام ، والبحر شماله ، ويمتد غربا على ساحل البحر المذكور حيث الشجرتان ... عند الكثب -(الرمال) - المجنبة عن البحر الرومى - (البحر المتوسط) - إلى رفح ، ثم إلى العريش ، آخذا على الجفار ، إلى الفرما ، إلى الطينة ، إلى دمياط ، إلى ساحل رشيد ، إلى الإسكندرية ... إلى برقة ، إلى العقبة - (الكبرى) - الفاصلة بين الديار المصرية وإفريقية -(تونس الآن) - .

وحدها الغربى يبتدىء من ساحل البحر الرومى ، حيث العقبة - (الكبرى) - ويمتد جنوبا ... حتى يقع على صحراء الحبشة ، على ثمانى مراحل من أسوان ... وحدها الجنوبى يبتدىء من آخر هذا الحد بصحراء الحبشة ، ويمتد شرقا .. حتى ينتهى إلى بحر القلزم مقابل أسوان ..

وحدها الشرقى يبتدىء من آخر هذا الحد ويمتد شمالا ، وبحر القلزم شرقيه

إلى عيذاب ، إلى القصير ، إلى السويس ، ثم يأخذ شرقا .. إلى تيه بنى إسرائيل - (أى الموضع الذى تاه وضل فيه العبرانيون عند طردهم من مصر ، وهو فى سيناء بين مدينة فاران - على خليج السويس فى سيناء - وبين أيلة شمال خليج العقبة - وكانت مسافته قديما مرحلتين - ثم يعطف شمالا ويمر على أطراف الشام حتى ينحط ما بين الزعقة ورفح ساحل البحر الرومى حيث وقعت البداءة) .

وبعد هذا التحديد الذى قال القلقشندى إنه رأى أغلبية المؤرخين ، يمضى ليفصل ويوثق ذلك فيقول :

« وعلى هذا التحديد جرى السلطان عماد الدين صاحب حماة - (أبو الفداء) - فى (تقويم البلدان) ، والمقر الشهابى بن فضل الله فى (التعريف) ، إلا أنه فى (تقويم البلدان) جعل ابتداء الحد الشمالى نفس رفح ، ونهاية الحد الغربى حدود بلاد النوبة ، وفى (التعريف) جعل ابتداء الحد الشمالى ما بين الزعقة ورفح ، ونهاية الحد الغربى صحراء بلاد الحبشة ... والأمر فى ذلك قريب ...

فالقلقشندى هنا يرى أن ابن فضل الله ، صاحب (التعريف) قد جعل ابتداء حد مصر الشرقى ، من الشمال ، أبعد - جهة الشرق - مما جعله أبو الفداء .. فالأول جعله ما بين الزعقة ورفح ، أى شرقى رفح ، بينما الثانى قد جعله نفس رفح ..

ثم يأتى دور الانتقادات التى يوجهها القلقشندى ، يأتى دورها على القضاعى ، فيقول صاحب (صبح الأعشى) :

« وخالف فى ذلك القضاعى ، فجعل ابتداء الحد الشمالى من العريش ... وجعل الحد الجنوبى يقطع بحر القلزم وينتهى إلى ساحل الحجاز بالحوراء : أحد منازل طريق الحجاز من مصر ، والحد الشرقى يمتد على ساحل البحر الشرقى إلى مدين ، إلى أيلة ، إلى تيه بنى إسرائيل ، إلى العريش ... »

ثم يختم كلامه بقوله : « .. واعلم أن جميع المحددين لها وإن اختلفت عباراتهم فى ابتداء الحد الشمالى الفاصل بينها وبين الشام ، هل هو من العريش؟ أو من رفح ؟ أو بين الزعقة ورفح ؟؟ متفقون على أن ابتداء الحد حيث الشجرتان ، وكأنهما شجرتان قديمتان حدد فى الأصل بهما ؟!.. »(١) .

ونحن نود أن نقول : إنه ليس هناك خلاف بين كتاب (الخطط) و(تقويم البلدان) حول هذا الموضوع ، وأن هذا الخلاف الذى ظنه القلقشندى ليس له وجود .. وأدلتنا على ذلك :

١ـ أن القلقشندى نفسه يعترف باتفاق المؤرخين على أن مكان الشجرتين هو بدء حدود مصر الشرقية الشمالية ، وهو ما يقودنا إلى أن الخلاف المتوهم قد ظنه القلقشندى من اختلاف التعبير عند الحديث على هذه الحدود .. فالذين قالوا : إن مبدأها رفح ، لم يعنوا مدينة رفح ، بل عنوها مع أعمالها ، فكلامهم يشمل إلى مكان الشجرتين بين الزعقة ورفح ، أى شرقى رفح ..

٢ـ إن الذين قالوا إن مبدأ الحدود العريش ، لم يعنوا مدينة العريش ، بل قصدوا : العريش وما يتبعها .. ولنا على ذلك الأمر الذى فيه الحسم لهذه القضية دليل لايقبل التأويل .. فالقضاعى ـ وهو الذى قال إن الحدود تبدأ من العريش ـ عندما يتعرض لتقسيم مصر الإدارى ويعدد بلدانها وعواصمها الإقليمية و « كورها » يتحدث عن «كورة الفرما والعريش والجفار »(٢) .. فبعد الفرما ـ شرقا ـ يذكر العريش ، ثم يذكر بعد العريش : الجفار .. فما هى هذه الجفار ؟؟ .. إن المقريزى يحدثنا عنها فيقول : « اعلم أن الجفار اسم لخمس

---

(١) القلقشندى (صبح الأعشى) ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١٢ ـ طبعة القاهرة .

(٢)خطط المقريزى ، ج ١ ص ١٣٤ .

مدائن ، وهى : الفرما ، والبقارة، والواردة ، والعريش ، ورفح .. والجفار كله رمل ، وسمى بالجفار لشدة المشى فيه على الناس والدواب ، من كثرة رمله وبعد مراحله، والجفار تجفر فيه الإبل ، فاتخذ له هذا الاسم .. »(١) .

إذن فالقضاعى لا يقف بحدود مصر عند العريش ، وإنما يدخل فيها رفح وما يتبعها ، ولا يختلف فى ذلك مع غيره من المؤرخين أى أن كوكبة المؤرخين الذين وصفوا حدود مصر وتحدثوا عنها لا يزال فكرهم متفقا على أن هذه الحدود تشمل كل سيناء ، وأيلة ـ (إيلات) وما جاورها ـ بتعبير القضاعى: « أيلة وحيزها »(٢) ـ وأنها تبدأ فى الشمال شرقى من مدينة رفح ..

* وفى القرن الثامن الهجرى يكتب ابن دقماق كتابه (الانتصار بواسطة عقد الأمصار) فيتحدث عن حدود مصر هذه فيقول :

« إن الحد الشمالى لديار مصر هو بحر الروم من رفح ، إلى العريش ، ممتدا على الجفار ، إلى الفرما ، إلى الطينة ، إلى دمياط ، إلى ساحل رشيد ، إلى الإسكندرية ، إلى برقة..»(٣) .

وابن دقماق بهذا التحديد يمثل حلقة متصلة فى سلسلة الموقف المتحد ـ فى جوهره ـ للمؤرخين المصريين والعرب حول هذا الموضوع ..

* ثم يأتى القرنان الثامن والتاسع الهجريان ، فيكتب أبرز كتاب (الخطط) تقى الدين المقريزى محددا حدود مصر فيقول :

« اعلم أن أرض مصر لها حد يأخذ من بحر الروم إلى ظهر الواحات ،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٣ .

(٢) الإشارة لمن نال الوزارة ـ لابن الصيرفى ـ هامش ص ٣٤ . تحقيق عبد الله مخلص ـ طبعة المعهد الفرنسى ـ القاهرة ١٩٤٤م .

(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦ .

ويمتد إلى بلد النوبة ، ثم يعطف على حدود النوبة فى حد أسوان - على حد أرض السنجة فى قبليّ أسوان - حتى ينتهى إلى بحر القلزم ، ويجاوز القلزم إلى طورسيناء ، ويعطف على تيه بنى إسرائيل مارا إلى بحر الروم فى الجفار خلف العريش ورفح ، ويرجع إلى الساحل مارا على بحر الروم .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها : أن حدها فى الطول من مدينة برقة .. إلى أيلة من ساحل الخليج (خليج العقبة) - الخارج من بحر الحبشة والزنج - (البحر الأحمر) - .. وحدها فى العرض من مدينة أسوان .. إلى رشيد.. »[1] .

ويؤكد المقريزى فى أكثر من موضع أن أيلة - (إيلات) - جزء من مصر ، وكذلك مدين على الشاطىء الشرقى لخليج العقبة .. فيقول : « وفى كور- (مصر) - القبلية : مدينة فاران ، .. ومدينة أيلة .. ومدينة مدين .. وقال البكرى : مدين بلد بالشام.. وهذا وهم ، بل مدين من أرض مصر ... ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة ، وقيل اسم الحجاز ، وهى التى ذكرت فى التوراة ، وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم ، وبها نخل كثير مثمر ، أكلت من ثمره .. وهى خراب يمر بها العربان .. وأكثر هذه المدائن قد خرب.. »

ثم يتحدث عن العقبة - المجاورة لأيلة - وعن وقوعها ضمن حدود مصر وقيام سلطان الحكومة المصرية عليها ، فيقول وهو يتحدث عن « التيه » : « هو أرض بالقرب من أيلة، بينها عقبة لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها ، إلا أنها مهدت فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون ».

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٥ .

وعن سلطان الحكومة المصرية على أيلة فى القرن الخامس الهجرى يتحدث المقريزى فيقول : « وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن إدريس الجعفرى أيلة - ومعه بعض بنى الجراح - ونهبها ... فسارت إليه سرية من القاهرة لمحاربته .. » .

أما سلطان القاهرة عليها فى القرن السادس الهجرى ، زمن الاحتلال الصليبى فيتحدث عنه المقريزى قائلاً : « قال القاضى الفاضل : وفى سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة ، وحملها على الجمال ، وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة ، وكانت قد ملكها الفرنج ... فقاتلها فى البر والبحر حتى فتحها .. وقتل من بها من الفرنج وأسرهم ، وأسكن بها جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره ، وعاد إلى القاهرة .. »[١] .

وهكذا .. تستطيع الدراسة المنهجية أن تؤكد لنا من خلال أوثق مصادر التاريخ المصرى التى كتبها أبرز علمائه على امتداد تسعة قرون .. أن حدود مصر الشرقية تبدأ لا من رفح فقط ، بل من شرقى رفح .. وأنها لا تصل فقط إلى رأس خليج العقبة ، وإنما تشمل أيضا « أيلة » - (إيلات) - وما جاورها ، وبتعبيرهم هم : « أيلة وحيزها » .. بل وأن هذه الحدود قد شملت فى عصور الاستقلال المصرى أجزاء من الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وهى الأجزاء التى سلخها من مصر الفرمان العثمانى الذى صدر لمحمد على سنة ١٨٤١ م ..

فسيناء إذن مصرية ، تنتمى إلى الوطن المصرى ، منذ أن عرف الوطن المصرى والتاريخ المصرى ، وقبل أن يعرف العالم الشعوب والأوطان التى ينتمى إليها أولئك الذين يشككون فى مصرية سيناء ..

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٩٩ ، ٣٤٧ .

فقط علينا أن نلتزم المنهج العلمى فى دراسة تاريخ وطننا ، فلربما وضعت دراستنا تلك أيدينا على أضعاف الحجج والبراهين التى قدمناها هنا على «مصرية سيناء » منذ أقدم العصور ..

أما الذين يريدون الاحتكام إلى فرمانات آل عثمان ، فإننا نقول لهم : إن تصرفات الوافدين لا تصنع ولا تقيم الشرعية فى رسم الحدود ... وإلا فما رأيهم فى أن العثمانيين قد جعلوا من الإسكندرية ولاية مستقلة يحكمها والٍ تركى عثمانى تابع للباب العالى مباشرة ، وأن هذه التجزئة لم تلغ إلا فى عهد محمد على ... فهل يستطيع زاعم أن يزعم اليوم أنها ليست جزءا من مصر ، بناء على سلخ العثمانيين لها فترة من الزمن عن التبعية لعاصمة البلاد؟!..

إن عهود الاستقلال والسيادة .. ومصادر التاريخ المعتمدة التى أبدعها مؤرخو مصر العظام ، وكتب (الخطط) و(تقويم البلدان) منها بالذات ، هى سبيلنا لكتابة تاريخ وطننا، وهو السبيل الذى أكد ويؤكد وحدة أرض هذا الوطن قبل أن تعرف أمة من الأمم لوطنها مثل تلك الوحدة المقدسة والمستمرة عبر عصور التاريخ .



موقع الفكر الإسلامى الحديث

من العقلانية .. والحرية .. والاشتراكية

فى أية صفحات تكتب - كى تتصدى لدراسة موقع الفكر الإسلامى الحديث من الاتجاه الليبرالي - لا بد لنا من التنبيه أولا إلى عدد من المقدمات والعناصر التى لا بد من طرحها والتمهيد بها للدخول فى صلب الموضوع ، فمثلا :

* نحن نعنى بالفكر الإسلامى الحديث : حركة البعث والإحياء التى كان طليعتها ورائدها الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) ، والتى بذر بذورها - على وجه الخصوص - فى سنوات إقامته بمصر (١٨٧١ - ١٨٧٩ م) ، وهى الحركة التى امتدت فى حياته ومن بعد وفاته ، وإن كنا نقتصر فى تناولنا هنا على قسماتها عند الأفغانى وحده ، لضيق المقام عن استيعاب دراسة هذه الحركة عند غيره من أمثال محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ، والكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ولأن الأفغانى كان أعظم مفكرى الثورة والإصلاح الإسلامى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر على الإطلاق .

* إننا عندما نتناول هذا الموضوع لا نعنى أن فكر الأفغانى ومدرسته كان امتدادا للفكر الليبرالى الأوربى فى الأرض العربية الإسلامية .. فلقد كان لهم منطلقهم الخاص والمتميز ، وذلك بحكم اختلاف واقعهم عن الواقع الأوربى ، وتميز ميراثهم الحضارى عن ميراث الأوربيين ، وأيضا لأن منطلق الحركة الليبرالية فى أوربا لم يكن منطلقا دينيا ، ولم يكن أصحابها حريصين على

إقامة الوفاق بين فكرهم وموقفهم وبين قيم الدين وتصوراته ومعطياته ، بينما كان التجديد للفكر الإسلامى ولواقع المسلمين خاصة والشرقيين عامة هو المنطلق الذى انطلق منه الأفغانى وتلاميذه فى دعوتهم للثورة أو الإصلاح .. وهذا الاختلاف والتمايز هو الذى يقف وراء ما نراه فى فكر هؤلاء المفكرين من وجود بعض قسمات الموقف الليبرالى وغياب بعض القسمات.. بل ووجود قسمات أخرى مضادة لما يراه الليبراليون .

* إن هذه القسمات الليبرالية التى نلتقى بها فى فكر هؤلاء المفكرين المسلمين لا يصح النظر إليها باعتبارها « نبتا » أوربيا استعاره هؤلاء المفكرون من الحركة الليبرالية الأوربية ، وإنما هى « نبت محلى » أصيل غرسته هذه الحركة فى أرض الواقع المصرى والشرقى عندما استوعب روادها حقائق هذا الواقع ووعوا تراثه الحضارى الضارب فى أعماق التاريخ ، وبالذات تراث العصور الذهبية لهذه الأمة .. أما الذين يرون فى هذه القسمات فكرا أوربيا استعاره هؤلاء المفكرون فهم أصحاب الموقف الرجعى والجامد والمحافظ الذين حاربوا فكر هذه المدرسة وناصبوا روادها العداء ..

وهذا لا يعنى أن الصلة كانت مقطوعة بين هؤلاء المفكرين وبين الفكر الليبرالى الأوربى ، فلقد قرأوا للمفكرين الأوربيين ، ثم رحلوا إلى أوربا وعاشوا فيها ـ خصوصا الأفغانى ومحمد عبده ـ.. ولكن الأمر الذى يقف خلف هذا التماثل والتشابه فى هذه القسمات هو تشابه الواقع المصرى الذى كانت تنشأ فيه طبقة بورجوازية تتطلع إلى عالم مختلف كيفيا عن عالم الأرستقراطية التركية الإقطاعية الذى ساد قرونا فى ظل الدولة العثمانية .. تشابه هذا الواقع بالواقع الأوربى الذى ظهرت فيه الحركة الليبرالية عندما كانت التعبير عن عالم البورجوازية الثائرة على عالم أمراء الإقطاع والأباطرة والبابوات ..

وخلف هذا التماثل والتشابه أيضا يقف المد الاستعمارى والزحف الإمبريالى الأوربى على بلاد الشرق والشرقيين .. ذلك الزحف الذى لم ينقل إلى الشرق حضارة الغرب ، ولكنه كان بمثابة التيار الكهربائى الذى « مس » الشرقيين ، فلم يصعقهم إلى حد الموت ، ولكنه أيقظهم من سبات العصور الوسطى والمظلمة التى خيمت عليهم تحت حكم المماليك والعثمانيين ، فكانت البدايات التى أعقبت الحملة الفرنسية ، والتى غدت عملاقة فى مدرسة الأفغانى «الثورية فى بعض الجوانب - والإصلاحية فى جوانب أخرى » ، عندما أرادت أن يتصدى الشرق لهذا الزحف الاستعمارى متسلحا بنفس الأسلحة التى مكنت هذا الغرب من بلوغ ما بلغه من قوة وجبروت ، وذلك دون أن يفقد الشرق عناصر قوته الخاصة ومميزاته الصالحة للعطاء والقابلة لتطوير حياته ، ودون أن يتم اقتلاع الشرقيين من واقعهم وتراثهم بالتفرنج ، والتقليد للأوربيين..

فالقسمات الليبرالية فى هذه المدرسة - إذا - هى ثمرة للعناصر المتشابهة فى الواقع الطبقى ، وكذلك للاحتكاك بين الشرق و الغرب الذى نشأ منذ حملة بونابرت سنة ١٧٩٨ م .. وبالذات بعد قيام الدولة المدنية الحديثة فى مصر بقيادة محمد على ، وهى الدولة التى فتحت النوافذ على العالم ، فتم « تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية - بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة ، مما أذهب عنها داء الوحشة والانفراد » ؟! كما يقول رفاعة الطهطاوى ..

والذين يتتبعون دراسة فترات الاحتكاك بين الشعوب والحضارات يلمسون جيدا ذلك التفاعل والتأثير والتأثر فى « القيم » و « الأفكار » و « أدوات الصراع».. فبعد الفتح العربى ، ودخول أمم ذات حضارات وثقافات عريقة

وغنية فى الإمبراطورية العربية الإسلامية واجه « المعتزلة » مثلاً الجوانب التى رفضوها من فكريات الهند وفارس واليونان بصراع فكرى تسلحوا له بأسلحة الفلسفة اليونانية ، بعد أن هضموا ما وافق تطور الواقع الذى نشأوا فيه ..

وعندما أخذت أوربا تستيقظ بعد عصورها الوسطى والمظلمة اتخذت من فلسفة « أرسطو » كما وصلتها فى شروح « ابن رشد » سلاحا تواجه به اللاهوت الكنسى الضاغط على أنفاسها ، ويومها استعارت الكنيسة - ممثلة فى « توما الأكوينى » - نفس الأسلحة التى حارب بها « الإمام الغزالى » الفلسفة والفلاسفة، كى تحارب بها « الرشديين اللاتين » ؟!.. فذلك إذا قانون التأثير والتأثر والتفاعل فى فترات الاحتكاك - السلمى أو الحربى - بين الشعوب والحضارات وهو الذى يقف وراء ما سنشهد من قسمات ليبرالية فى فكر الأفغانى ، وأيضا وراء ما نجد من تمايز وفروق بين فكره وفكر الليبراليين الأوربيين ..

أما القسمات الليبرالية التى نستطيع أن نتلمسها فى حركة الفكر الإسلامى الحديثة هذه فإن فى مقدمتها :

١ - العقلانية التى واجهت بها هذه المدرسة الموقف الذى ساد الشرق لعدة قرون ، ركن فيها أهله إلى « النقل » و« ظواهر النصوص » ، واعتمدوا فيها على « المتون » و« الموسوعات » التى تجمع شتات ما دونه القدماء ، دون إبداع أو ابتكار أو إضافة أو تجديد ..

٢ - النزعة التحررية التى واجهت بها هذه المدرسة النظام الاستبدادى الفردى الذى ساد الشرق عدة قرون ، حتى ليكاد يصعب على الباحث تلمس الفترات التى نفض فيها هذا الشرق عن كاهله هذا الاستبداد؟!

٣ - رفض الكهانة التى واجهت بها هذه المدرسة ما تراكم على تعاليم الإسلام من « قيم » و « أفكار » غريبة عن أصوله الجوهرية والبكر ، وهى الإضافات التى حاولت أن تدخل فيه نظرية « الحق الإلهى » الإقطاعية ، وأنظمة وطقوسا تكاد أن تحاكى « الكهنوت » الغريب عن جوهر هذا الدين .

٤ - نقد النظام الطبقى المتوارث والثابت ، وهو النقد الذى وجهته هذه المدرسة إلى نظام الأرستقراطية التركية ، عندما كان هذا النظام يمثل حجر عثرة فى سبيل نمو طبقة بورجوازية وطنية جديدة ، تحترم العمل ، وتنبذ حياة البطالة والتبطل ، وتسعى إلى أن يكون السعى والكسب والثروة هى المعايير التى تحدد الوضع الاجتماعى ، وليس النسب والحسب الموروث .

وفى هذه القسمة الأخيرة تواجهنا فروق تميزها عن الموقف الليبرالى فى هذا المجال .. فبسبب من ضعف البورجوازية المصرية والشرقية يومئذ ، وبسبب من النشأة الشعبية لأعلام هذه المدرسة الفكرية .. وبسبب من انعطاف الأفغانى بالذات إلى الجماهير الشعبية وتعليقه الآمال عليها فى النضال ضد الاستعمار .. ولأسباب فكرية تمثلت فى انحياز كثير من المفكرين المسلمين القدامى الذين كتبوا فى (الأموال والخراج) وفسروا آيات القرآن الاجتماعية ، انحيازهم إلى صف « الجماعة » ومناصرتهم للعدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعى .. لهذه الأسباب وغيرها وقفت هذه المدرسة الفكرية فى المسألة الاجتماعية على يسار الموقف الليبرالى ، فاتخذ محمد عبده مثلا موقفا «راديكاليا » من قضية الأموال والأغنياء والفقراء .. وتحدث الكواكبى عن الاشتراكية داعيا لها ومحبذا إياها .. وختم الأفغانى رحلة تطوره الفكرى بالدعوة إليها ، بل والقول بحتمية سيادتها جميع أنحاء العالم فى يوم من الأيام؟!

أمـا الفـارق الجـوهرى بين قـسـمـات هذه المدرسـة الفكرية وبين الموقف الليبرالى ، والذى لا يعد موقفا أكثر تقدما من الليبرالية ، وإنما هو متخلف عنها فـهو موقف الشيخ محمد عبده من نظام الحكم ، الذى انحاز فيه إلى جانب سلطة الفـرد المقـيـد بالقـانون ، والذى تطـور على دربه إلى الدعـوة لنظرية «المسـتـبـد العـادل » الذى لا بد للشـرق منه كـى يـتـم لـه ولأهـلـه الـصـلاح والإصـلاح ؟!

العقلانية الإسلامية :

فى الفكر الإسلامى - بل وفى الفكر الإنسانى عامة - أنماط متميزة ودرجات متفاوتة من الإيمان بالعقل والاطمئنان إلى قدراته والثقة فى معطياته .. وفى هذا الفكر أيضا مواقف متعددة إزاء المنطلق الذى يدعو المفكر إلى البدء منه .. فمن الفلاسفة والمفكرين من دعا إلى اتخاذ العقل المنطلق الوحيد ، وحبذ إهمال النصـوص المأثورة عن الأولين ، وبالذات مـا تعلق منهـا بالغـيـبـيـات ، ومن الفلاسفة والمفكرين من دعا إلى عدم إهمال النصوص .. فى نفس الوقت الذى أَعْـلَى فيه من قدر العقل واتخذه الأداة الأولى والوحيدة فى البحث عن تـفسير لأمهات المشاكل الفلسفية والقضايا الرئيسية التى انتصبت وتنتصب علامات استفهامها أمام الفكر البشرى عبر القرون ..

ولذلك فنحن نعرف من تراثنا وتراث الإنسانيـة أن هناك: « فلاسفة » ، وأن هناك « فـلاسفة إلهـيين » .. لأن من الفلاسـفة من رفض مـا سوى معطيات العقل وثمـرات بحـثـه وتفكيـره ، ومنهم من اسـتـخـدم هذا العـقل فـى تفـسـيـر «النصوص النقلية » بعد أن أقر وآمن بأهمية وضرورة معطيات هذه النصوص وأعلام مدرسة التفكير الإسلامى الحديث هم من هذا الفريق ، فلاسفة إلهيون

ولذلك فنحن نسمى « العقلانية » التى كونت قسمة من قسمات مدرستهم : «العقلانية الإسلامية » .. وإن كنا ننبه إلى تفاوت مستوى هؤلاء الأعلام فى هذا الميدان .. ونؤمن بأن أكثرهم فروسية فى الميدان الفلسفى هو الأفغانى ؛ ولذلك كان أجدرهم بأن يتخذ نموذجا فى حديثنا هذا عن العقلانية الإسلامية التى تميزت بها مدرسة الفكر الإسلامى الحديث .

فى تراث الأفغانى صفحات فلسفية كثيرة ظلت حتى الآن بعيدة عن أيدى القراء والباحثين . بل ظلت حتى الآن منسوبة إلى غيره ، وخاصة الشيخ محمد عبده .. وبعد أن نشرتُ أعماله الكاملة توفرتُ على تحقيق الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده .. وخلال السنوات التى أمضيتها فى هذا العمل كشف لى التحقيق العلمى للنصوص عن عشرات من النصوص هى للأفغانى ، ومنسوبة خطأ إلى الأستاذ الإمام . ومنها كتبٌ ورسائل فلسفية ، لا يمكن أن يدرس الموقف الفلسفى للأفغانى دون أن تعود نسبتها إليه وتوضع فى هذا الإطار بين يدى القراء والباحثين ..

ومن هذه النصوص الفلسفية (رسالة الواردات فى سر التجليات) والتعليقات التى شرح بها الأفغانى ما كتبه جلال الدين الدوانى على كتاب (العقائد) لعضد الدين الإيجى .. وبالطبع فليس هنا مجال للحديث عن مضمون هذه النصوص الفلسفية ، وإنما الأمر الذى نريد أن نلفت إليه النظر هو أن الرسالة الأولى قد أملاها الأفغانى سنة ١٨٧٢ م . والتعليقات ـ وهى تكون كتابا كبيرا ـ قد أملاها سنة ١٨٧٥ م ـ وكان محمد عبده لا يزال تلميذا بالأزهر ـ وفى هذه الفترة لم يكن بمصر من يطرق المباحث العقلية النظرية فى الفلسفة الإسلامية سوى الأفغانى ، على وجه الإطلاق وبلا أية تحفظات ؟!

فهو رائد التجديد فى هذا الميدان دون جدال ، والأمر الثانى الذى نريد أن نلفت إليه النظر ـ وهو أكثر أهمية ـ هو أن تعليقات الأفغانى التى نشير إليها تضع يدنا على حقيقة كبرى وهامة عندما نرى سعة اطلاع هذا الفيلسوف على الجوانب المتعددة والغنية لتراث العرب والمسلمين فى الفلسفة والإلهيات ، وانطلاقه هو بإضافاته وتفسيراته من فوق أرضية هذا التراث .. فالكثيرون يحسبون أن تخلف المطبعة العربية حتى ذلك التاريخ عن تقديم كنوز التراث هذه قد حال بين مثل الأفغانى وبين الانطلاق من هذا المصدر العربى الإسلامى ، ولكن إحاطة الرجل بتيارات ذلك التراث ومدارسه الفكرية وعرضه لآراء أعلامه ونصوصهم الفلسفية يجعلنا نبصر دور « مكتبات المخطوطات » التى كانت مصدر بحثه وقراءته، ودور الكتب التى كان قد حققها ونشرها يومئذ المستشرقون الأوربيون .. فكتابات الأفغانى الفلسفية هذه ـ وهى التى كانت رائدة فى هذا الحقل فى عصر نهضتنا وبعثنا وإحيائنا ـ دليل على المنطلق العربى الإسلامى للقسمة العقلانية التى تميزت بها مدرسته الفكرية ، وهى القسمة التى أرساها الرجل قبل رحلاته إلى أوربا وحياته فى البيئة الفكرية للأوربيين .. فالأمر إذا لم يكن « استعارة » من الليبرالية الأوربية ، وإن كان حدوث التأثر والاستفادة ـ خصوصا بعد رحلاته الأوربية ـ هو أمر وارد وواجب الحسبان.

ونحن إذا تتبعنا « قسمة العقلانية » فى تراث الأفغانى وجدنا الكثير من الملامح والتفاصيل ، وأيضا الكثير من المواقف .. ولكننا سنكتفى هنا بتقديم عدد من المواقف الفكرية التى تبرز هذه القسمة العقلانية فى فكره :

العلاقة بين العقل والنقل : تصدى الأفغانى لأولئك الذين يقولون إن « باب الاجتهاد » قد أغلق منذ قرون ، وأنه لا مجال للإبداع والابتكار ، ومن ثم

فلا تجوز مخالفة آراء السابقين .. وكان الفارق بين موقف الأفغانى وموقف خصومه هو الفارق بين الحياة والموت ، بين الثورة والجمود ، بين الحركة المتدفقة المتطورة للقوى الجديدة النامية والسكون القاتل لمجتمع الإقطاع ، بين إحياء الأمة أو بقائها فريسة ولقمة سائغة فى قبضة الزحف الاستعمارى الأوربى والتخلف الذى فرضته « دولة الرجل المريض» .

ولقد طرق الأفغانى « باب الاجتهاد » الموصد بمنطق : إن السابقين كانوا رجالا فكروا لعصرهم ، ثم تطورت المجتمعات ، ونحن رجال لا بد أن نقدم الجديد لهذا العصر الجديد ..

فقال : « إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى، وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم ازدادوا فهما وتدقيقا»(١) .. وذلك لأن التشريعات إنما تتبدل بتطور الزمان ، وأن السابقين إنما « أتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم » ، وأن « تبدل الأحكام بتبدل الزمان ، يجعل من الخطأ الذى لا يغتفر أن نقف موقف « الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند أقوال من تقدمهم »(٢) ..

وهذا الاجتهاد الذى دعا إليه الأفغانى كان سبيله العقل ، فلقد نادى الرجل بإعطاء العقل مكان السيادة فى تفسير النصوص ، والاحتكام إليه عندما تتعارض ظواهر هذه النصوص مع معطيات العقل وبراهينه ، وذلك لأن

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى مع دراسة عن حياته وآثاره ، دراسة وتحقيق محمد عمارة - ص ٣٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٩ .

القرآن قد أتى بالكليات والعموميات فيما يتعلق بهذا الحقل ، وتفسير هذه الكليات والإشارات إنما يكون على ضوء أحكام العقل ومنجزات العلوم التى وصلت إليها حضارة العصر . والتأويل لظواهر النصوص هو السبيل إلى هذا التوفيق المنشود « فإذا لم نر فى القرآن ما يوافق صريح العلم ، والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل . إذ لا يمكن أن تأتى العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهى فى زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة فى الخفاء لم تخرج لحيز الوجود »كما أن « القرآن يجب أن يجل عن مخالفته العلم الحقيقى ، خصوصا فى الكليات »[1] .

ومن الأمور التى اهتم بها الأفغانى ؛ لتعلقها بقدرة الإنسان المفكر وأهليته وجدارته بالاجتهاد والابتكار والإبداع ـ وهى قسمات للإنسان الفرد فى الموقف العقلانى تحدد مكان هذا الإنسان فى الكون ، ومركزه الممتاز فى العلاقة القائمة بينه وبين هذا الكون ، وهو فى تصوير علو قدر الإنسان هنا يستعير عبارة الفيلسوف الصوفى محيى الدين بن عربى التى تقول : « أيحسب الإنسان أنه جرم صغير ؟ وفيه انطوى العالم الأكبر ! » . ثم يمضى قائلا : « نعم .. إن الإنسان أكبر أسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته ، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا ، وما صوره جموده ، وتوقف عقله عنده بأنه « خيال » قد أصبح « حقيقة » ..[2] ..

وهذا الموقف الذى يعلى من قدر الإنسان وقدرته على فض كل الأسرار الكونية يتحدد أكثر وأكثر عندما نرى أن الرجل قد أبرز العالم المادى كمصدر

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

رئيسى لفكر الإنسان ، بل وقدم لنا صيغة فلسفية شديدة العمق والتقدم للعلاقة القائمة أبدا بين الفكر وبين المادة فى هذا الكون ، والصلة التى بين الأفكار وبين الأعمال ، فنراه يتحدث عن أن الملاحظة (الشهود) تحدث « فكرا » ثم يعود « الفكر » إلى التأثير فى « العمل » والواقع ، ثم تستمر علاقة التأثير والتأثر المتبادل ، دائما وباستمرار لتحدث التغيير الدائم المستمرفى كل الأشياء ، وذلك عندما يقول : إن « كل شهود يحدث فكرا ، وكل فكر له أثر فى داعية يدعو إليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، دور يتسلسل، ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح فى الأجساد ،وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول العمل ، وأول العمل آخر الفكر»(١) .

وانسجاما مع هذه العقلانية وتلك الثقة التى أعطاها الأفغانى للإنسان المفكر أعلن الرجل أنه لا حدود أمام انتصارات الإنسان الفكرية على الطبيعة والكون والمجهول ، شريطة أن يتحرر العقل الإنسانى من قيود الأوهام ، فيقول : إنه «إذا ظفر العقل فى هذا العراك والجدال ، وتغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان ، وغاص فى البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق - بلا سلك - لحمل أخباره؟! وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى ، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى ؟! وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان فى مستقبل الزمان إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التى ما وجدت إلا للإنسان وما وجد الإنسان إلا لها »(٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ .

فهو هنا يقدم نظرة جديدة وتقييما جديدا للإنسان وقدراته ، وهى نظرة تقييم تختلف تمام الاختلاف عن تلك التى كانت سائدة ومستقرة فيما قبل عصر النهضة ، وظهور الفكر الليبرالى عند الأوربيين .

ولم ينس الأفغانى أن ينبه إلى أن هذه المنجزات التى اختص العقول بإنجازها ليست مما تستطيع الجماهير ولا العامة قبولها بيسر وسهولة .. ذلك أن معطيات العقل كثيرا ما ترفضها الفطر المريضة ، ولا تستسيغها أفهام العوام ، لأن « العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين . والعلم - على ما به من جمال - لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها ، أو ارتيادها(١) .

والحديث هنا عن « نخبة المتنورين » ملمح من ملامح الفكر الليبرالى بكل تأكيد .

الديمقراطية الليبرالية :

نستطيع أن نقول إن جوهر الموقف الليبرالى بصدد قضية الديمقراطية والحريات قد تجلى بعمق وأصالة فى موقف جمال الدين الأفغانى بهذا الخصوص ..

* ففى أوربا كانت الحركة الماسونية قد ازدهرت كتيار فكرى ونشاط عملى يناهض سلطة البابا الكنسية المتحالفة مع الأباطرة وأمراء الإقطاع ، ويناصر حرية البحث العلمى ، ويدعو إلى فصل الدين عن الدولة ، ويرفع شعارات

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٠ .

الثورة الفرنسية عن (الحرية ، والإخاء ، والمساواة) .. ومن ثم أصبحت هذه الحركة ، في مجملها، وخاصة في بداياتها ومن خلال أهدافها المعلنة ، جهدا فكريا ونشاطا عمليا يناصر الليبرالية والليبراليين .

ولقد ظن الأفغاني صدق الحركة الماسونية في مصر ، وتوهم جدية ما ترفعه من شعارات ليبرالية فانضم إلى محفلها .. وعندما تكشفت له حقيقة هذا المحفل ، وجبن أهله عن مقاومة سلطان الحكومة المصرية المستبدة ، وممالأة أعضائه للنفوذ الإنجليزي الزاحف على البلاد ، أعلن الثورة عليهم ، وكان خطابه الذي هاجمهم فيه مركزا على موقفهم من الحرية ، مما يعكس لنا الموقف الليبرالي لدى الأفغاني من قضية الديمقراطية والحريات . ويجسده إلى حد كبير .. لقد قال : « إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون ، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور : فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة ؟! .. أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير : (حرية ، مساواة ، إخاء) غرض : (منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق) .. ولكن ماسونيتكم ـ أيها الإخوان ـ اليوم لا تتجاوز « كيس أعمال » و« قبول أخ » يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل ، ويسقط مكانة الماسونية في عينيه .. »[1] .

وهو موقف يؤكد انحياز الأفغاني إلى الفكر الليبرالي في الديمقراطية والحرية ، وسعيه للنضال على دربها مسلحا بهذا اللون من ألوان التفكير ..

* وعندما تأكد الأفغاني من خيانة المحفل الماسوني المصري لشعارات

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

الماسونية المعلنة ، ومهادنته ـ على الأقل ـ للنفوذ الإنجليزى الزاحف على مصر، أعلن استقالته من هذا المحفل ، بعد خطاب ثورى ألقاه فى مؤتمر للمحفل كان يشهده يومئذ ولى عهد إنجلترا .. وقام بإنشاء محفل ماسونى شرقى أشرف هو على تنظيمه واختيار أعضائه ، وجعل علاقته بالمحفل الفرنسى كى يستفيد من التناقض الذى كان قائما يومئذ بين الفرنسيين والإنجليز على النفوذ فى الشرق ، والذى جعل الفرنسيين يناوئون أطماع إنجلترا فى مصر ، ومن ثم أقام أرضا مشتركة بينهم وبين الوطنيين المناهضين لهذه الأطماع .. وفى هذا المحفل أقام الأفغانى دوائر « للأشغال » و «المالية » و «الجهادية » و « الحقانية » ..الخ .. الخ .. كى يربى قيادات وطنية تستطيع أن تنهض بقيادة مصر على المستوى الرسمى عندما يحين الحين ..

وكانت الخطوة التالية للأفغانى فى حقل التنظيم السياسى إقامة أول حزب وطنى فى تاريخ مصر الحديث ، وهو (الحزب الوطنى الحر) الذى أقامه الأفغانى سرا ، والذى أعلن عنه وعن نشاطه لأول مرة عندما تحركت قيادته ساعية إلى خلع الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٩ م . وعن هذه الحركة التى أعلن بها الأفغانى وجود هذا الحزب يقول الشيخ محمد عبده : « .. ثم ذهب وفد من المصريين ـ ومعهم السيد جمال الدين ـ إلى وكيل دولة فرنسا ، وأبانوا له أن فى مصر حزبا وطنيا يطلب الإصلاح ويسعى إليه ... وانتقل ذلك فى القاهرة وغيرها ، وتناقلته الجرائد ، وهى أول مرة عرف فيها اسم الحزب الوطنى الحر »(١) .

---

(١) محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) ج ١ ص ٧٥ . طبعة القاهرة الأولى سنة ١٩٣١م .

ونحن نعتقد أن هذا الحزب ببرنامجه وأهدافه كان أبرز تجسيد للموقف والفكر الليبرالى بمصر فى ذلك التاريخ .. فإقامة التنظيمات السياسية الوطنية ، واتخاذها وسيلة لتحقيق أهداف النضال الوطنى هو ـ فى حد ذاته ـ سمة من سمات التجربة الليبرالية فى ميدان العمل السياسى ، أما أهداف هذا الحزب فهى ـ وخاصة ما تعلق منها بالديمقراطية والشورى والحريات ـ دليل ساطع على تبنى الأفغانى للموقف الليبرالى فى هذا المجال .

فالحزب يناضل من أجل إقامة التجربة الليبرالية فى مصر عن طريق قيام مجلس نيابى منتخب من الشعب ، ووجود حكومة دستورية مقيدة « بالقانون الأساسى » (الدستور) ، ويتحدث الأفغانى إلى الخديوى توفيق ـ قبل أن يعلن تنكره لآراء الأفغانى ـ فيطلب منه سلوك هذا الطريق وتنفيذ وعوده القديمة قبل اعتلائه « أريكة الخديوية » ، يتحدث الأفغانى إلى توفيق فيقول : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظر به لسموكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وسعيتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[1] فهنا دعوة إلى تطبيق الديمقراطية الليبرالية التى كانت مطبقة فى الدولة الأوربية ، والأفغانى يدافع عن أهلية الشعب المصرى لهذه التجربة ضد الذين كانوا يحاربون ذلك الاتجاه بدعوى جهل الشعب وخموله .

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٤٧٣ .

ويزيد الأفغاني هدفه هذا إيضاحا بقوله : إن « حكم مصر بأهلها إنما أعنى به : الاشتراك الأهلي بالحكم الدستورى الصحيح »[١] ولقد كان الأفغاني يتحفظ بعبارة « الحكم الدستورى الصحيح » على تلك المؤسسات والنظم التى لا تأخذ من الديمقراطية والحكم النيابى الدستورى الشورى إلا المظاهر والأشكال ، أو تلك المؤسسات التى يقيمها الأجنبى ذرا للرماد فى العيون ، أو يصنعها الحاكم المستبد كى يموه بها استبداده ، ويخفى بواسطتها تفرده بالسلطة عن العيون .. وإمعانا في الوضوح يقول الأفغاني : «إن القوة النيابية ، لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة .. وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها »[٢] .. ولذلك اعتبر هذا الفيلسوف الثائر أن حصول الأمة على الحكم النيابى الحقيقى إنما هو أمر مرهون بنضال هذه الأمة ، أما ما يقدمه ويهبه الحاكم فإنه لا يمكن أن يتعدى حدود الصور والأشكال فيقول : إنه « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال ؛ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك .. بل هاتان النعمتان ـ الحرية والاستقلال ـ إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار ، يجبل (يخلط) التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء ، أولى النفوس الأبية والهمم العالية .. أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا »[٣] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٨ .

فهو هنا يؤكد أن الهدف هو « الحرية الحقيقية » لا مجرد استبدال الحكم المطلق والفردى بأشكال للحكم الديمقراطى خالية من المضمون .

ولقد كان خلف سعى الأفغانى هذا إلى إقامة المؤسسات الشورية والدستورية والنيابية فى مصر ، موقف فكرى شديد العداء للحكم الفردى المطلق الذى عانى منه الشرق قرونا أورثته الاضمحلال ، وجعلته لقمة سائغة للغزاة .. وعندما أشاع البعض أن الأفغانى داعية لقيام حكم « المستبد العادل » سأله مريده وصديقه « محمد باشا المخزومى » : « إن المتداول بين الناس على لسانك : (يحتاج الشرق إلى مستبد عادل) » .. فإذا بالأفغانى يجيب فيقول : «هذا من قبيل جمع الأضداد وكيف يجتمع العدل والاستبداد ؟! .. خير صفات الحاكم : (القوة والعدل) فلا خير بالضعيف العادل . كما أنه لا خير فى القوى الظالم »[1] .

أما الطريق إلى قيام هذا الحاكم « القوى العادل » فلقد حدده الأفغانى عندما جعله متمثلا فى « اختيار » الأمة ، التى تنصب هذا الحاكم كى يحكم بالقانون الأساسى (الدستور) وتجعله يقسم على احترامه ، فإذا حاد عن ذلك سلكت به أحد طريقين : إما العزل ، وإما القتل ؟!.. وحول هذه الفكرة يقول الأفغانى : إنه « لا تحيا مصر ، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ؛ لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة ، وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح .. ذلك الرجل

---

(١) انظر دراستنا عن الأفغانى مفكرا ومناضلا « ملف » الطليعة ، عدد أبريل ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

..تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى (الدستور) ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه له : يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظا أمينا على صون الدستور ، وأنه إذا حنث بقسمه ، وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس ؟!! »(١).

والأمر الذى يؤكد لنا أن فكر الأفغانى هذا عن الديمقراطية والشورى ، والحكم الدستورى وآراءه هذه عن الحريات إنما كانت تجسيدا للموقف الليبرالى فى هذا الميدان أن الرجل كان يستخدم فى سبيل الإقناع بوجهة نظره هذه ، ضمن ما يستخدم أسلوب ضرب الأمثلة للناس بذلك النموذج الليبرالى المطبق فى المجتمعات الغربية فى ذلك التاريخ ، فيصف هذا النموذج ، ويثنى عليه ، ويحبذه ويقطع بحتمية تطبيقه فى بلادنا نحن الشرقيين .. فيقول لشعوب الشرق : « انظروا إلى العالم الغربى ، ترونه على تقسيماته الحاضرة ، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية ـ لما تساووا ، على الوجه النسبى بالفضيلة ، انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان » ثم يمضى مبشرا بزوال سلطان الحكم الفردى فى الشرق كما زال فى الغرب ، فيقول : « وسبنتخى ما بقى فى العالم البشرى من هذا النوع من الحكم المطلق » عندما يصبح « الحكم للعقل والعلم » لأنه « إذا فشا العلم فى الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم، وتعمل على التخلص منه ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٢).

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٤٧٧ ، ٤٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

بعد أن يضرب للناس مثل النظام الليبرالى فى الغرب يحدثهم أيضا عن تجربة المجتمع الشرقى فى اليابان ، وكيف أن « تقييد الحكومة بالدستور ، والنظام الشورى » وقيام « الحكم الدستورى النيابى » واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها(١) إنما كان السبيل إلى ما أحرزه هذا المجتمع الشرقى على درب التقدم والإصلاح .

ونحن إذا علمنا أن التجربة الديمقراطية التى أقامتها الثورة العرابية فى فترة حياتها القصيرة ، والأفكار الليبرالية التى غرستها فى التربة المصرية ، إذا علمنا أن هذه التجربة وتلك الأفكار إنما هى ثمرة من ثمرات ذلك الغرس الذى غرسه الأفغانى بمصر ، وحصاد لعمل ونضال أولئك الرجال الذين ارتبطوا بفكره ومدرسته وانتسبوا إلى (الحزب الوطنى الحر) إذا علمنا ذلك أدركنا يقينا أن فكر الرجل « العقلانى » و « الديمقراطى » إنما كان قسمة أصيلة ونقية للموقف الليبرالى فى هذه المجالات .

موقف اجتماعى على يسار الليبرالية :

فى البدء كان الموقف الاجتماعى للأفغانى هو نفس موقف الليبراليين ، إيمان بالفردية ، ودفاع عن حرية الفرد وحقه فى التملك (الاختصاص كما كان يسميه) وترويج لفلسفة البورجوازية القائلة إن سر التقدم الإنسانى وعماد العمران البشرى هو المنافسة المطلقة ، وأنه لا صلاح للمجتمعات إذا لم ترتض التقسيم الذى وزع أبناءها إلى طبقات ، والهجوم السافر والشديد على فلسفة النظم الاشتراكية التى كانت يومئذ مجرد دعوات لم توضع بعد فى مجال الممارسة والتطبيق .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

ونحن نلتقى بموقف الأفغانى فى رسالته (الرد على الدهريين)[1] التى كتبها سنة ١٨٨١م ، والتى نشرت بالعربية للمرة الأولى سنة ١٨٨٦م . ففيها يهاجم الفلسفة الجماعية للدعوات الاشتراكية ويدافع عن الفلسفة الفردية للنظام الرأسمالى ، فيتحدث عن الطوائف والتيارات الاشتراكية قائلاً : « هذه الطوائف .. تسعى لتقرير الاشتراك فى المشتهيات ، ومحو الامتياز ، ودرس رسوم الاختصاص (التملك) ، حتى لا يعلو أحد على أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره فى شئ ما ، ويعيش الناس كافة على حد التساوى ، لا يتفاوتون فى حظوظهم[2] فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح فى سعيها هذا ، وإن لاق (تناسب) هذا التفكير الخبيث بعقول البشر ، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل والأفضل ، فلا نجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة طلباً للمساواة فى الرفعة .. إن أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة ».. فإن المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان إنما هو حب الاختصاص (التملك) والرغبة فى الامتياز . فهما الحاملان على المنافسة ، السائقان إلى المباراة والمسابقة ، فلو سلبتهما أفراد الإنسان وقفت النفوس عن الحركة إلى معالى الأمور ، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات واكتناه حقائق الموجودات ، وكان الإنسان فى معيشته على مثال البهائم البرية إن

---

(١) فى مقدمة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى تحدثنا عن الظروف الذاتية والموضوعية التى أثمرت موقف الأفغانى هذا ، وعن العوامل الأصيلة التى جعلته يطور موقفه الاجتماعى ، انظر ص ٨١ ، ٩٧ . وانظر كذلك الدراسة التى نشرناها بعدد « الطليعة » الصادر فى أبريل سنة ١٩٦٩ ص ١٣٥ - ١٣٩ .

(٢) ونحن نلاحظ هنا أن أوصاف الأفغانى خاصة بجماعات الاشتراكية الخالية من الماديين والوضعيين ، فى أوروبا وليست عامة فى كل الاشتراكيين .

أمكن له ذلك ، وهيهات هيهات ؟! »[1] .

فهو هنا يدافع دفاعا مجيدا عن الفلسفة الليبرالية الفردية ، ويدبج الحجج لنصرة هذا الموقف الفكرى الليبرالى . ولكن الرجل لم يقف حياته كلها عند هذا الموقف وإنما طوره وتطور به تجاه معسكر الفكر الاشتراكى فتبنى فلسفة متميزة ومغايرة للفلسفة الفردية الليبرالية ، إزاء الموقف الاجتماعى ، عندما حبذ موقفا اشتراكيا « وسطا » يقوم على فلسفة تناهض الفردية التى تؤدى إلى تفاوت اجتماعى « لا يتم به نظام الاجتماع » الإنسانى[2] وآمن بأن انقسام المجتمع إلى طبقات لا يمكن أن يظل هكذا ساكنا ودون صراع طالما كانت المظالم الاجتماعية الناتجة عن ظلم أرباب الأعمال للعمال قائمة ، فأرباب الأعمال « الذين أثروا من كد العمال وعملهم وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السفه ، لابد وأن يفضى صنيعهم هذا إلى دفع « طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية ، وفى نفيرهم روح الانتقام » مما حدث لهم من ظلم وإفراط « وفى زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق »[3] .

ومع حرص الأفغانى على التمييز بين « الاشتراكية الغربية » وبين «الاشتراكية الإسلامية » التى حبذها.. فلقد قرر عدداً من المبادىء العامة والهامة :

١ ـ فهو قد اعترف بانقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية يحددها الوضع الاقتصادى لهذه الطبقات .

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ١٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

٢ ـ وسلم بحتمية الصراع الطبقى بين هذه الطبقات نتيجة للظلم الاجتماعى من قبل « أرباب الأعمال للعمال » .

٣ ـ وقرر أن المسئولية فى أعمال العنف التى تقع فى هذا الصراع الطبقى إنما يتحمل تبعتها وأوزارها الأغنياء ، وأرباب الأعمال ؛ لأن هذا العنف ما هو إلا رد فعل لمظالمهم التى أوقعوها بالعمال .

٤ ـ وهو لم يسم اشتراكيته بالاشتراكية الإسلامية ليفرغها من مضمونها الاشتراكى ـ كما يفعل البعض ـ بل لقد حلل الصراع الذى دار زمن عثمان بن عفان على أساس من الصراع الطبقى الناشىء عن المظالم الاجتماعية التى حدثت بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودافع عن « الثورة » ثورة «طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين » التى قادها أبو ذر الغفارى ضد طبقات « الأمراء » و« الأشراف » و « أهل الثروة والثراء والبذخ » فى ذلك المجتمع(١) .

ومن ثم فإننا نستطيع أن نقول إن الأفغانى صاحب الموقف الليبرالى فيما يتعلق بالاتجاه العقلانى ، وفيما يتعلق بالديمقراطية والحريات ، قد بدأ حياته ليبراليا ذا نزعة فردية فيما يتعلق بالموقف الاجتماعى أيضا ، ثم تطور بهذا الموقف الاجتماعى إلى ما هو أبعد وأكثر تقدما من الموقف الليبرالى ، بل والراديكالى ، وقدم تصورا اشتراكيا خاصا ، فالاشتراكية الغربية ـ عنده ـ : صراع طبقى عنيف ، هو رد فعل للمظالم الاجتماعية .. بينما الاشتراكية الإسلامية ـ التى حبذها ـ هى فعل ، إذا نحن سلكنا طريقه ، فلن ندخل دوامة المظالم وردود أفعالها !.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢١ ـ ٤٢٣ .

الحزب الوطنى الحر

(مصر أحب بلاد الله إلىّ ... وقضيتها أهم قضايا المسألة الشرقية ، وهى مفتاحها .. ولقد كان المتأمل فى سيرها - قبل التدخل الاستعمارى فيها - يحكم حكما ربما لم يكن بعيدا من الواقع: أن عاصمتها لابد أن تصير - فى وقت قريب أوبعيد - كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان هذا الأمر أمرا مقررا فى نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر .

والمصريون هم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب ، وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظمة هممهم .

وإذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة لا ترى بدّاً من استقلالها ولا تقبل به بديلاً ، وثبتوا ، وصبروا ، ورابطوا ، وارتبطوا ، فبشر المصريين بحسن المآل ، ونيل الاستقلال .

نعم .. سوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهيأوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى) .

الأفغانى :

هذا التقدير الخاص الذى أعطاه الأفغانى لمصر ، ولدورها القيادى فى المنطقة العربية - بل والشرقية بأسرها - يستحق التأمل والتفكير ... ذلك أنه لم يكن وليد انطباعات سائح ، وإنما كان ثمرة دراسة عميقة لفيلسوف الثورة الشرقية الأعظم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على الإطلاق ..

ولم يكن هذا التقدير ثمرة لما أعطته مصر للأفغانى من الحياة المريحة والهادئة التى تجعله يستلطفها ويتلطف لها فى الثناء والمديح ؛ ذلك لأن مصر قد كانت تشهد يومئذ مخاض ثورة ساهم الأفغانى فى إيقاد نارها ، واكتوى بهذه النار .. ولم تكن حياته فيها (١٨٧١ ـ ١٨٧٩ م) بالشيء المريح ... ومن ثم فإن هذا التقدير الذى أعطاه الأفغانى لمصر ودورها كان ثمرة لدراسة عبقرية أبصرت الدور القيادى لهذا الوطن ، والمسئولية الأبدية التى يتحملها فى المنطقة الكبرى التى يتوسطها ، والتى تمتد أحيانا إلى ما وراء المحيط والخليج إلى حيث تعيش الملايين التى تشترك مع العرب فى الإيمان بدين الإسلام ..

والأمر الذى يعطى تقدير الأفغانى هذا قيمة الحقيقة العلمية : أن الرجل قد عاش فى كثير من أقطار الشرق ، وساهم فى صنع الثورة وتوجيه الأحداث فى عديد من البلاد .. فى الأفغان .. والهند .. وإيران .. والحجاز .. وتركيا .. الخ .. الخ .. ومع ذلك ظلت مصر فى نظره مفتاح الأمل فى الثورة المنشودة ، والطريق الذى لا طريق سواه لإنجاز البرنامج الثورى الذى وضعه الرجل للنهضة بالشرق وتجديد حياة هذه الأمم ، وصد الغزو الاستعمارى الزاحف على هذه البلاد ..

أما الحيثيات التى جعلت الأفغانى يرى هذا الرأى ويقدر هذا التقدير ، فإنها تتعلق بالمستوى الحضارى و النضالى الذى كانت عليه مصر يومئذ بالمقارنة إلى ما حولها من البلاد ، وما تمتلكه من طاقات وإمكانيات ، وما لها فى المنطقة من دور تاريخى ، وموقع جغرافى ، وما قدمت على مر العصور من عطاء وتضحيات .. ولذلك الصمود العجيب الذى جعلها تستعصى على كل

المحاولات التى بذلها الأعداء فى سبيل تغيير عنصرها وتذويب شخصيتها المتميزة ، أو جعلها تتخلى عن الدور القيادى الذى كتب لها على مر العصور...

وكما كان الأفغانى حكيماً عندما أبصر دور مصر القائد فى الشرق ... كان حكيماً أيضا عندما أبصر جوهر المشكلة والعلة التى يعانى منها هذا الشرق .. والتى كانت تتمثل فى الزحف الاستعمارى الغربى - السافر والمقنع - على هذه البلاد ، وزحف الاستعمار الإنجليزى بالذات ... ففى سنة ١٨٣٨م - أى عام ميلاد الأفغانى - كانت إنجلترا قد احتلت « عدن » ، واستقر قدمها - لأول مرة فى التاريخ - على أرض عربية ... ثم توالى تدخلها فى شئون الدولة العثمانية، ومصر بالذات .. وفى شباب الأفغانى دخل عليه النفوذ الإنجليزى بلاده «الأفغان » ، وحارب الرجل ضده كقائد للجيش ، وعندما رجحت كفة الأمير الموالى للإنجليز هجر الأفغانى وطنه إلى « الهند » فطاردته سلطة الاحتلال الإنجليزى ، ومنذ ذلك التاريخ عاش الرجل حياته كلها فى صراع مع الاستعمار فى كل مكان ، ومع الاستعمار الإنجليزى بالذات ... وطوال معركته الطويلة هذه أبصر أن صد الزحف الاستعمارى الغربى هوالمبدأ الأول للثورة المنشودة ... وفى سبيل كسب هذه المعركة لابد من أن يتسلح الشرق بسلاح الديمقراطية والشورى ، فتوضع مقاليد الأمور بيد الجماهير، وتسقط إلى الأبد سلطة العصور الوسطى الاستبدادية .. وفى سبيل كسب هذه المعركة أيضا لابد لهذا الشرق من إصلاح دينى عميق الجذور ، يقوم على التفسير العقلى العصرى المستنير للعقائد والقيم الجوهرية فى أديان الشرق ، وبالذات الإسلام ، ثم يحكم أواصر الإخاء القومى بين أتباع هذه الأديان ... وفى سبيل كسب هذه

المعركة كذلك تطلع الرجل ـ خاصة فى أواخر حياته ـ إلى أفق رحب للعدالة الاجتماعية ، تمثل فى الاشتراكية التى أرادها وثيقة الصلة بقيم ومعتقدات مجددة للفكر المتقدم عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام ...

على أن هناك إضافة هامة وجوهرية قدمها الأفغانى كذلك إلى يقظة الشرق وثورته تتعدى تحقق رسم الأهداف ... وهذه الإضافة تتعلق بالأسلوب الجديد الذى دعا إليه الرجل وكرسه كى يحقق بواسطته هذه الأهداف ، وهو أسلوب « التنظيم السياسى السرى » ، وتكوين الأحزاب والتنظيمات السرية التى يمارس أعضاؤها العمل السياسى والفكرى سرّاً وعلناً بين مختلف الطبقات وفى كل المجالات ، وعلى امتداد بلاد الشرق فى ذلك الحين ... وهى تنظيمات استحدثها الرجل على حياة الشرق السياسية فى عصره ، وكانت التجارب الأولى لشعوبنا فى القرن التاسع عشر فى هذا الميدان ، وأكثر من ذلك كان الثائر الأعظم ينظر إليها كمجرد وسيلة لتحقيق الأهداف ، فهى ليست غاية فى حد ذاتها تحول عضويتها إلى « شرف » يريح الضمير الثورى من المعاناة والتفكير والخلق والابتكار .. وإنما هى مجرد وسيلة تبقى بقدر صلاحها للوفاء بتحقيق الأهداف .. إذا عجزت وجب تغييرها بأخرى تكون أقدر على هذا الوفاء ... بل لقد نظر الأفغانى إلى « سرية » هذه التنظيمات كصورة مؤقتة ، فرضتها الظروف القهرية للاستعمار والاستبداد اللذين رزحت تحتهما بلاد الشرق فى ذلك التاريخ ... وفى مصر بدأت تجربة الأفغانى على هذا الدرب النضالى الذى كان رائده فى عصرنا الحديث ، وفى سبيلها أقام كل التنظيمات السرية التى شهدتها حياته الحافلة بالإبداع الثورى والكفاح والمعاناة.

فى المحفل الماسونى :

والتجربة الأولى للأفغانى فى الكفاح السرى كانت فى « المحفل الماسونى الأسكتلندى » وهو أحد التنظيمات الماسونية التابعة للمحفل الماسونى الإنجليزى.. ولم يكن الأفغانى هو الذى أقام هذا التنظيم فى مصر ، أى أن هذه التجربة لم تكن من صنعه هو ، وإنما كان مجرد انضمام إلى هذا المحفل ، عندما ظن الأفغانى أن حركة الماسونية ـ التى لعبت دورا فى العصور الوسطى فى مقاومة سلطة الملوك والأباطرة والبابوات فى أوربا ، وأسهمت فى الانتصار للحرية والعلم يومئذ ـ ظن الأفغانى أنها لا تزال صالحة للقيام بهذا الدور ؛ لأن شعاراتها عن (الحرية ، والإخاء ، والمساواة) لا زالت كما هى دون تغيير ... ولأن إعلانها عن أن الغرض منها هو (منفعة الإنسان .. سعى وراء دك صروح الظلم .. تشييد معالم العدل المطلق) ، ما زال أيضا دون تغيير ... تحت تأثير هذا الظن دخل الأفغانى المحفل الماسونى عضوا فى سنة ١٨٧٨ م ، أى قبل عام واحد من مغادرته مصر منفيا فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ م .

وما هى إلا شهور قليلة حتى كشف الأفغانى زيف هذه الشعارات التى أصبحت ميتة على يد الماسونية فى مصر ، وكذب ألفاظ هذه الأغراض التى يتستر من خلفها الماسونيون .. بل لعل الرجل أن يكون أول من كشف هذا الزيف وذلك الكذب فى بلادنا فى العصر الحديث ...

والأمر الذى ساعد الأفغانى على سرعة اكتشافه هذا ، أنه قد دخل الماسونية ليستعين بإمكانياتها فى مناهضة الاستبداد والاستعمار ، وليتخذ منها سبيلا لعمله الثورى ، فكان الصدام حادا ومباشرا وسريعا ... وعندما تحركت عناصر الخيانة فى المحفل الماسونى الأسكتلندى لتقف فى طريق الأفغانى ،

وخطب أحد هذه العناصر قائلا : « إن الماسونية لا تزج بنفسها فى السياسة ، بل أولى بها أن تنصرف عنها خوفا من بأس الحكومة وبطشها » تصدى له الأفغانى بخطاب تاريخى كشف فيه خيانة هذا التنظيم ، وقال فيه : « ... كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطوانتى المحافل الماسونية ... إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى فى يدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة !!.. يؤلمنى أننى للآن ما عرفت لنفسى ـ بصفتى ماسونيا ـ ولا لمطلق الماسونية تعريفا يجعل لهاصورة فى الذهن أو وصفا ينطبق على من ينخرط فى تلك العشيرة ... أول ما شوقنى للعمل فى بناية الأحرار عنوان كبير خطير : (حرية ، مساواة ، إخاء) غرض : (منفعة الإنسان .. سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق) فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية ، وهو : همة للعمل ، وعزة نفس وشمم ، واحتقار للحياة فى سبيل مقاومة الظلم ... ولكن ـ مع الأسف ـ أرى أن جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرئاسة ، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعاً لشرق عن بعد سحيق يعتوره تهديد ووعيد ، وغير ذلك من الأمور التى ما تأسست الماسونية الحرة إلا لملاشاتها ، واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك والحكام أنهم من « الخوارج » .. فالماسونية ـ على شكلها هذا وتقاليدها ـ ليست فقط قديمة العهد ، بل هى لم تزل فى المهد ... وستختنق فى المهد ولا

تدرج منه ... »[1] .

ثم كان الصدام الحاد الحاسم بين الأفغانى وذلك المحفل الماسونى «الأسكتلندى » عندما وقف الأفغانى فى اجتماع غير عادى لهذا المحفل ، وبحضور ولى عهد إنجلترا ، ليهاجم الاستعمار الإنجليزى وزحفه على الممالك الشرقية ... ويومئذ تمت القطيعة النهائية بين الأفغانى وذلك المحفل الماسونى..

ثم انتقل الرجل إلى تجربة جديدة من الكفاح السرى ، أراد أن يستفيد فيها بالماسونية كإطار للعمل والحركة يتمتع بحماية قانونية - وكواجهة شرعية للتنظيم الذى يريد إقامته من أجل الثورة فى مصر على الاستبداد ونفوذ الاستعمار .. كما أراد الأفغانى أن يستفيد فى هذا الصدد من التناقضات القائمة بين الإنجليز والفرنسيين .. فإذا كان قد اكتشف فى « المحفل الأسكتلندى » تنظيما مواليا للنفوذ الإنجليزى الزاحف على مصر فى عهد الخديو إسماعيل ، وإذا كانت مصلحة فرنسا فى عرقلة زحف هذا النفوذ موجودة وأكيدة ، فلقد قرر الأفغانى الاستفادة من هذ االتناقض ، وأنشأ محفلاً ماسونيّاً خاصّاً ، جعله تابعاً للمحفل الشرقى الفرنساوى ، ومن الناحية العملية والواقعية كانت رئاسته للأفغانى ، ومن ثم كان تنظيما خاصا لا أثر فيه للماسونية سوى الاسم فقط .. ولقد اختار الأفغانى فى تنظيمه الجديد هذا صفوة مختارة من قيادات مصر الفكرية والسياسية والعسكرية فى ذلك الحين ، وقسم هذا « المحفل » إلى شعب عديدة تقوم كل منها على إعداد أعضائها كمتخصصين فى مجالهم .. فكانت هناك شعبة للضباط المصريين تستهدف تثقيفهم فكريا وسياسيا ، وإعدادهم

---

(١) الأعمال الكاملة : ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

لكسب المعركة التى كانوا يخوضونها فى الجيش ضد الضباط الشراكسة والأتراك ... وشعبة أخرى للعدل (الحقانية) ... وثالثة للمالية .. ورابعة للأشغال .. الخ .. الخ .. أى أن هذا التنظيم كان مرحلة من مراحل إعداد «الكوادر» المصرية الوطنية كى تتقن فن الحكم والسياسة بمختلف أبعادها ، وتتخصص فيه ، وذلك تمهيدا لمرحلة تحقيق الشعار الذى كانت تنظيمات الأفغانى السرية فى مصر أول من رفعته ، وناضلت فى سبيله ، شعار (مصر للمصريين) ...

وعندما أثمرت هذه التجربة الوطنية فى عمل الأفغانى السياسى ، وتنظيمه السرى ، وتحول هذا المحفل إلى تنظيم وطنى حقيقى ، وجد الأفغانى أنه لا داعى للاحتفاظ باسم الماسونية وشعاراتها ، وأن الظروف قد نضجت للانتقال إلى مرحلة جديدة فى التنظيم السرى ، يصبح فيها اسم التنظيم معبرا حقيقيا وجريئا عن خطته وأهدافه ... وهكذا بعد عدة أشهر من بدء تجربة (المحفل الماسونى الشرقى) تجاوزها الأفغانى ، كما تجاوز من قبل ورفض تجربة (المحفل الماسونى الأسكتلندى) .. وكون أول حزب وطنى عرفته بلادنا فى عصرها الحديث ، وهو (الحزب الوطنى الحر) .

الحزب الوطنى الحر :

كانت المرة الأولى التى ظهر فيها اسم هذا التنظيم علنا ، وعرف لدى الجماهير ، وتناقلت خبر وجوده الجرائد ووكالات الأنباء .. إبان سنة ١٨٧٩ م عندما أخذ هذا الحزب يعمل لإزاحة الخديو إسماعيل عن كرسى الخديوية المصرية ، لاعتقاده أن الخديو إسماعيل هو المسئول عن تدخل أوربا فى الشئون المصرية ، وأنه هو الذى فتح للاستعمار هذا الباب ، ومكنه من هذا

الطريق .. وكشف الأفغانى عن وجود هذا التنظيم السرى عندما ذهب على رأس وفد من رجالاته لمقابلة القنصل الفرنسى لإقناعه بأن مصلحة مصر تقتضى زوال إسماعيل ، واستبدال توفيق به - الذى أوهم هذا الحزب أنه قريب من فكره - ويتحدث الشيخ محمد عبده عن هذه المقابلة فيقول : « ثم ذهب وفد من المصريين - ومعهم السيد جمال الدين - إلى وكيل دولة فرنسا ، وأبانوا له أن فى مصرحزبا وطنيا يطلب الإصلاح ويسعى إليه ... وانتشر ذلك فى القاهرة وغيرها ، وتناقلته الجرائد ، وهى أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطنى الحر » .

أما الإصلاح الذى سعى هذا الحزب إلى تحقيقه فى مصر يومئذ فلقد كان يتمثل - إلى جانب النهضة الفكرية والتجديد العقلى للبلاد - فى أهداف سياسية ثلاثة :

١ - مناهضة النفوذ الأوربى الزاحف على مصر ، بكل الوسائل ، ولقد رأى الحزب أن فى مقدمة وسائله لذلك إزاحة الخديو إسماعيل من فوق كرسى الخديوية .. لا بالعمل السياسى فقط ، بل لقد فكروا فى ذلك عن طريق الاغتيالات .. والشيخ محمد عبده يتحدث عن ذلك فيقول : « إننا كنا نتكلم سرا فى هذا الشأن ... واقترح الشيخ جمال الدين علىّ أنا أن أقتل إسماعيل - وكان يمر بمركبته كل يوم على جسر النيل - ... وكنت أنا موافقا الموافقة كلها على قتل إسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا «عرابى» فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا أن ننظم الحركة ؛ لأن قتل إسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله ، وكان يمنع تدخل أوروبا .. » .

٢ ـ كما كان الحزب يستهدف إقامة الحياة النيابية فى مصر ، وإعطاء البلاد دستورا يحقق ضبط السلطة الفردية وتقييدها ، ووضع مقاليد الأمور فى يد الجماهير .. وأفكار هذا الحزب حول هذه القضية كانت من النضج والعمق وشدة الإيمان بالجماهير إلى الحد الذى يجعل القارىء المعاصر يحسبها من فكرنا الديمقراطى المعاصر لنا نحن ، وليست فكرا قد مضى عليه أكثر من قرن من الزمان ... فالأفغانى يحدثنا عن الحياة النيابية المطلوبة لمصر يومئذ فيقول: « إن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من الأمة نفسها . وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها . »

... كما يتحدث عن مقصده ومطلبه من وراء قيام الحياة الدستورية بمصر فيقول : « ... وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به : الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح ... » ... وهو يرى فى هذه الأهداف غايات لا تدرك إلا بالنضال ، وهو النضال الذى أقام لتحقيقه تنظيم (الحزب الوطنى الحر) . فهى غايات لا يمكن أن تتحقق إلا كثمار لمعارك نضالية .. وكما يقول : فإنه «إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء (الحرية) و (الاستقلال) لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك ... بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار ، يجبل (يخلط) التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء أولى النفوس الأبية والهمم العالية . » ..

٣ ـ وهناك حقيقة هامة نستطيع أن نستكشفها ونقررها ـ ونحن نتحدث عن

أهداف (الحزب الوطنى الحر) ـ وهى « الأفكار الجمهورية » فى صفوف هذا الحزب ... ذلك أن العلاقة المخادعة والمؤقتة بين الأمير توفيق باشا وهذا الحزب لم تلغ التفكير فى إقامة النظام الجمهورى بمصر من صفوف ذلك الحزب فى ذلك التاريخ ... وعندما سعت إنجلترا لنفى الأفغانى من مصر فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ م كان من بين حججها التى ساقها قنصلها بمصر للخديو توفيق : إنه لا مفر من طرد جمال الدين من مصر ، وأن ذلك هو الشرط الضرورى للمحافظة على عرشه ؛ لأن الأفغانى « يدبر أمر مقاومته ، والاتجاه بمصر إلى النظام الجمهورى » ... ولم يكن ذلك مجرد اختراع إنجليزى لتخويف توفيق كى يقتنع بنفى الأفغانى ، فمحمود سامى البارودى يتحدث فى ١٨ يونيو سنة ١٨٨٢م فى منزل أحد أعضاء هذا الحزب ـ حسن موسى العقاد ـ وبحضور « عرابى » و « عبد الله النديم » و « الشيخ محمد عبده » .. الخ .. الخ .. يتحدث عن تاريخ التفكير فى تحويل مصر إلى النظام الجمهورى ، فيرجع بهذا التاريخ إلى بدء حركة هذا الحزب ، ويقول : « لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية ، مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ؛ لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت ؟! » .

وهكذا ناضل (الحزب الوطنى الحر) حول هذه الأهداف السياسية ، وفى سبيلها : ضد النفوذ الأوربى ... وإقامة الحياة الدستورية النيابية الحقيقية .. والاتجاه بمصر إلى النظام الجمهورى .. وعندما قرر الخديو توفيق نفى جمال الدين الأفغانى من مصر ، ونفذ ذلك فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ م أصدر مجلس

النظار المصرى قراراً يهاجم فيه الأفغانى كرئيس لهذا الحزب .. وقال القرار فى تبرير النفى : « إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا ؟! » .. وعندما تقدم هذا الحزب لقيادة الثورة العرابية وواجهته جيوش الاستعمار الإنجليزى المتحالفة مع الخديو ، واستعانت فى ذلك أيضا بنفوذ السلطان العثمانى ، واستطاعت هزيمة الثورة ، وفك تنظيم ذلك الحزب ، شرع الأفغانى ـ من منفاه ـ فى إقامة تنظيمه السرى الثورى الجديد ، تنظيم (جمعية العروة الوثقى) التى حملت الرسالة نفسها ، رسالة الثورة والتجديد .. الثورة على الاستعمار والاستبداد ، والتجديد لحياة الشرق وعقول الشرقيين .

العروة الوثقى :

والبعض يخطىء حين يظن أن (جمعية العروة الوثقى) لم تكن تنظيما سياسيّاً ثوريّاً ، وإنما كانت مجرد جمعية دينية إصلاحية تستهدف تجديد الإسلام وصلاح حال المسلمين .. ويجهل الكثيرون حقيقة ذلك التنظيم السرى الذى كانت تنطق باسمه مجلة (العروة الوثقى) التى أصدرها الأفغانى ومحمد عبده فى باريس سنة ١٨٨٤ م .

والحقيقة التى تتجلى للباحث فى أمر هذا التنظيم ، هى أن (جمعية العروة الوثقى) إنما كانت الامتداد ـ وأيضا البديل ـ للحزب الوطنى الحر الذى أقامه الأفغانى بمصر قبل نفيه منها .. وأن القضية المصرية كانت أهم القضايا فى برنامج هذه الجمعية ، بل وأكثر من ذلك كانت هى السبب المباشر الذى دعا إلى إقامة هذا التنظيم ... ففى افتتاحية العدد الأول من (العروة الوثقى) نقرأ: « إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على

نفوس المسلمين عموما . إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الإسلامية ؛ ولأنها باب الحرمين الشريفين .. وإن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ... فأيقظت أفكار العقلاء .. فتقاربوا .. وتواصلوا .. وتألفت عصبات خير من أولئك العقلاء ... فى عدة أقطار ، خصوصا البلاد الهندية والمصرية ... » .. إذن فهو تنظيم سرى جديد يرأسه الأفغانى ، دعت إليه القضية المصرية واحتلال الإنجليز لها فى سنة ١٨٨٢ م ... وهى لم تكن تنظيما خاصا بالمسلمين ، بل بالشرقيين من كل الأديان ، وليس تركيزها على المسلمين إلا من باب أنهم الأغلبية الساحقة لأمم الشرق ، وعن طريق التجديد الدينى لمعتقداتهم يستقيم الكثير من أمورهم فى السياسة والفكر والاجتماع .. الخ .. الخ .. ويعبر عن هذا الموقف الكثير من مقالات (العروة الوثقى) .. فهى تدعو للأخوة الإسلامية ، والقسم السرى الذى كان يقسمه الأعضاء الجدد فى التنظيم يقول فيه العضو منهم : « ... ولأبذلن ما فى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم فى عقد من عقودها(أى مستوى من مستوياتها التنظيمية) .. ولأراعينها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام » ..

وهى فى ذات الوقت تؤمن بجبهة نضالية واسعة وعريضة ضد الاستعمار ، تتجاوز حدودها فروق الجنسيات والمعتقدات ، ذلك لأن ضراوة الصراع ضد الاستعمار قد استوجبت ذلك ، وكما تقول المجلة : « إن مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى

الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب ، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك فى طلب المنفعة » ... بل إن هذه الجبهة التى يدعو إليها هذا التنظيم الثورى لا تقتصر على الأمم التى ابتليت بالاستعمار ، فيقيم هذا التنظيم العلاقات والمحالفات مع القوى السياسية المتقدمة فى أوربا ، تلك القوى التى جعلت من أهدافها السعى لإقامة العدل للإنسان .. ويتحدث المقال الافتتاحى للعروة الوثقى عن هذا التحالف الأممى فيقول عن أعضاء الجمعية : « ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوربا .. » .

ولما كانت المخاطر التى يتعرض لها الشرق يومئذ آتيةمن قبل الاستعمار الإنجليزى - قبل غيره - كانت نشاطات هذا التنظيم الفكرية والعملية موجهة أساسا ضد الإنجليز ... ومن هنا يأتى التفسير لتركيز هذا التنظيم على نشر عضويته فى كل من مصر والهند ، إذ فيهما كانت تتمثل قوى الاحتلال الإنجليزى فى ذلك الحين ... وعن خطر هذا الاحتلال يتحدث الأفغانى فيقول: إنه « لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضر !! .. » كما يجعل فى مقدمة أهداف التنظيم «إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها . ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية » ... وفى سبيل ذلك تدعو (العروة الوثقى) إلى الموقف الثورى فى مناهضة الاستعمار ، وتكشف مواقع الخيانة والخونة فى كل مكان ،

وترى أن الخائن ليس فقط « من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو ... بل خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن ، وهو قادر على زلزلتها ... »؟! ... وهى تتوجه بهذه المهام والواجبات إلى جماهير الشعب العريضة وقواه العاملة والمنتجة ، لا إلى المفكرين والمثقفين فقط ، فتتحدث (العروة الوثقى) عن «أن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم ... » كما تتوجه بالإثارة إلى جماهير الشعب المصرى كى يقاوم الغزاة فتقول : إنه « على المصريين عموما ، والفلاحين خصوصا أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة (الإنجليزية) كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد ، قائلين : لا نطيع إلا حاكما وطنيّاً ... فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارا ، بل ومن الجنس الإنجليزى نفسه .. » ..

وإذا كان هذا هو جوهر الموقف السياسى الثورى الذى اتخذه هذا التنظيم فى مواجهة الاستعمار ، وهو الموقف الذى ارتبطت به وسعت لخدمته سائر مواقفه الأخرى ... فإن الحياة السرية لهذا التنظيم قد حفلت بالعديد من الخصائص والقسمات ، وبألوان من النشاط والخبرات التنظيمية التى لم يكشف عنها الستار حتى الآن ، والتى لم تحظ بما تستحق من الدراسة والتقييم ... وهى خبرات فى التنظيم السرى والنشاط السياسى السرى ندهش لها عندما ندرسها فى ضوء عصرها وظروفها ، وتكشف لنا عن عبقرية هذا الشعب وهذه الأمة ، وعن ميراثنا الحضارى والتراث الثورى الذى صنعه هذا الشعب على مر العصور التى قاوم فيها مختلف ألوان القهر والعديد من الغزاة الفاتحين ..

التيـــار الإصـلاحـــى
والثورة العرابية

عندمـا نفى جـمـال الـدين الأفـغـانى من مـصـر فى سـبـتـمـبـر سنة ١٨٧٩ م تبلورت فى صفوف تلاميذه و(الحزب الوطنى الحر) الذى كونه بمصر حينئذ اتجاهات ثلاثة :

* الاتجـاه الثورى الذى تمثل فى الضبـاط المصريين (الفلاحين) بالجيش المصـرى الواقع تحت سـيطرة الضـبـاط الشـراكـسـة .. وهو اتجـاه يـؤمن بدور العسكريين فى العمل السياسى ، ويرى ضـرورة الاسـتـفـادة من السـلاح الذى بأيديهم ، ويضع لهذا السلاح أهمية كبرى فى حسم المعارك ضد أعداء البلاد من الأجـانب والمحليين .. ويقـود هذا الاتجـاه : أحـمـد عـرابى ، وعـبـد العال حلمى، وعلى فهمى ، وغيرهم من الضباط .

* الاتجـاه الثـورى الذى يؤمن بـالشـعـب وقـواه وطبـقـاتـه الكادحـة إلى أبعـد الحدود ، والذى ورث عن الأفغانى خاصية الإيمان بقدرات « العامة والجماهير» وأضـاف إلى فكر الأفـغـانى إضـافـات خـلاقـة تمثلت فى الحـذر واليـقظة من أن يجنى الأغنياء العمل الثورى الذى ينهض بعبئه وتـضحياته الفقراء . ولقد قاد هذا التيـار واحـد من أبر أبنـاء مـصـر بهـا ، وأكثـرهـم التـصـاقا بشـعـبـهـا وترابهـا وتراثهـا ، وأجدرهم بأن يكون تجسيدا مكثفا لشخصيتهـا ، وهو عبـد الله النديم ، ومن خلفه كثيرون لم يحفل التـاريخ الرسمى بتـدوين أسمائهم ، ربمـا لأنـهم من «العامة والجماهير» ، وربما لأنهم أكبر من صفحات هذا التاريخ؟!.

* أما الاتجاه الثالث الذى بقى من تلامذة الأفغانى ورجال حزبه الوطنى الحر فهو ذلك الذى تزعمه وعبر عنه الشيخ محمد عبده ، والذى تبلورت آراؤه فى مقالات (الوقائع المصرية) التى كتبت تحت عنوان (قسم غير رسمى) حتى يكون معروفا أنها لا تعبر عن رأى الحكومة ، بالرغم من نشرها فى صحيفتها الرسمية . ولم يكن هذا الاتجاه « ثوريا » بل كان « إصلاحيا » ، ولم يكن مؤمنا « بالثورة » وإنما كان يرى فى « التربية والتعليم والاستنارة الفكرية » السبيل لبلوغ هذه الغاية.. لقد كان تيارا« وطنيا » يقف ضد النفوذ الأجنبى ، وهو فى نفس الوقت لا يؤمن « بالجماهير والعامة » ، وإنما يعلق الآمال على «الفئة المثقفة المستنيرة » ، ويراهن على الطبقة الوسطى النشطة الطموح التى تريد كسب مواقع الأجنبى فى البلاد لحسابها ، والتسلح بالعلم لخدمة التقدم وتطوير البلاد .. وكان هذا الاتجاه فى مجموعه ، يعادى الطبقة الإقطاعية ؛ لأن أغلبها شراكسة أجانب عن ضمير الأمة وحياتها ، ولأنهم عموما، حتى المصريين منهم ، أسرى للخرافة والتقاليد البالية ، فرائس للكسل والبطالة والخمول... كما كان هذا الاتجاه قليل الثقة جدا فى «جماهير الشعب وعامته » بل يراهم كما مهملا لايفيد فى التقدم ولا يعوق هذا التقدم .

ولقد ضم هذا الاتجاه الإصلاحى- غير الشيخ محمد عبده - كثيرين : سلطان باشا ، وسليمان أباظة ، وحسن الشريعى ، وحسن موسى العقاد ، وسعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ سيد وفا ، والشيخ محمد خليل ... الخ وتبلورت أفكارهذا الاتجاه فى كتابات الشيخ محمد عبده كأحسن ما يكون التبلور ، وتجسدت فى أفكاره أفكار هذا الاتجاه فى الإصلاح . ومن ثم كانت دراسة فكره وموقفه من الثورة العرابية دراسة للموقف الفكرى والعملى الذى اتخذه التيار « الإصلاحى » من « الثورة » فى ذلك التاريخ ..

ولقد كان التيار الثورى فى الجيش (الحزب الجهادى) هو الذى بدأ فى اتخاذ المواقف العملية التى قادت إلى اندلاع الثورة وتفجرها بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م ، ففى أبريل من نفس العام كانت حركة هذا (الحزب الجهادى) قد تعدت نطاق الجيش ، ومطالب الضباط الفلاحين (المصريين) ، وآمن قادة هذا الحزب أن تحقيق مطالب الأمة وأهدافها فى الحكم الدستورى النيابى والتصدى للنفوذ الأجنبى الضمان الأكيد والوحيد لانتصار الضباط المصريين على قياداتهم الشركسية المؤيدة من الخديو توفيق ، ومن ثم آمن هذا الحزب بأن وضع الضباط المصريين فى الجيش لابد وأن يكون وضع وكلاء الأمة المفوضين منها لتحقيق مطالبها العامة ، بما فيها مطالب الجيش ، وأنهم بذلك بمثابة القوة الضاربة بيد الجماهير .. ولقد تحققت هذه المهمة الجوهرية والهامة بفضل التحام تيار « النديم » بتيار « عرابى » ، وتلك التوقيعات والتفويضات التى جمعها النديم من أنحاء مصر لعرابى ، كوكيل عن الأمة يتحدث باسمها ، ويطلب لها المطالب ، ويتصدى - وهى من خلفه - لكل الأعداء ..

ومنذ هذا التاريخ ، وتلك التحركات الثورية ، برز تميز الاتجاه «الإصلاحى» عن الاتجاه « الثورى » ، ودعا محمد عبده إلى التدرج فى الإصلاح بدلا من الحسم والطفرة بالثورة ، وإلى سلوك طريق التربية البطىء بدلا من طريق الثورة السريع ، وإلى الثقافة والاستنارة لتكوين « الرأى العام » الذى يستحق الحياة السياسية والحقوق السياسية قبل المطالبة بالدستور ومجلس النواب ، وتقييد الحكومة بهما ، وأخذ يتهم التيار الثورى بأنه يقلد أوربا وأمريكا ، وينقل

عن الآخرين دون مراعاة للفروق بين الشعب عندنا والشعوب المستنيرة فى بلاد الأوروبيين والأمريكيين .

ولقد كان محمد عبده يعتبر دعاة الحياة الدستورية النيابية « عقلاء » ، ولكنهم فى نظره عقلاء « مخطئون » ؟! فكتب فى أبريل سنة ١٨٨١ م سلسلة من المقالات تحت عنوان (خطأ العقلاء) دافع فيها عن وجهة النظر «الإصلاحية » ، وانتقد الآراء التى كان يدعو لها التيار « الثورى » فى الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين .. فهو يعارض التغيير الثورى لنمط حياة الأمة ، ويطلب « أن تحفظ لها عوائدها المقررة فى عقول أفرادها » .. فقط يطلب « بعض تحسينات » فيها لا تبعد عنها با لمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ماهو أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى ، من حيث لا يشعرون » .. فهو هنا يحدد أن التيار الإصلاحى ليس ضد التغيير ، ولكنه ضد الثورة كطريق لهذا التغيير ، ومع « التدرج » كسبيل لبلوغ هذه الغايات ..

ثم يتحدث ـ فى معرض التمثيل ـ عن حسنات النظام الجمهورى فى أمريكا ولكنه يقول : إن التفكير فى الاستفادة من حسنات هذا النظام فى بلاد مثل «أفغانستان » مثلا هو ضرب من الخطأ ؛ لأن مثل هذه البلاد تحتاج إلى سلوك طريق التربية والتعليم ، أولا ، ولا بد لها « من قرون حتى ينشأ فيها ما يسمى بالرأى العمومى ، فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا » .. وهو يعمم هذه القاعدة لتشمل مصر وما يشابهها من البلاد « التى تعودت أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير ، يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل فى رؤية مصالحها، فلا « يمكن أن يطلب منها الدخول فى أعمالها العامة وإلا فسدت » ؟!

ثم يلخص نظريته التى يدعو إليها عندما يقول : إن « من يريد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه ... بدون إتعاب فكر ولا إجهاد نفس » (١) .

وفى مقال آخر جعل عنوانه (اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم) عاد ليحذر من أن « من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه » ؟! وأن «عقلاء الناس يجتهدون أولا فى تغيير الملكات وتبديل الأخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ما سواها ؛ ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية . »(٢) .

ويستمر هذا التيار الإصلاحى على موقفه هذا من « الثورة » ، ويتزايد نشاط الشيخ محمد عبده فى التعبير عن هذا الموقف الفكرى ، ويبلور الرجل أكثر فأكثر نظرته لهذه القضية فى تلك المناقشة الحامية التى دارت بينه وبين عرابى ، عندما جمعتهما الصدفة فى منزل طلبة باشا ، أحد قادة الضباط العرابيين ، قبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام ، فيقول محمد عبده لعرابى : إن البلاد لم تتهيأ بعد لنيل الدستور ومجلس النواب ، وإن الواجب أن نبدأ بالتربية والتعليم ، وأن نقيم مجالس المديريات والمحافظات كمرحلة يتدرب فيها الناس على ما يأتيهم مستقبلا من مؤسسات نيابية قومية ... يقول : « إن أول ما يبدأ به : التربية والتعليم ، لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ١٠٧٩ مقال « خطأ العقلاء » فى ٤ أبريل سنة ١٨٨١م .
(٢) الوقائع المصرية : عدد ١١٤٢ مقال « اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم » فى يونيو ١٨٨١م .

بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح ، ومنه تعويدها الأهالى على البحث فى المصالح العامة ، واستشارتها إياهم فى الأمر بمجالس خاصة تنشأ فى المديريات والمحافظات وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد .. إن المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية ، وتقييد سلطتها ، وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية ، إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأى عام »(١) .

وإنصافا للرجل وللحقيقة ، فإن نفوره من الأسلوب العسكرى فى العمل السياسى ، ومعارضته لتولى الجيش زمام الأمور ، كان من بين العوامل التى جعلته يعارض مسعى الضباط و(الحزب الجهادى) ؛ لأن طبيعة تكوين الرجل النظامية العقلانية قد جعلته شديد النفور من سلوك هذا السبيل ، فهو يقول لعرابى فى هذا اللقاء : « إنه لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ، فلو تم للجند ما يسعى إليه ، ونالت البلاد مجلس شورى ، لكان بناء على أساس غير شرعى، فلا يلبث أن ينهدم ويزول»(٢) .

وهكذا ظل طوال تسعة أشهر من عمل الحركة الثورية ، والمخاض الثورى « إصلاحيا » يعبر عن التيار الإصلاحى ، ويعارض « الثورة » كأسلوب للتغيير

---

(١) محمد رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام » ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٣١م .

(٢) المصدر السابق . نفس الصفحات .

ويختلف مع الثوار حول أهلية مصر ـ فى ذلك التاريخ ـ لأن تنال حكومة قانونية مقيدة بالدستور ومجلس النواب .. وساهم فى وقوفه هذا الموقف عجز تياره الفكرى والعملى عن أن يبصر ما خلف الأفق الإصلاحى المحدود الذى عاش فيه ، والذى كان لا يرى سوى قضايا الإصلاح التربوى .. وأيضا عزلته عن الحياة الثورية التى كانت تحياها مصر يومئذ ، بما فيها من دفء الثورة وحرارة الحركة التى يصنعها الثوار .

الانحياز للثورة :

وعندما تفجرت أحداث الثورة العرابية بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة١٨٨١ م حدثت تحولات هامة فى الموقف الفكرى والعملى لهذا التيار الإصلاحى ، الذى يعبر عنه الشيخ محمد عبده ، من السياسة ، وبالذات من الموقف إزاء طلب الدستور والحياة النيابية للبلاد ، بل وإزاء دور الجيش المصرى فى العمل السياسى فى ذلك التاريخ ..

* فلم يعد باستطاعته التحدث عن « خطأ العقلاء » فى طلب مجلس النواب؛ لأن هذه المظاهرة قد أجبرت الخديو توفيق على التسليم للأمة بمجلس نيابى ينهض بما تنهض به مجالس النواب فى غير مصر من البلاد .

* ولم يعد مصطفى رياض باشا ـ وهو نموذج مصغر للمستبد المصلح عند محمد عبده ـ هو الذى يحكم البلاد ، فلقد استجاب الخديو لمطلب عرابى بإقالته هو ومجلس نظاره ، وخلفه شريف باشا ، صاحب الآراء الثورية ونصير الحكم بالدستور .

وعندما يكتب محمد عبده ـ فى أخريات حياته ـ عن هذا الحدث الذى تغير بعده موقف التيار الإصلاحى من الثورة العرابية ، يشير بشكل غير مباشر ،

إلى الأسباب التى جعلته يغير موقفه هذا فيقول : « أما عن مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م فإنى أقول : إن سبعة الأشهر التى كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسى الذى شمل جميع الطبقات .. فقد صار عرابى محبوبا عند الأمة ، واتصل بالحزب الوطنى . وعرف سلطان باشا ، وسليمان أباظة ، وحسن الشريعى ، وعرفنى أنا أيضا »(١) . وقبل ذلك « لم تكن الثورة من رأيى .. ولكن لما منح الدستور انضممناجميعاً إلى الثورة لكى نحمى الدستور ..»(٢) .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الرجل وتياره يخطو خطوات وئيدة ولكنها ثابتة ، نحو مواقع « الثورة » ومنطلقات « الثوار » ، ففى ديسمبر من نفس العام دافع عن دور الجيش و« رجال العسكرية » فى العمل الوطنى والسياسى ، وكتب فى المادة الرابعة من برنامج (الحزب الوطنى الحر) - الذى صاغه هو - هذا النص الهام الذى يقول : « ويرى هذا الحزب أن مجلس النواب ربما أكره على الصمت ، كما حصل لمجلس الآستانة .. فيتكدر صفو الراحة ، ويحرم الأبناء من التعليم ، ولهذا فوض الأهالى أمرهم إلى أمراء الجهادية ، وطلبوا منهم أن يصمموا على طلبهم ؛ لعلمهم أن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد ، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو . وليس فى عزمهم إبقاء الحال على ما هو عليه ، بل متى حصلت الأمة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فإن أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد أن فتح المجلس ، فهم الآن بصفة حراس على الأمة التى لا سلاح لها » .

---

(١) التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر « لبلنت » ص ٦٢٩ طبعة القاهرة الثانية .

(٢) المصدر السابق ص ٦٤٧ .

كما يكتب فى هذه المادة من هذا البرنامج مايفيد تقديمه لعوامل « الحياة الشورية النيابية » و « حرية المطبوعات » على عوامل « تعميم التعليم ونمو المعارف » فى عملية النهضة والتقدم والإصلاح (١) .. فهو الذى طالما علق الحرية السياسية والحياة النيابية والدستورية على « التهذيب » وعموم المعارف والتعليم ، يذكر للمرة الأولى فى تاريخه الفكرى أن « التهذيب » سيكون «بوساطة » مجلس شورى النواب وحرية المطبوعات وليس العكس .. فنحن هنا إزاء تطور فكرى على جانب كبير من الأهمية فى نظرية هذا التيار الذى قاده الأستاذ الإمام .

وفى شهر يناير سنة ١٨٨٢ م تطورت الأحداث الوطنية والسياسية على نحو زاد من اقتراب الشيخ محمد عبده وتياره الإصلاحى من مواقع الثورة والثوار ، فلقد اتفقت حكومة « غامبتا » الفرنسية مع حكومة « غلادستون » الإنجليزية على أن حصول مصر على الحياة النيابية والدستورية هو بمثابة انعتاق لهذه البلاد من طوق التخلف ، ومن ثم ضعف الأمل فى إيقاعها فى قبضة الاستعمار الأوربى الزاحف على بلاد الشرق ، وأن التدخل ضد النظام الثورى فى مصر هو أمر لابد منه ، وأن باب حماية العرش الخديوى هو المدخل إلى هذا التدخل الاستعمارى ... وفى ٨ يناير سنة ١٨٨٢ م جاءت المذكرة الثنائية (الإنجليزية ـ الفرنسية) إلى مصر تتحدث عن عزم الحكومتين على حماية عرش الخديو توفيق ؟! وعدت هذه المذكرة بمثابة إعلان للحرب على الحركة الوطنية المصرية ، ووجد الشيخ محمد عبده وتياره أن وطنهم فى خطر ، فأذاب هذا الخطر الجديد بعضا من تحفظاتهم إزاء النظام الجديد . وكما يقول

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩٥ ـ ٧٩٧ .

«بلنت » : « .. هنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة .. ليس فيما يتعلق بالحزب الوطنى وحده ، بل فيما يتعلق بجميع الأحزاب والطبقات ، وانضم الشيخ محمد عبده والأزهريون المعتدلون إلى الحزب المتطرف بكل قوتهم »(١) .

وبذلك التحمت من جديد ـ أمام هذا الخطر الأجنبى ـ تلك الأجنحة الثلاثة التى خرجت من تحت عباءة جمال الدين الأفغانى وحزيه الوطنى الحر . جناح عرابى ، وجناح النديم ، وجناح محمد عبده .. وعاد الحزب الوطنى الحر : من جديد حزب « الثورة » ، عندما تمت لصفوفه هذه الوحدة ، والتقى الجناح الإصلاحى بأولئك الذين سلكوا طريق الثورة منذ بداية الطريق ..

معتدلون فى صفوف الثورة :

ورغم هذه الوحدة الوطنية التى تمت لصفوف الثوار منذ مظاهرة عابدين ، والتى زادت درجتها منذ برزت نوايا التدخل الاستعمارى فى شئون البلاد ، إلا أن التيار الإصلاحى الذى كان يقوده الشيخ محمد عبده ، قد ظلت له بعض القسمات المميزة ، حتى بعد انضمامه لصفوف الثورة والثوار، فنحن نستطيع أن نميز فى هذه الفترة مجموعتين من الظواهر والوقائع والأحداث والآراء تكونان خطين متوازيين فى حياة هذا التيار ، كما عبر عنها الشيخ محمد عبده :

المجموعة الأولى : تتمثل فى المواقف والآراء التى تدل على أن الرجل وإن اقترب من مواقع الثورة والثوار، وساهم فى صنع أحداثها فى تلك الفترة ، إلا أنه ظل يمثل الاتجاه الأقرب إلى « الإصلاح » فى صفوف « الثوار » .. وإذا جاز التعبير قلنا : إنه يمثل الجناح المعتدل فى صفوف الثورة العرابية .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٠ .

١ ـ فعندما يجتمع مجلس شورى النواب فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لمناقشة مواد الدستور الجديد تظهر فى صفوف النواب الاتجاهات الثورية ، وكان أصحابها قلة من حيث العدد ، بينما يقف فى الجانب « المعتدل » أكثر النواب ، ويتحدث « بلنت » عن هذه الأغلبية المعتدلة فيقول : « إن أغلبيتهم بدت ، كأصدقائى الأزهريين ، ميالة للاعتدال ، ويذكر أن الشيخ محمد عبده كان زعيما لهذا الاعتدال ، وأنه قال يومئذ : « لقد لبثنا عدة قرون فى انتظار حريتنا، فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر »(١) .

٢ ـ وعندما أصر الاتجاه الثورى فى الحركة الوطنية على حق مجلس النواب فى مناقشة ميزانية الدولة وإقرارها ، وعارضت ذلك الدول الأوربية صاحبة الديون على مصر ، والمراقبون الماليون الذين يمثلونها فى القاهرة ، وقف الاتجاه المعتدل إلى جانب استثناء الميزانية من المناقشة فى المجلس ، ونشط محمد عبده على رأس هذا الاتجاه ، فجمع أعيان البلاد الأعضاء بمجلس شورى النواب فى ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ كى يناقشهم فى هذا الأمر مع أصدقائه « بلنت » و « لويس صابونجى » ولقد نجحوا فى إقناع النواب بتعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الماليين السياسيين .. ولكن النواب أصروا على ضرورة مناقشة المجلس لميزانية البلاد (٢) .

٣ ـ وعندما يمتدح الشيخ محمد عبده وزارة شريف باشا ، التى خلفت وزارة رياض باشا ، وسبقت وزارة البارودى ، يصف رئيس النظار وزملاءه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

بأنهم يعملون « فى تمهيد سبيلنا وبإزالة العقبات منه ، متوسلين إلى ذلك بالحكمة والاعتدال آخذين بأسباب التؤدة ومراعاة الأحوال »[1] .

ثم يخطب فى حفل أقامه النواب بمناسبة التصديق على لائحة مجلسهم ، فيتحدث عن « إن الفضيلة وإن تفرعت أصنافها إلا أنها ترجع إلى أمر كلى وهوالاعتدال فى السير الإنسانى »[2] .

٤ ـ وهو عندما يقيم هذه المرحلة الجديدة التى دخلتها مصر فى تاريخها الحديث ببدء الثورة العرابية ، يحدد أن البلاد لا تزال فى أول مراحل الطريق ، طريق السياسة والحرية ، والاعتدال عنده هنا لا يعنى التوقف عند هذه المرحلة الابتدائية ، بل بالعكس يعنى ضرورة التقدم . ولكن مع المرور بسائر الدرجات ، أى الاستمرارية فى التطور ، دون طفرة قد يحبذها « الثوار » فيكتب فى هذا المعنى مخاطبا المواطن المصرى فيقول : « فأنت أيها الوطنى فى أول درجة من مرقاة السياسة ، وفى أول مرحلة من طريق الحرية ، فلن تبلغ الدرجة العليا إلا إذا صعدت سائر الدرج ولن تدرك الغاية القصوى مالم تقطع سائر المراحل، فإن حاولت غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة التى بلغت ، والرجوع من المرحلة التى وصلت ، بل ربما صرت على مسافة أعوام مما كنت ترجو إدراكه بأيام »[3] .

٥ ـ وعندما تشيع فى صفوف الثورة والثوار أفكار عن إعلان الجمهورية فى مصر ، كرد فعل لانحياز الخديو توفيق إلى صفوف الأعداء . ويسجل البارودى

---

(١) الوقائع المصرية مقال « الحياة السياسية » فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) المصدر السابق مقال « مقابلة الشكر بالشكر » فى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢م .

(٣) المصدر السابق مقال « الحياة السياسية » فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨١م .

واقعة وجود هذه الأفكار بقوله : « لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية ، مثل سويسرا ، عندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت »(١) عندما يتبنى التيار الثورى فى الحركة الوطنية مثل هذه الأفكار ، يعترف الشيخ محمد عبده بأنه قد وقف ضد هذه الأفكار ؛ لأن الجهل لم يكن يمكن البلاد يومئذ من الرقى إلى النظام الجمهورى(٢) .

٦ ـ وعندما تشتد أزمة الثورة بسبب التهديد البريطانى المسلح ، والمتمثل فى الأسطول الذى دخل مياه الإسكندرية فى يونيو سنة ١٨٨٢ م يبحث الناس عن حل سلمى للأزمة ، وعن رسول معتدل يذهب إلى لندن لعرض القضية على المسئولين هناك ، فتميل الآراء إلى أن يكون هذا الرسول هو الشيخ محمد عبده ، ويكتب « بلنت » كيف أنه اجتمع فى ١٩ يونيو سنة ١٨٨٢ م مع محمد عبده ونديم والبارودى وتحدثوا فى الوسائل السلمية لعبور الأزمة « فقال عبده إنه أجمع رأيه على أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التى لديه أو التى يستطيع حيازتها ويذهب بها إلى إنجلترا ؛ لكى يعرضها بنفسه على المستر غلادستون والبرلمان الإنجليزى، وسيأخذ معه أحد وجهاء التجار وأحد الأحرار (أى أعضاء الحزب الوطنى الحر) ممن ينوبون عن الفلاحين ، فوافق محمود سامى على هذا الرأى ، وقال: إنه هو أيضا يود أن يذهب إلى أوربا لهذه

---

(١) التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ، ص ٤٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣٧ .

الغاية»[1] وبالطبع ما كان لأحد أن يفكر فى إرسال النديم أو عرابى أو محمد عبيد ـ مثلا ـ لمثل هذه المهمة فإن اعتدال الشيخ محمد عبده كان أهم عامل يرشحه لمثل هذه السفارة إلى لندن فى ذلك التاريخ . بل إن « بلنت » أرسل إلى « لويس صابونجى » برقية من « لندن » فى ٥ يوليو سنة ١٨٨٢ يقول له فيها : « يجب ألا تعاكسوا الأسطول ، أرسلوا عبده إلى غلادستون »[2] .

ولقد كانت هذه الآراء والمواقف المعتدلة التى اتخذها الشيخ محمد عبده ـ وهو فى موقع الثورة وبين الثوار ـ امتداداً طبيعيا لفكره السابق ، ونهج التيار الفكرى والسياسى الذى ارتبط به ومثله ، فى الفترة التى سبقت الانضمام إلى العرابيين ، كما كانت انسجاما طبيعيا مع تكوينه العقلانى والنظرى (التأملى) ومزاجه الميال إلى الاعتدال ، وتعبيرا عن مواقف القوى الاجتماعية التى وقفت من قضية التقدم والتحرر موقفا متميزا عن موقف « العامة والجماهير » .

والمجموعة الثانية : من الظواهر والوقائع والأحداث والآراء التى عايشت ظاهرة « الاعتدال » هذه فى تلك الفترة التى انضم فيها تيار محمد عبده إلى الثورة العرابية ، وزاملت ظاهرة الاعتدال هذه ، وكونت معها تلك الازدواجية التى ميزت موقف الرجل وتياره ، هى تلك التحولات الفكرية التى اقتربت به من مواقع الثوار الفكرية ومواقفهم العملية ، بعد أن كان يقف بعيدا عن هذه المواقع يناهض ما لأصحابها من أفكار . ونحن عندما نقرأ كتاباته السياسية فى هذه الفترة من حياته نشعر بأنه يهاجم آراءه هو نفسه التى قالها قبل انضمامه للعرابيين ، ولعله كان يناقش يومئذ أولئك الذين ظلوا على

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٠ .

موقفه الفكرى القديم ، واحتفظوا بالزعم القائل إن مصر ليس لها « رأى عام » تستحق به أن تنال الدستور والحياة النيابية والحكومة القانونية المقيدة بهذه القيود .

١ ـ فبعد أن كان ينكر أن فى مصر « رأيا عاما » يجعلها أهلا للحكم الدستورى النيابى عدل عن هذا الموقف ، وكتب يقول : إن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا طريق الشورى ، وسن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على الوجه الملائم ، يتبادلون فيه الأفكار الحرة ، والآراء الصائبة ، فلهذا جمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى . وصدرت الأوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ما قضت به نواميس الحرية ، وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الأمر ، واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل ..(١) .

٢ ـ وعندما تتعرض التجربة المصرية الوليدة فى الحكم الدستورى الشورى النيابى لهجمات الخصوم وانتقاداتهم ، ويطلقون ضدها نفس الحجج التى أطلقها من قبل الشيخ محمد عبده قبل انضمامه للثورة يتصدى الشيخ محمد عبده لهؤلاء الخصوم ويسوق ضد حججهم نفس الأدلة التى قدمها العرابيون منذ البداية فيقول : « إن بلادنا المصرية ، بلا ريب ، لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى ونالت منافعها وعادت عليها فوائدها .. إن أبناء قطرنا المصرى قد انتقلت أفكارهم من مركز الرقدة إلى مجال الجولان فى

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٩٠ مقال « الشورى والقانون » فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١م .

المنافع والمضار ، ووجوب السعى لطلب الأولى من طرقها ، ولزوم الاجتهاد فى دفع الثانية » .

وبعد أن يتحدث عن « الخواص » الذين حصلوا طرفا من المعارف والعلوم يتقدم خطوة هامة جدا ليقول لنا إن التطور الثورى قد شمل « العامة والجماهير» ولم يعد وقفا على الخاصة من المثقفين ، فيقول : « ولا نخص ذلك بالخواص ، فإن العامة - وهم أهل الأعمال البدنية المستغرقة لبياض النهار وسواد الليل - قد انتقلوا عما كانوا فيه من قبل بكثير ، وإن كان الانتقال فى كل من الفريقين - (الخواص - والعوام) - على درجته اللائقة به ، المناسبة لما اكتسبه من المعارف أو التجربة أو تأثير الحوادث أو غير ذلك من أسباب الانتقال من حال إلى أعلى منه فى الوجود »(١) .

ونحن نلحظ فى هذه العبارة الأخيرة تطورا هاما فى تفكير الرجل ، فلم تعد المعارف والعلوم هى السبيل الوحيد لانتقال الإنسان من حال إلى حال أعلى فى الوجود ، وإنما هو قد أضاف إلى هذا العامل عوامل أخرى منها « التجربة » و «تأثير الحوادث » وغيرهما .. وهى العوامل التى أتت بها الثورة العرابية ، فخلقت روحا جديدا فى حياة الناس انتقل بهم إلى طور جديد من أطوار الحياة ..

٣ - وفى مقالاته عن (الحياة السياسية) يحدد أن الذين يستحقون أن تكون لهم الحقوق فى التمتع بالحريات العامة : حرية الرأى وحرية القول ، وحرية الانتخاب ، هم الذين حصلوا القدرة على امتلاك « الأدب السياسى » الذى لا بد

---

(١) المصدر السابق . مقال « فى الشورى » ١٣ ديسمبر ١٨٨١م .

فى تحصيله « من الطلب والاجتهاد ، وحسن الاقتداء ، ودقة النظر والتبصر فى أحوال الناس من قبل وفى الحال » (١) ولكنه ينتهز هذه الفرصة لينفى ما قد يتبادر إلى الأذهان من أن هذا « الأدب السياسى » هو وقف على « خاصة » الأمة ، وفئاتها المستنيرة فيقول : « على أن الأدب السياسى وإن لم يتيسرعمومه فى الأمة ، إلا أنه قد يحصل لأفراد كثيرة منهم ، على مقادير مختلفة ، فيمكن لمجموعهم أن يسيروا فى سبيله آمنين مهتدين اقتداء وتقليدا ، ويندرجوا به فى مراتب الحياة السياسية حتى يتوالى التكرار ويطول الاستمرار فيصير فيهم من الملكات الذوقية التى تُعْرَفُ كما كان العرب فى الجاهلية بالنظر إلى اللغة ينطقون بالكلام المركب بالوضع ولا يعرفون له من قاعدة غير الذوق »(٢) فهو هنا يثبت إمكانية تحصيل « العامة » للأدب السياسى ، ومن ثم استحقاقهم التمتع بحقوقهم فى حرية الرأى والقول والانتخاب .. وذلك دون أن يكونوا مثقفين قد تحصلت لهم وتوفرت لديهم المعارف والعلوم .

٤ - وهو يحدد لنا طبيعة المرحلة التى أوصلت الثورة الشعب إليها وقادته إلى رحابها ، ويسميها مرحلة « الوطنية » التى برزت فيها عاطفة التعلق بالوطن ، وظهرت فيها ملامح القومية وقسماتها ، ويحدد العوامل المادية والمعنوية التى جعلت جامعة الوطن رباطا يجمع أبناءه بصرف النظر عن العقيدة والأصل العرقى والدين ، فيقول : « إن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة ، تشبه أن تكون حدودا (أى تعريفات) :

الأول : أنه السكن الذى فيه الغذاء ، والوفاء ، والأهل والولد .

---

(١) المصدر السابق مقال « الحياة السياسية » فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨١م .

(٢) المصدر السابق مقال « الحياة السياسية » فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨١م .

الثانى : أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار حياة السياسة (وهما حسيان) .

والثالث : أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز ، أو يسفل ويذل (وهو معنوى محض) فإذا تقرر ذلك .. وجب على المصرى حب الوطن من كل الوجوه » .

ثم يمضى ليشن هجومه على أولئك الذين يزعمون أن مصر لم تبلغ طور «الوطنية » ولم توجد بها هذه العاطفة بعد - وكانوا يريدون إرجاع تبعيتها للعثمانيين - فيقول : « ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر ، وإلباسهم جميعا لباس الجهالة والذل . ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجودا وطنيا ، ورأيا عموميا ، ولو كره المبطلون »[1] .

٥ - ويتصدى لأولئك الخصوم الذين يحتجون بماضى هذا الشعب الذى عاش فيه أسير أنظمة الاستبداد والاسترقاق ، يحتجون بهذا الماضى على عدم أهليته للتحرر والديمقراطية . فيقول: إن هناك « فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول ، من مثل : إننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأى ، ولن نهتدى سبيل الحرية ، كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصارا . وكانوا فى قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وإن العالم بأسره كا ن فريقين: أحرارا يظلمون ، وعبيدا يطيعون » ثم يشير إلى فضل الثورة الفرنسية

---

(١) المصدر السابق مقال « الحياة السياسية » فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١م .

فى تحرير أوربا وإلى الآمال المعلقة على أن تحرر الثورة العرابية شعبنا من رقه . فيقول : « ولئن كان من فضل هذه المائة (القرن التاسع عشر) أن يكتب فى صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا ـ وحقق الله هذا الرجاء ـ أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء فى هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاما »[1] .

٦ ـ وبعد إجراء انتخابات مجلس شورى النواب اتخذ خصوم الثورة من دخول بعض الجهلة وقليلى الكفاءة إلى المجلس حجة للطعن فى هذه التجربة ، وقالوا : إن مصر ليست أهلاً لهذه المؤسسات ، وأن هذا المجلس بدع بين المجالس النيابية فى العالم ، فتصدى الشيخ محمد عبده لمناقشة هذه الآراء وتفنيدها ، وقال إن هذا هو حال كل المجالس النيابية فى كل البلاد لا يمكن أن تخلو من مثل هذه العناصر ، والعبرة بوجود العناصر التى يحقق وجودها الغاية من وراء قيام هذا النظام ، وعندنا « لا يخلو المنتخبون من أن يكون غالبهم من أهل الدراية والمعرفة وأرباب النظر والفكر ، الذين يعرفون ما هى الشورى ، وما هو المقصود منها وما هى المنفعة للبلاد ، وما هو الطريق الموصل إليها . وقد وقع الانتخاب على كثير منهم فى هذه المرة لمجلس النواب ، ولا نشك فى أن هذا العدد فيه الكفاية التامة لتحقيق منفعة الشورى المقصودة منها فى بلادنا المصرية ؛ فإن أى قطر لا يكون المجموع فيه للمشورة إلا على هذا المثال ، ولن يضرنا أن يكون القليل ليسوا كالكثيرين فى هذه الصفات ، كما لم يضر فى أحد الممالك المتمدنة وجود مستشاريها على هذا المنوال ، بمعنى أن غالبهم

---

(١) المصدر السابق مقال « الحياة السياسية » فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١م .

كالغالب عندنا ، والقليل منهم كالقليل منا ، ومع ذلك نالوا ثمرات الشورى ، فالقول إذن بأنهم هم ينالونها ونحن نحرم منها ـ مع تساوى الأمر بيننا وبينهم ـ مما لا يصلح فى الأذهان ولا تقوم عليه حجة ولا يؤيده برهان »[1].

٧ ـ ولم يقف الشيخ محمد عبده عند حد الدفاع عن هذه التجربة الثورية ، والتصدى للذين يجتهدون للنيل منها والتسفيه لمؤسساتها ، وإنما اجتهد فى الإدلاء بآرائه البناءة التى تعكس المواقف الفكرية للتيار الذى قاده وعبر عنه فى صفوف الثورة العرابية ، وقدم هذه الآراء كى يتضمنها الدستور الذى كانت مواده موضع مناقشة فى مجلس شورى النواب . وفى احتفال أقامته جمعية (المقاصد) بمناسبة التصديق على لائحة مجلس النواب ، دعاه عبد الله النديم إلى الخطابة . فألقى الرجل كلمة ضافية ـ فى وجود البارودى وعرابى وغيرهما من النظار والضباط ـ حدد فيها المبادىء الأساسية التى يجب أن يتضمنها قانون البلاد الأساسى (الدستور) وذلك مثل :

أ ـ التأكيد على أن حكومة هذه البلاد هى حكومة قانونية ، أى مقيدة بالدستور والقوانين .

ب ـ النص على دور مجلس شورى النواب فى مساعدة الحكومة فى حكم البلاد .

ج ـ النص على السعى لتعميم المعارف والعلوم فى البلاد ، وذلك لتربية الأعداد اللازمة لتولى مسئولية النيابة عن جماهير الناس .

د ـ النص على وجوب تحسين التربية التى تكسب الفضيلة والشرف ، وذلك

---

(١) المصدر السابق مقال « فى الشورى » فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨١م .

حتى تصير المصلحة العامة أهم من المصلحة الخاصة عند من يتصدون للمصلحة العامة ، وحتى لا يلتمس أحدهم « منفعته إلا من طريق منفعة العموم » .

هـ - النص على ضرورة ووجوب إطلاق الحريات العامة « حرية المجامع (الاجتماعات) ، والمطابع ، والأفكار ، والأعمال ، والأقوال .. على شريطة أن يكون هذا الإطلاق تحت قانون عدل يرسم الحدود ، ويبين الواجبات على تفصيل يرفع الإبهام وتبيين يزيل الالتباس » .

و - النص على إيجاد الحوافز « وتقرير أمر المكافأة لمن أتى بعمل غريب وجاء بصنع بديع ، حتى يكون سائقا للنفوس على التفكير والتدبر فى الوصول إلى ما يستحقون عليه المكافأة والامتياز » .

ز - القيام بوضع القوانين الحديثة والملائمة والنظامات التى « تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد » فى مختلف جوانب حياة المجتمع المصرى الجديد[1] الخ ..

وهكذا احتل الشيخ محمد عبده ، والتيار الفكرى والسياسى الذى مثله وعبر عنه مكانه في الحركة الثورية العرابية ، وتحول إلى صوت يدافع عن إيجابياتها ، بعد أن كان صوتا يهاجم هذه الإيجابيات ، وإلى مساهم فى بناء

---

(١) المصدر السابق مقال « احتفال جمعية المقاصد بالتصديق على لائحة النواب » فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢م .

بعد كتابة هذه الدراسة قمنا بالجمع والتحقيق والدراسة والنشر للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - انظر نصوصه السياسية فى جزئها الأول - الطبعة الثانية - دار الشروق سنة ١٩٩٣م .

الحياة الثورية الجديدة والتاريخ الجديد لوطننا الذى بدأ بمظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ، بعد أن كان بعيدا عن هذه الظاهرة الثورية ، ينتقدها من موقع المثقف الذى عزل نفسه عن مجال التأثير الثورى والتأثر بالثورة والثوار .

ولقد شهد النصف الأول من سنة ١٨٨٢ م تقدم الشيخ محمد عبده - رغم خصائصه المعتدلة - فى ميدان العمل داخل إطار الحركة الثورية العرابية ، حتى لايجد الباحث وسط أحداث الثورة بدّاً من وضعه بين القلة القليلة التى يمكن أن يطلق عليها وصف القيادة لهذه الثورة خلال تلك الشهور .. لقد كان واحدا من قادة هذه الثورة ، وإن يكن الممثل للتيار المعتدل بين هؤلاء القادة الثوار .. فهو « إصلاحى » اعتقد أن « الثورة » قد حققت وستحقق الآن ما عمل لتحقيقه بعد سنوات وسنوات .. فارتبط بالثورة والثوار . وهو صاحب مزاج غير ثورى ساهم دفء الثورة وحرارة الثوار فى إعطائه جرعة من الحماس جعلته يتقدم خطوات بعيدا عن موقع « المصلح » وقريبا من موقع « الثورى » وهو ممثل تيار فى الحركة الوطنية يومئذ ، تحول إلى مدرسة فى الفكر المصرى وأسلوب فى العمل السياسى ، لعبت دورا خطيرا فى حياتنا ولا زالت مؤثرة حتى هذه الأيام .

هكذا كان موقف هذا التيار الإصلاحى من فكر الثورة وإنجازاتها . وهكذا تعايشت فى عقل الشيخ محمد عبده وكتاباته ومواقفه ظاهرتا: الاعتدال ، والدفاع عن الثورة والمساهمة فى صنع أحداثها منذ انفجار أحداثها فى سبتمبر سنة ١٨٨١ م وحتى هزيمتها التى انتهت بدخوله السجن مع زعمائها الأحياء فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ م .

العروة الوثقى

المناخ.. والساحة:

الصراع بين وطننا العربى وبين الاستعمار الأوربى صراع قديم ، تمتد بداياته الأولى إلى صفحات وفترات قديمة جدا فى التاريخ ..

* فقبل ظهور الإسلام بعدة قرون كان الإغريق والرومان يتبادلون زعامة أوربا ، وكانوا يسعون دائما وأبدا لاحتلال الشرق ، لنهب ثرواته ، ولإدخاله فى إطار ثقافتهم وحضارتهم .. ويومها لم تكن القبائل العربية قد توحدت بعد ، فكانت زعامة الشرق بيد الدولة الفارسية ، فقامت بينها وبين الإغريق والرومان حروب ، استمرت عدة قرون ..

ولقد استطاع الغزاة الأوروبيون ـ بسبب ضعف الدولة الفارسية الإقطاعية ـ إحراز العديد من الانتصارات ، وخاصة فى حملة الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) فتمت سيطرتهم على مصر وشمال أفريقيا والشام ، وأيدوا الحبشة فى احتلالها اليمن ، ولم يبق بعيدا عن سيطرتهم من أرض العرب سوى وسط شبه الجزيرة ؛ لأنه صحراء وعرة وفقيرة ، ولأن قبائله المقاتلة الأبية لا يمكن إخضاعها لحكومات غريبة عنها ..

* وعندما ظهر الإسلام ، وبنى أول وحدة عربية جمعت القبائل كلها ، ووحدت عرب اليمن مع عرب الحجاز والشام والعراق ، وقفت شعوب مصر وبلاد الشمال الأفريقى مع المقاتلين العرب والفاتحين المسلمين ضد الجيوش والحاميات الرومية البيزنطية ، فتمت الفتوحات التى حررت الشرق كله من

آثار الغزوة التى قادها الإسكندر الأكبر ، وكانت الإمبراطورية العربية التى تكونت فى عهد ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب هى ثمرة هذه الفتوحات وهذا التحرير الذى اشترك فيه : العرب المسلمون ، والعرب المسيحيون فى الشام ، والمصريون الأقباط وغيرهم من شعوب الشرق التى هبت لتحرير أوطانها من الروم البيزنطيين .

* ولقد ظلت أوربا الاستعمارية ، الطامعة فى خيرات الوطن العربى ، والمعادية لحضارته ، ظلت تتربص وتتحين الفرص لإعادة سيطرتها عليه من جديد .. وعندما أصاب التفكك الإمبرطورية العربية ، وحل الضعف فيها محل القوة قامت الغزوة الاستعمارية الكبرى التى زحف فيها فرسان الإقطاع الأوروبى على بلادنا فى العصور الوسطى باسم الدين المسيحى وتحت ستاره ، وهى الغزوة التى عرفت بالحروب الصليبية ، والتى دامت قرنين من الزمان !.

وفى الحروب الصليبية اشتركت معظم دول أوروبا وإماراتها وولاياتها ، وتركزت هجماتها فى البداية على فلسطين والشام ثم اتجهت إلى مصر حتى لا تقود مقاومة العرب والمسلمين ضدهم ، وحتى يقطع طريق المدد والمساعدة التى كان المغرب العربى يستعد لتقديمها لعرب المشرق فى صراعهم ضد الصليبيين .. بل لقد اتجهت بعض غزوات هذه الحملات الصليبية إلى بلاد المغرب العربى مباشرة ، وأيضا إلى الدويلات العربية فى بلاد الأندلس ... فكانت حربا من أطول حروب التاريخ بدأت سنة ١٠٩٦ م واستمرت حتى سنة ١٢٩١ م !!.. وفيها شاركت معظم بلاد أوربا ضد عرب المشرق والمغرب ومصر على السواء !!..

وأمام هذا الخطر الزاحف والمدمر انتفض الوطن العربى بروح المقاومة

والفداء ، فأعاد بناء وحدة مصر مع المشرق العربى تحت قيادة صلاح الدين الأيوبى (١١٣٨ ـ ١١٩٣ م) وبنى العرب جيوشهم ودربوها على نظام الفروسية العربية الإسلامية حتى يستطيعوا هزيمة فرسان الإقطاع الأوربيين ، واستطاعت هذه الصحوة العربية أن تنتزع من الصليبيين المدن والقرى والقلاع والحصون التى استولوا عليها ، من خلال معارك طويلة وكثيرة ومريرة ، توجت فى النهاية بالنصر الكامل للفرسان العرب ، فتحررت البلاد من الغزاة الصليبيين ، واندحرت موجة الغزو الأوربى هذه ، كما اندحرت سابقتها بفتوحات الإسلام ..

لكن الجمود عاد فسيطر على النظم الحاكمة فى الوطن العربى ، فتخلفت البلاد فى عصر المماليك .. وكانت أوربا قد بدأت صحوتها ويقظتها ونهضتها، وخاصة بعد احتكاكها بعلوم العرب وحضارتهم أثناء الحروب الصليبية .. وبعد حكم المماليك جاء الحكم العثمانى ، وفى ظله مثلت قواته المسلحة القوية ـ لفترة طويلة ـ حماية للشرق العربى من أطماع أوربا المتربصة .. لكن القوة المسلحة للعثمانيين لم تستند إلى تقدم حضارى وتطور فكرى وازدهار علمى ، فدب فيها الضعف وسرى إليها الاضمحلال ، فتحولت إلى السلب والنهب والاعتداء على المواطنين ، ولم تعد الدرع الذى يحمى الوطن ويخيف أعداءه المتربصين، وزاد الأمر سوءا والموقف ضعفا عداء الأتراك العثمانيين للعرب والعروبة ، فكان أن قام الصراع بين العرب وبين الأتراك فى الدولة العثمانية فأصبح جدار الشرق العربى مليئا بالثغرات التى تغرى أوربا الاستعمارية كى تنفذ من خلالها ؛ لتعيد غزو الوطن العربى ، أملا فى تحقيق حلمها القديم فى السيطرة عليه من جديد .. فكان أن بدأت الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة لبلادنا بقيادة نابليون بونابرت ١٧٩٨ م !!..

* جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨ م .. وكانت أحلام نابليون أن يكون الإسكندر الأكبر الجديد ! .. لأنه يريد أن يقيم إمبراطورية لفرنسا فى الشرق تعيد السيطرة التى اندثرت بفتوحات العرب بعد ظهور الإسلام .. وفى العام التالى ـ (١٧٩٩ م) ـ غزا فلسطين ، فى محاولة لتوسيع رقعة البلاد التى يحتلها ... ولكن المقاومة واجهته ، ووقعت قواته وأحلامه بين شقى الرحى ـ كما يقول التعبير العربى القديم ـ فمدينة عكا صمدت لحصار جيش نابليون ، وأمام حصونها وأسوارها ومقاومتها انهزم القائد الذى دوخ أوروبا وفتح مدنها وحصونها واجتاح جبالها وعبر أنهارها وغير فيها الخريطة والتاريخ !... وثورات مدينة القاهرة ضد جيشه وحكومته ، وكذلك مقاومة فلاحى مصر وتجارها وشيوخها زلزلت القاعدة التى ظن نابليون أنه قد أقامها وأنه سيوسع الحدود حولها ليحقق الحلم الاستعمارى الأوروبى القديم ..

وأمام هذه المقاومة الشعبية تراجعت جيوش نابليون .. وتراجعت أحلامه أيضا !.. فغادر مصر ـ فى جنح الظلام ـ عائدا إلى بلاده فرنسا .. وبعده بزمن غير طويل لحقت به جيوشه ١٨٠١م دون أن تحقق شيئا من حلم قائدها الكبير !..

* وأدرك العرب ـ من خلال صراعهم مع الحملة الفرنسية ـ أن أوروبا قد تقدمت ماديا ، وأن جيوشها تتسلح بالأسلحة الحديثة ، على حين لا يزالون هم واقفين عند سيف الفارس المملوكى وحصانه والزخارف التى يزين بها هذا الحصان !.. وأدرك العرب كذلك ـ من خلال الاحتكاك ببعثة العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع حملة نابليون ـ أن هذا التقدم المادى الذى أحرزته أوروبا إنما استند وتأسس على تقدم علمى وفكرى ، على حين لا يزالون هم واقفين عند

خرافات العصر المملوكى وجمود العقل العثمانى!... وعندما أدرك العرب هذه الحقائق سرت فى صفوفهم أحاسيس وارتفعت أصوات تنادى بضرورة التغيير واليقظة .. فأمام هذه « الدورة الجديدة » من « دورات » الصراع التاريخى والقديم بين هذا الوطن وبين المستعمرين الأوروبيين ، لابد من أن تجدد الأمة ذاتها وحياتها ، ولابد من البحث عن عناصر القوة فى هذه الذات ، وأيضا فلابد من دراسة أسباب تقدم العدو وأسرار تفوقه ؛ لامتلاك هذه الأسرار والاستعانة بهذه الأسباب ، والتسلح بهذه الأسلحة ، وذلك حتى نتسلح فى ساحة الصراع ، « لا بحقنا » المشروع فى حماية وطننا فقط ، وإنما أيضا «بأسلحة العصر » المتقدمة التى تضمن للحق وأصحابه السيادة والانتصار .

ولقد كان فى مصر شيخ من علماء الأزهر ، عاش فى مصر والمشرق وتركيا ، وجمع فى عقله ثقافة عصره ، هوالشيخ حسن العطار (١٧٧٦ - ١٨٣٥ م) فلما جاء الفرنسيون إلى مصر اقترب من علمائهم ، يتعلمون على يديه اللغة العربية ، وكان هو يتأمل منهجهم فى التفكير ، وما أحرزوه من تقدم فى العلوم .. وأدرك الشيخ العطار أن الوطن العربى إنما يقف أمام خطر مسلح بأسلحة لا يعرفها قومه ، فقال كلماته المشهورة : « إن بلادنا لابد أن تتغير ، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ! » .

* وعندما اجتمع علماء مصر وقادة الرأى فيها ١٨٠٥م فقرروا عزل الوالى التركى واختيار محمد على باشا حاكما لمصر ... وعندما أقام محمد على الحكومة المدنية العصرية ، وأسس جيشا وطنيا حديثا من أبناء البلاد ، ودربه وسلحه على أحدث النظم العصرية ... وعندما أرسل البعثات العلمية إلى أوربا لتتعلم فنون العصر وعلومه ولتترجم فكره ونظرياته ، وعادت هذه البعثات

فأقامت المدارس العصرية ، وألفت الكتب وأصدرت المجلات ، وأعادت إحياء التراث العربى والإسلامى ... عندما حدث ذلك فى مصر، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت مصر تحقق وتطبق كلمة الشيخ حسن العطار .. فأمام الخطر الاستعمارى الحديث - وحتى تواجه هذه « الدورة الجديدة » فى سلسلة ذلك الصراع القديم - « لابد لبلادنا أن تتغير ، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها! » ...

وعندما أحرزت الدولة العصرية الحديثة قدرا من النجاح فى مصر ، تطلعت لتعميم تجربتها فى المشرق العربى ، فكانت الحرب التى خاضها الجيش المصرى ضد الجيش العثمانى فى الشام ما بين ١٨٣١ و١٨٤١ م ، والتى انتهت بانتزاع الولايات العربية العثمانية من إطار التخلف العثمانى ، حتى لقد أوشكت خريطة الشرق العربى أن تتغير تماما ، عندما لاحت بوادر قيام دولة عربية كبرى تضم مصر والشرق تجدد شباب الشرق ، وتجعل زمام القيادة فى الصراع ضد أوروبا الاستعمارية بيد العرب ، بعد أن عجز عن ذلك العثمانيون!..

لكن أوروبا الاستعمارية رأت فى هذه الصحوة الخطر الأكبر على حلمها فى استعمار الوطن العربى والسيطرة عليه .. فهى تريد بقاء السيطرة الاستعمارية العثمانية ؛ لأن الدولة العثمانية - دولة « الرجل المريض » كما أطلقوا عليها - آخذة فى الاضمحلال .. فإذا هزمت مصر ، وتراجعت حركة اليقظة والتجديد التى تقودها ، ضمن الاستعماريون الأوروبيون أنهم هم الوارثون لتركة « دولة الرجل المريض » ! ... فكان التنافس والسباق المحموم بين القوى الاستعمارية الأوروبية على التهام الأجزاء من بلاد الوطن العربى ... وكان تحالفها جميعا،

بل واتفاقها مع العثمانيين ضد صحوة مصر وتجديدها ، وضد الدولة العربية الكبرى التي أرادت بها إنقاذ الولايات العربية من التخلف العثماني ؛ كي لا تقع في براثن المستعمرين الأوروبيين المتربصين !....

وفي هذا السباق والصراع شهدت المنطقة ، وشهد القرن التاسع عشر :

* الحملة الإنجليزية الاستعمارية التي قادها « فريزر » والتي جاءت لاحتلال مصر سنة ١٨٠٧ م ؛ لتحقق ما فشل في تحقيقه نابليون ... وهي الحملة التي هزمها الشعب المصري في معركة رشيد .

* وبداية الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠ م .. وهو الغزو الذي استمرت مقاومة الشعب الجزائري ضده ، بقيادة بطله الوطني الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣ م) حتى سنة ١٨٤٨ م ..

* وبداية الاحتلال الإنجليزي لميناء عدن سنة ١٨٣٨ م .. لإقامة نقطة مراقبة وتآمر وانقضاض ضد الدولة الكبرى التي كان محمد علي باشا قد أقامها في ذلك التاريخ ، والتي كانت تضم : مصر ، والسودان ، والساحل الغربي للبحر الأحمر ، والحجاز وفلسطين والشام ، والتي امتد نفوذها إلى العراق والخليج !..

* وتبع هذا النصر الإنجليزي قيام تحالفهم مع العثمانيين ضد الجيش المصري في الشام ، فأجبروه على التراجع ، وفرضوا على مصر العزلة عن المشرق العربي بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤١ م !..

* وفي سنة ١٨٥٧ م تطورت السيطرة الإنجليزية على بلاد الهند ، من السيطرة غير المباشرة ، بواسطة شركة الهند الشرقية ـ وهي شركة إنجليزية

استعمارية ـ إلى سيطرة مباشرة ، حكم بها الإنجليز الهند حكماً استعمارياً سافراً، وجعلوا ملكتهم « فكتوريا » إمبراطورة على الهند فى سنة ١٨٧٧ م !..

* واستطاعوا كذلك مد نفوذهم إلى أفغانستان سنة ١٨٦٨ م عندما انتصر التيار الموالى لهم بين الأمراء الأفغان المتصارعين !..

* وسرعان ما امتد نفوذهم إلى إيران ، وإمارات الخليج والعراق ..

* ولقد كان الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م الضربة التى رجحت كفة الزحف الاستعمارى الأوروبى على الوطن العربى ، فظهر واضحاً أن أوروبا الاستعمارية قد كسبت جولة جديدة ، بدأت بها « دورة حديثة » فى الصراع التاريخى والقديم بين العرب والاستعمار !..

* ثم سقطت تونس فى قبضة الاستعمار الفرنسى سنة ١٨٨١ م . ومن بعدها توالت عمليات وراثة الاستعمار الأوروبى لتركة الدولة العثمانية ، جزءاً جزءاً وقطعة قطعة ، حتى غطت موجة الغزوة الاستعمارية الحديثة أرجاء وطننا العربى الكبير ، بل وكل أرجاء الشرق وسائر أوطان المسلمين ؟!..

لقد كانت عاصفة عاتية ، وإعصاراً مدمراً ... لكنها لم تخمد جميع الأنفاس ، ولم تزهق كل الأرواح... بل لقد استنفرت عوامل المقاومة فى روح الشرق وأعماق العرب وتعاليم الإسلام من جديد !..

والرجـــل ...

وأثناء الغزوة الاستعمارية التى قامت بها أوربا ضد الوطن العربى والعالم الإسلامى وبلاد الشرق ، فى القرن التاسع عشر ، كان للاستعمار الإنجليزى نصيب الأسد فى الاحتلال والاستغلال والتدخل والنفوذ ، وخاصة بعد نجاح الإنجليز فى احتلال مصر سنة ١٨٨٢ م ..

غير أن العام الذى تم فيه للإنجليز احتلال أول بقعة فى العالم العربى - عام ١٨٣٨ م - عندما استطاعوا احتلال عدن ، فى جنوبى اليمن ، هذا العام كان هو العام الذى ولد فيه الرجل الذى سيصبح قائد المقاومة للنفوذ والاستعمار الإنجليزى ، وباعث اليقظة وروح الجهاد ضد الزحف الاستعمارى الأروبى على بلادنا فى ذلك التاريخ ؟!..

ففى ١٨٣٨ م ولد جمال الدين الأفغانى فى أفغانستان ... فلقد شهدت بلدة « أسعد آباد » ، التابعة لمقاطعة « كنر » ، القريبة من العاصمة « كابول » ، شهدت مولد جمال الدين .. وكانت أسرته عربية الأصل والنسب ، يصل نسبها إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب .. ولذلك كان جمال الدين يسمى نفسه ويوقع مراسلاته ومقالاته باسم : « جمال الدين الحسينى الأفغانى » ...

وكانت أسرة جمال الدين من الأسر ذات النفوذ فى المقاطعة التى تعيش فيها ، ولذلك حسدهم أمير الأفغان ، وخشى نفوذهم على سلطانه واستبداده ، فأراد إبعادهم عن المكان الذى يعيشون فيه ، فاستدعاهم إلى العاصمة « كابول» وكان جمال الدين لايزال طفلا صغيرا ، ومنذ ذلك التاريخ المبكر فى حياته بدأت قصته مع الغربة والرحلة فى سبيل المبدأ والرأى ، وبدأت صلته بأحداث السياسة والصراعات على السلطة والحكم والنفوذ !..

وقبل أن يبلغ العاشرة من عمره كان قد تعلم - بالمنزل ، وتحت إشراف أبيه القراءة والكتابة ومبادىء اللغة العربية ، وحفظ القرآن الكريم ...

ولقد زاد نفوذ أسرة جمال الدين من تخوف حكومة الأفغان وأميرها ، وزاد تخوف الأمير من هذه الأسرة ونفوذها فرحل والد جمال الدين بأفراد أسرته

عن بلاد الأفغان إلى جارتها إيران ، وهناك عمل الأب مدرسا فى مدرسة « قزوين » وأصبح جمال الدين تلميذا بهذه المدرسة ، وهو فى العاشرة من عمره ، وأمضى الفتى بهذه المدرسة عامين ، لفت أثناءها أنظار والده وأساتذته بذكائه واجتهاده ، وبميوله المبكرة لدراسة العلوم ، واهتمامه بعلم الفلك ، ورغبته فى قراءة كتب الطب ، ومحاولته ممارسة التشريح ؟!..

كانوا يقيمون فى بلدة « أسد آباد » الإيرانية ، ويزورون - بين الحين والحين العاصمة طهران .. وفى إحدى هذه الزيارات ذهب الفتى جمال الدين إلى مجلس واحد من أكبر علماء طهران ، وجلس بين الرجال الذين يلتفون حوله لسماع دروسه العلمية ، وفى نهاية الدرس اشترك الفتى فى الأسئلة والنقاش ، فلفت أنظار الجميع بأدبه وشجاعته ورغبته فى العلوم ، وحاز انتباه العالم الكبير ، حتى لقد أرسل هذا العالم فاشترى لجمال الدين عمامة صغيرة وعباءة جميلة ، وبعث إلى والده فحضر ، وقام بنفسه ، فألبس جمال الدين العباءة والعمامة ، فى حفل علمى صغير ؛ تكريما لأدبه وجرأته ، وتشجيعا له على مواصلة طريق العلم ، بعد أن تحلى - رغم صغر سنه - بزى العلماء !..

وفى سنة ١٨٤٩ م سافر جمال الدين - وكان فى الحادية عشرة من عمره - سافر مع والده لزيارة مدينة النجف فى العراق ... وهى مركز عظيم لدراسة علوم اللغة العربية والإسلام - وهناك التحق بمدارسها ، ومكث فيها خمس سنوات ، تعلم فيها علوم : تفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والفلسفة الإسلامية ، والمنطق ، وعلم الكلام (الذى يبحث فى أصول الدين الإسلامى ومذاهب المسلمين) ، وأصول الفقه ، والرياضة ، والطب ، والتشريح، والفلك ...

وفى ١٨٥٤ م سافر جمال الدين من مدينة النجف ، وفى نيته الذهاب إلى الهند حتى يدرس بها العلوم التى لا تدرس فى النجف ، لكنه قبل الذهاب إلى الهند مر بإيران ، وقصد إلى أسد آباد » لزيادة والده وأسرته هناك .. ولقد عرض عليه أبوه أن يكتفى بما درس من العلوم فى النجف ، وأن يقيم معهم فى « أسد آباد » ، ولكن الفتى الطموح اعتذر لأبيه ، وأخبر أسرته أن البلدة التى يعيشون فيها والعالم الصغير الذى يضمهم لا يناسب الآفاق الواسعة التى يتطلع إليها .. ولقد عبر عن طموحه العظيم بكلمات بليغة وعظيمة عندما قال لأسرته: « إننى كصقر محلق ، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقاً لطيرانه ! وإننى لأتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسونى فى هذا القفص الضيق الصغير ! » ثم ودعهم وانطلق ..

ومنذ ذلك التاريخ ـ وكان فى السادسة عشرة من عمره ـ أصبحت حياته رحلة دائمة لا تعرف الاستقرار ... رحلة إلى العلم والعلماء ... وطموحا لتحقيق الأهداف العظيمة ... وسعيا للعودة إلى وطنه أفغانستان الذى أخرجه منه ـ مع أسرته ـ الأمير المستبد بالحكم والسلطان !..

ذهب إلى مدينة « بمباى » بالهند ـ وكانت الهند مستعمرة إنجليزية فى ذلك التاريخ ـ .. وبعد « بمباى » سافر إلى مدينة « كلكته » ـ وكانت مركزا من مراكز الثقافة والعلوم ـ فأقام بها أكثر من عام ، ودرس فيها الرياضة الحديثة والعلوم الأوروبية ... ثم واصل رحلاته ، عازما على زيارة مكة ؛ لأداء فريضة الحج ، بعد أن يزور ويشاهد العديد من بلاد العرب ؛ ليلتقى بأهلها ، ويتعلم علومها ، ويدرس أحوالها ... ولقد وصل مكة ، وأدى فريضة الحج ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره ١٨٥٧ م .... ومن مكة سافر إلى العراق،

فزار مدينة النجف ومدينة كربلاء .. ثم سافر إلى إيران ، فزار أسرته فى أسد آباد ، ثم مر بطهران ، ومنها ذهب إلى خراسان .. وفى خراسان قرر تنفيذ رغبته التى ظلت تلح عليه كل تلك السنوات ، فسافر منها عائدا إلى بلده الأصلى أفغانستان !..

وفى كابول ـ عاصمة أفغانستان ـ بدأ جمال الدين ممارسة الحياة العامة ، فألف أول كتبه عن تاريخ وطنه ، وسماه : (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) ألفه باللغة العربية !..

وكان الاستعمار الإنجليزى قد بدأ يمد نفوذه إلى بلاد الأفغان ، وأخذ يتدخل فى الصراعات القائمة بين الأمراء الذين يحكمون البلاد ، فيؤيد فريقا ضد فريق ... وفى الصراع الذى دار بين الأمير « دوست محمد خان » وبين الأمير « محمد أعظم خان » بدأ جمال الدين يمارس العمل السياسى ، وألقى بثقله فى الجانب المعادى للاستعمار الإنجيزى ، فتولى عدداً من المناصب فى حكومة الأمير محمد أعظم خان ، وارتقى فى هذه المناصب حتى أصبح الوزير الأول ـ (رئيس الوزراء) ـ !.. وشارك فى الإعداد والتحضير للحرب التى دارت سنة ١٨٦٢ م ضد الأمير « دوست محمد خان » وأنصاره ، بل وقاد بعض معارك هذه الحرب بنفسه ، وشارك مشاركة فعلية فى القتال !..

ولما توفى الأمير « دوست محمد خان » انتقل تأييد الاستعمار الإنجليزى إلى الأمير « شير على خان » فاستمر الصراع فى أفغانستان ، واستمر نشاط جمال الدين ضد أعوان الاستعمار ، حتى كانت هزيمة الأمير الوطنى « محمد أعظم خان » فى سنة ١٨٦٨ م ، فخرج منفياً من أفغانستان إلى إيران ، وبقى جمال الدين فى «كابول» ، بعد أن جرد من مناصبه ، وأحاطت به العيون والجواسيس

وبعد ثلاثة أشهر أراد السفر من أفغانستان ، فوافقت حكومتها على شرط أن لايذهب إلى إيران ؛ خوفاً من أن ينضم إلى الأمير الوطني المنفى هناك ، وذلك حتى لا يعمل معه جمال الدين على العودة ثانية إلى أفغانستان !.. فغادر « كابول » ذاهباً إلى الهند ...

لكن الإنجليز ـ الذين حارب نفوذهم فى أفغانستان ـ كانوا هم الذين يحتلون الهند .. فضيقوا عليه فيها الخناق ، وعزلوه عن المجتمع ، ومنعوه من أن يلتقى بالعلماء والجمهور ـ وكانت سمعته وقصة نضاله قد بلغت الهنود، فرغبوا فى لقائه ـ... ثم خشيت الحكومة الإنجليزية أن يفلت الزمام من يدها ، وأن تغضب الجماهير فتخترق الحصار المضروب حول جمال الدين ، فقامت ـ بعد شهر من وصوله إلى الهند ـ بترحيله عنها فأركبته إحدى سفنها سرا وأبحرت به السفينة من هناك ، وأنزلته فى ميناء السويس .. ومن السويس سافر جمال الدين إلى القاهرة ، فزارها للمرة الأولى سنة ١٨٦٩ م !..

وفى القاهرة استقبله العلماء والأحرار واللاجئون السياسيون ـ وكانت أخباره وأخبار نضاله ضد الاستعمار قد سبقته وشاعت بين صفوة المفكرين والسياسيين والعلماء ـ .. وفيها ذهب إليه طلاب العلم الذين يدرسون بالأزهر ، وكانوا قد سمعوا بعلمه الغزير ، فطلبوا إليه أن يشرح لهم بعض الكتب ويحدثهم ببعض ما عنده من علوم وفنون ...

وبعد أربعين يوما أمضاها جمال الدين بالقاهرة سافر منها إلى « الآستانة » عاصمة الإمبراطورية العثمانية ... فاستقبل فيها استقبالا حسنا من العلماء والأحرار .. وفى « الآستانة » تعلم اللغة التركية فى ستة أشهر ، ثم عين عضوا فى (المجلس الأعلى للمعارف) وبدأ يمارس نشاطه ، فوجد إقبالا من المثقفين

على حديثه وندوته ، ولكنه وجد تخوفا من الحكومة العثمانية ومن السلطان العثمانى بالنسبة لنشاطه السياسى ..فأخذ يعقد مجلسا للعلم فى (جامع الفاتح الكبير) سرعان ما اجتذب إليه الصفوة ورجالات الدولة فى الآستانة .. وهنا بدأت غيرة الرجعية منه ، وبدأ صراعها ضد فكره المتقدم ، الذى كان ينادى بالاعتماد على العقل ، وتحرير الفكر من الخرافات ، وإحياء التراث الإسلامى الذى يساعد الأمة على التقدم حتى تتصدى للزحف الاستعمارى الذى يسعى لالتهام بلاد العرب والإسلام ....

وبعد محاضرة ألقاها جمال الدين فى (دار الفنون) عن « الصناعات » وأهميتها ودورها فى نهضة الأمة ، سعت الرجعية العثمانية إلى السلطان غاضبة تتهم جمال الدين بالتهم الباطلة ، واشتدت الأزمة بينها وبينه ، حتى انقسم الناس فى العاصمة إلى حزبين ، أحدهما مع جمال الدين ، والآخر مع «شيخ الإسلام » العثمانى ... ولقد استطاعت الرجعية تخويف السلطان من عاقبة الفكر المتحرر لجمال الدين ، فطلب إليه السلطان مغادرة الآستانة مؤقتا فعزم الفيلسوف العالم المناضل على العودة إلى الهند ، مرة أخرى ، على أن يمر بمصر قبل الذهاب إليها ، فوصل القاهرة فى مارس ١٨٧١ م...

وفى القاهرة كان استقبال العلماء والطلاب والساسة والأحرار لجمال الدين هذه المرة أكثر حرارة من استقبالهم له فى المرة الأولى ، فأخبار صراعه فى الآستانه ضد فقهائها الرجعيين كانت حديث المنتديات والمجالس فى ذلك التاريخ ... وفيها استقبله أيضا رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ - ١٩١١م) الذى أعجب بشخصية جمال الدين ، فطلب إليه أن يقيم بمصر ، فوافق ، وقدمت له الدولة منزلاً يقيم به فى « خان الخليلى » وعينت لنفقاته

راتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات !.. فبدأت فى القاهرة أعظم سنوات حياة جمال الدين الأفغانى خصوبة وعطاء ، سواء فى العلم ، أو فى السياسة ، أو فى صنع الرجال وتربية المناضلين ، أو فى .... إنشاء أولى التنظيمات السياسية التى قامت فى الوطن العربى بالعصر الحديث ؟!..

* فالمنزل المتواضع الذى سكن به الأفغانى فى «خان الخليلى» أصبح ندوة علمية منظمة ، يذهب إليها كل الذين يتطلعون إلى فهم الفكر الإسلامى فهما جديدا، يختلف عن ذلك الذى يقدمه شيوخ الأزهر وعلماء الدولة العثمانية ، وأغلبهم كانوا يرددون الفكر الجامد الذى ساد وسيطر فى العصور المظلمة على عهد المماليك !... أما الأفغانى فلقد أخذ يحدث مريديه ويشرح لرواد ندوته الكتب والآراء والنظريات والأفكار التى تمثل الفكر العربى الإسلامى فى عصر نهضته وازدهاره ، وأخذت دروسه هذه تفتح عقول تلاميذه على حقيقة هامة وهى : أن أوروبا ليست وحدها التى تملك حضارة عظمى وفكرا متقدما ، بل إننا نحن أيضا لنا فكر وعندنا تراث عظيم ، وإذا نحن بعثناه وبنينا عليه وطورناه ، استطعنا أن نسابق الأوروبيين فنسبقهم ، واستطعنا كذلك أن نقيم سدا منيعا أمام الغزو الاستعمارى الذى يريد أن ينهب ثروات بلادنا ، وأيضا يريد أن يمسخ شخصيتنا الحضارية والقومية ، ويجعلنا أتباعا له فى الفكر كما فى الاقتصاد !...

ولقد كانت تلك هى أهمية التجديد الفكرى والدينى الذى قام به جمال الدين الأفغانى ، فهو يحيى التراث ليبعث الأمة ، ويجدد الفكر لتتسلح به هذه الأمة فى صراعها ضد الغزاة !..

وكان التخلف الذى أصاب الوطن العربى فى ظل حكم المماليك والعثمانيين قد أصاب اللغة العربية بالركاكة ، وطبع الأسلوب العربى بالسجع والزخارف،

فأصبح الناس يهتمون بزينة الألفاظ ويهملون المعنى والمضمون ... فعمل جمال الدين على تربية ملكة البلاغة والكتابة عند تلاميذه ، ونجح فى تكوين أول مجموعة من الكتاب والأدباء الذين تخلص أسلوبهم من السجع ، وتعلموا كتابة المقالات والفصول بأسلوب بليغ وعصرى معا ، وكان يطلب إليهم أن يدونوا أفكاره وآراءه التى يلقيها فى مجالسه ودروسه ، وأن يقوموا بصياغتها هم ، وأن ينشروها بأسمائهم فى الصحف والمجلات .

* وكانت أغلب الصحف والمجلات ـ بمصر ـ حتى ذلك التاريخ حكومية رسمية تصدرها الدولة ، وكان أغلب المفكرين ورجال العلم ودعاة التنوير من رجال الدولة أيضا .. فلما بدأت تتبلور للفكر والتنوير « مدرسة شعبية » على يد جمال الدين ، سعى إلى إصدار عدد من الصحف والمجلات الأهلية والشعبية لتكون مجالاً لفكر هذه المدرسة الجديدة فى الإصلاح والتجديد والتنوير ... وكان من تلاميذه الكاتب الصحفى أديب إسحاق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥ م) فساعده حتى أصدر صحيفة (مصر) ، وكان الأفغانى يكتب فيها المقالات والفصول التى لفتت أنظار الناس إلى هذا الفكر الجديد والأسلوب الجديد ، وكان يوقع مقالاته هذه باسم مستعار هو (المزهر بن وضاح) !... ثم سعى إلى إصدار صحيفة ثانية ، هى صحيفة (التجارة) باسم أديب إسحاق وسليم النقاش (١٨٨٤ م) وأصبحت ميداناً لفكره وكتابات تلاميذه ومريديه ... وأيضا وجه تلميذه إبراهيم اللقانى فتولى إصدار صحيفة (مرآة الشرق) فأصبحت هى الأخرى ساحة لهذا الفكر الجديد ..

* وبينما كان منزل الأفغانى ندوة للعلم والفلسفة ، كانت ندوته فى مقهى «متاتيا » بميدان العتبة الخضراء ، بوسط القاهرة ، تضم مختلف الناس من

مختلف الطبقات ، وفى هذه الندوة اقترب الأفغانى من عامة الشعب المصرى وجمهوره ، وأخذ يستعين بالكلمات العامية والحكم الشعبية فى النفاذ إلى أعماق الناس .. بل لقد امتدت دعوته إلى نساء ذلك العصر ، فعقدت الاجتماعات التى ضمت الصفوة منهن والتى خطب فيها جمال الدين !..

* وكانت مصر - مثلها مثل كل أجزاء الوطن العربى - تتعرض لخطرين عظيمين :

(١) الاستعمار الأوروبى الزاحف عليها ..

(٢) وطبقة الغرباء - من الشراكسة وبقايا المماليك - الذين يحتكرون المناصب العليا فيها وينهبون ثرواتها ، ويفرضون السلطة المستبدة على أهلها .. ومن ثم فإنهم يتيحون بالجهل والغباء والضعف الذى استشرى بسببهم ، يتيحون الفرصة للغزو الاستعمارى الزاحف على البلاد !..

وأمام هذين الخطرين ، رفع جمال الدين الأفغانى - بمصر - شعار : (مصر للمصريين) !.. لا للشراكسة والمماليك ولا للمستعمرين الأوروبيين !.. ومضى فى سبيله يوقظ الحس الوطنى والقومى عند الشعب ، ويحدث الناس عن مجدهم فيقول: « انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ... إنها شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ... هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، شقوا صدور المستبدين بكم كما تشقون أرضكم بمحاريثكم ، عيشوا - كباقى الأمم - أحرارا سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء ؟! .. » .

* وشيئا فشيئا بدأت البذور التى زرعها جمال الدين فى المجتمع المصرى تنبت وتورق وتثمر ... فتكون من حوله تيار فكرى مستنير ... وأخذت أفكار

هذا التيار تنتشر بواسطة الصحافة الشعبية والندوات والاجتماعات .. وحتى يضمن الرجل لهذا الفكر وهذه الدعوة دوام الاستمرار وإمكانيات الصمود فى وجه أعدائها أقام ـ سرا ـ أول تنظيم سياسى عرفه الوطن العربى فى ذلك التاريخ ، وسماه (الحزب الوطنى الحر) !... وضمت صفوف هذا الحزب نحوا من ثلاثمائة من القادة والمفكرين ، كان من بينهم معظم الذين فجروا وقادوا الثورة العرابية ١٨٨١م ضد الاستعمار والاستبداد !..

* لكن الاستعمار الذى كان يحرس ضعف الدولة العثمانية ويحافظ على تخلفها ويرعى استبداد حكومتها المركزية وحكومات ولاتها وباشواتها وخديويها فى الأقاليم والولايات ، حتى تأتى اللحظات المناسبة فيدخل من هذه الثغرات لالتهام هذه الأقاليم والولايات .. هذا الاستعمار قد وجد فى فكر الأفغانى وحركته وحزبه الخطر الأكبر على المخطط الإجرامى الذى يبيت لتنفيذه فى مصر والوطن العربى ... فالأفغانى يسعى إلى أن تصبح مصر دولة ديمقراطية، يحكمها قادة من أبنائها ، بالشورى والانتخاب والبرلمان والدستور، ويسعى إلى أن تصبح خيراتها بيد أهلها ... ولو حدث ونجح ذلك فى مصر ، فإن تأثيره فى المشرق والمغرب لن يقاوم ، لما لمصر من دور رائد وقائد فيما حولها من البلاد .. وفى ذلك ما فيه من خطر على أحلام الاستعمار الذى يرى فى ضعف هذه البلاد ثغرات ستمكنه من النفاذ إليها لالتهامها ونهب ما فيها من خيرات ... ولذلك قرر الاستعمار أن يسرع فيعاجل مشروع الأفغانى قبل أن يتحقق له النجاح ... فسعى كل من القنصل الفرنسى والقنصل الإنجليزى بالقاهرة إلى حاكم مصر الخديو توفيق (١٨٥٢ ـ ١٨٩٢) ودسوا عنده لجمال الدين ، وأخافوه منه ومن حزبه ، وأوهموه أن نشاطه يمثل الخطر الأكبر على

عرشه وعلى انفراده بحكم البلاد ، بل وقالوا له : إن الأفغانى يسعى لتحويل مصر إلى جمهورية ؟!... واستمر سعيهما فى ذلك حتى استجاب لهما الخديوى، فقرر نفى جمال الدين من مصر!... وفى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ، وبينما كان الفيلسوف الثائر العظيم عائداً إلى منزله ، أحاط به الجند ، واقتادوه إلى قسم الشرطة ، وأدخلوه إلى سجنه ـ (التخشيبة ـ الحجز !) ... ومع ضوء الفجر ـ ودون أن يدرى أحد من أنصاره ، اقتادوه من السجن إلى عربة مغلقة ، وذهبت به إلى محطة السكك الحديدية ، ومنها أركبوه القطار ، تحت الحراسة المشددة ، إلى ميناء السويس ... ولم تكن مع الرجل ملابس ولا أمتعة ... بل لقد جردوه من الجنيهات العثمانية الثلاثة التى كانت فى جيبه !.. وفى السويس صعدوا به إلى الباخرة التى ستبحر به إلى الهند ـ التى يحكمها الإنجليز !ـ

وقبل أن تبحر السفينة علم قنصل إيران فى السويس بالأمر ، فذهب وقابل جمال الدين ، وعرض عليه بعض المال ، فاعتذر ، وقال له : « وفر عليك مالك ، فلربما كانت حاجتك إليه أكثر ... أما أنا فإن الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته ؟! » ..

وبينما كانت السفينة تبحر بالفيلسوف الثائر منفيا من مصر يوم الثلاثاء ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ م ، كانت حكومة الخديو توفيق توزع على الصحف بيانا تبرر فيه فعلتها ، وتتهم جمال الدين « بأنه رئيس جمعية سرية ، من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا ! » .

لقد جدد الدين ـ حتى تتجدد الدنيا ـ وأقام لذلك أول حزب سياسى فى تاريخنا الحديث ... لكنهم اتهموه بالعمل على « فساد الدين والدنيا ؟! » ..

ولم تكن مثل هذه الاتهامات تحزن جمال الدين ، فلقد وطن نفسه على استقبال الموت شهيداً باسم الثغر فى سبيل الهدف العظيم الذى سعى ويسعى إليه ، وقال فى ذلك : « إن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة ! »، والنفى فى سبيل ذلك « سياحة » .. والقتل « شهادة » ... وهى أسمى المراتب .

وهكذا بدأت مرة أخرى « سياحة » جمال الدين بعد أن أقام بمصر قرابة التسع سنوات ! ..

ووصلت الباخرة بالفيلسوف الثائر إلى الهند فنزل فى بمباى ، وبعد أن كان ينظر من خلال مصر إلى الشرق ووطن العرب وعالم الإسلام ، أخذ بعد نفيه من مصر يفكر أكثر وأكثر فى الرابطة والتنظيم الذى تمتد خلاياه وفروعه ومجموعات مناضليه بكل أجزاء الشرق ، وخاصة تلك الأجزاء التى تتعرض أكثر من غيرها لهجمات المستعمرين الغزاة ..

* وعندما تفجرت الثورة العرابية بمصر عام ١٨٨١م ، بقيادة (الحزب الوطنى الحر) الذى كونه الأفغانى ، أسرعت الحكومة الإنجليزية التى تحكم الهند فنقلت جمال الدين من « بمباى » إلى « كلكته » وعزلته عن الناس والعالم والأخبار ، وبعد أن غزت الجيوش الإنجليزية مصر وهزمت المقاومة الثورية وتحقق هدف الاستعمار ، فكوا حصار الفيلسوف الثائر ، وطلبوا إليه أن يغادر البلاد .. فالحصار مضروب من حوله بالهند .. ولن يستطيع دخول مصر بعد احتلالها .. وبعد ذلك ليذهب بعيدا حيث يشاء ؟! .

* ولكن الرجل لم ييأس .. بل لقد أخذ ينسج الخيوط ويقيم الروابط ويؤلف القواعد لتنظيم سياسى وفكرى جديد يستطيع به أن يواجه المرحلة الجديدة ،

بعد أن وقعت الكارثة واحتلت إنجلترا مصر وأخذت تهدد منها ما جاورها من البلاد ... وبعد أن قضى الأفغانى عاما فى الهند ـ عقب هزيمة الثورة العرابية ـ مهد فيه لإقامة نواة تنظيم (العروة الوثقى) سافر بالبحر من الهند قاصداً باريس ... وعندما كانت السفينة بقناة السويس كتب رسالة بعث بها إلى تلميذه الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ـ وكان منفيّا فى بيروت ضمن من نفى من قادة الثورة العرابية ـ وطلب منه أن يلحق به فى باريس للعمل فى التنظيم الجديد ... تنظيم « العروة الوثقى » .



.. والتَّنْظيم ...

نظر الأفغانى إلى الشرق - ببلاده المختلفة - وإلى أبناء هذا الشرق بعقائدهم وأديانهم المتعددة ، فوجد الجميع يتعرضون لموجة من الغزو والاحتلال والنهب شاركت فيها أوروبا الاستعمارية جمعاء ، والإنجليز على وجه الخصوص ..

وكانت الرحلات التى قام بها - فى سنوات شبابه ونضجه - إلى كثير من مدن الشرق وبلاده قد جعلت له الأصدقاء والأنصار والتلاميذ فى الكثير من هذه البلاد ، بل لقد كان له تلاميذ ومريدون سمعوا عنه ، وتتبعوا أخبار نضاله، وتنسموا أحاديث مجالسه ، ودونوا خطبه ومقالاته وجعلوا منها هاديا وإماما ، وذلك دون أن يروه أو يسمعوا منه أو يصافحوه .... ولقد بدأ الأفغانى فاختار صفوة وخلاصة من الرجال الذين عقدوا العزم على قيادة الأمة وتنبيهها للخطر الزاحف عليها ، واجتمعت فيهم المقدرة على بث الأمل فى وقت تسرب فيه اليأس إلى نفوس الكثيرين ... ومن هذه الصفوة تكونت قيادة التنظيم الجديد .. تنظيم (جمعية العروة الوثقى) السرى ! .. ثم بدأت الاتصالات السرية بين قيادة التنظيم وبين الصفوة التى يرشحها ماضيها وفكرها لعضوية (العروة) أو للتعاون معها ، أو لتنفيذ أهدافها ، فى مختلف المدن والأقطار ...

ولم يكن الأفغانى قد زار أوروبا حتى هذا التاريخ .... ولم يكن قد تعلم الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية بعد ..... ولم يكن قد درس شيئا من تجارب التنظيم الثورى والسرى عند الأوروبيين وفى تراثهم .... ومع ذلك جاء تنظيم (جمعية العروة الوثقى) دليلا على عبقرية فى التنظيم ونضج فى العمل

التنظيمى ، والنشاط السياسى السرى غير عادى وغير مألوف ، خصوصا بمقاييس العصر الذى قام فيه ... بل إن الدارس للقواعد التنظيمية (للعروة الوثقى) ، من خلال لائحتها ، ورسائلها السرية ، والقسم الذى يقسمه الأعضاء الجدد عند الانضمام إليها ، يجد فيها من قواعد التنظيم ومبادئه ما لم يكن قد عرف يومئذ فى التنظيمات الثورية الأوروبية ؟!.. فمن أين جاء الأفغانى وزملاؤه بهذا الفكر التنظيمى ؟؟ .. لقد جاءوا به من تراث الحضارة العربية الإسلامية والتاريخ الإسلامى فى « التنظيم » .. فعلى امتداد قرون وقرون كانت بلاد العرب والإسلام تموج بحركات المعارضة وتنظيماتها الثورية ، من (إخوان الصفا) إلى (القرامطة) إلى (المعتزلة) إلى (الإسماعيلية) إلى كثير من فرق الشيعة وحركات التصوف وتنظيماتها المعارضة والثورية ... ولقد عرفت هذه الجماعات ومارست قواعد فى التنظيم السرى ، وأصبحت لها فيه خبرات ، كونت تراثا غنيا استفاد منه الأفغانى ، وكانت (جمعية العروةالوثقى) امتدادا متطورا لهذا التراث فى التنظيم ؟!..

وحتى اسم التنظيم - (العروة الوثقى) - جاء ثمرة من ثمرات الارتباط بواقع الأمة وتراثها الفكرى - فالحديث عن (العروة الوثقى) قد جاء فى آيتين من آيات القرآن الكريم ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (٢٥٦) ﴾(١) وفى الآية الثانية يقول الله سبحانه : ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ**

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) ﴾(١) .. كما جاء ذكر هذا الاسم الجميل ، المعبر عن الوحدة المتينة والارتباط القوى ، فى الأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرت فى (صحيح البخارى) و(صحيح مسلم) و(مسند الإمام أحمد بن حنبل) و(سنن الإمام ابن ماجه) .. وهى من أهم كتب الحديث النبوى الشريف ..

ومن المعنى البسيط والواضح لكلمة (العروة) يظهر الهدف من التنظيم .. فـ « العروة » هى : الفتحة فى ثوب الإنسان التى تدخل فيها « الأزرار » فيصبح الثوب محكما يضم الجسم ويحفظه ويحميه من الأخطار ويمنعه من الانفراط.... و « العروة » لاتكون صالحة ونافعة إلا إذا « عقدت » حولها الخيوط ؛ حتى لا تتسع بكثرة الاستعمال فتنفلت منها « الأزرار » ، وكل خيط من هذه الخيوط التى تدور حول « العروة » يسمى « عقدا » !..

ولذلك وجدنا قادة هذا التنظيم يختارون له اسم(العروة الوثقى) ... ولما كان نطاق عمله ومجال نشاطه هو بلاد العرب والشرق الذى يتعرض لغزو الاستعمار ، فلقد سموا كل تنظيم من تنظيماته وأقسامه الفرعية باسم (العقد) ... فهى « عقود » تلتف وتجتمع لتكون (العروة) التى تمثل الرابطة الجامعة للمناضلين ضد الاستعمار ؟!..

ونحن عندما ننظر فى تراثنا الفكرى والحضارى نجد هذا التراث يسمى قادة الرأى وزعماء الأمة (أهل الحل والعقد) ؛ لأنهم هم القادرون على فك المعضلات ، وعلى إحكام الأمور ، وإبرامها !... كما نجد فى تراث دولة (القرامطة) الثورية أنها قد كونت مجلسا يشترك مع رئيس الدولة فى إدارة

---

(١) سورة لقمان : ٢٢ .

شئون البلاد ، وكان هذا المجلس يسمى (مجلس العقدانية) ؛ لأنه مؤلف من قادة التنظيمات الفرعية ، أى : من رؤساء (العقود) ؟!..

وهكذا ... فسواء من حيث الاسم ، أو من حيث المعنى والمضمون ، كان اسم (العروة الوثقى) ثمرة من ثمار التراث الحضارى للأمة ، واستخداما عصريا لكلمات محبوبة ومعبرة من هذا التراث الذى أبدعته الأمة فى «التنظيم » !..

وبسبب السرية الشديدة التى اتبعت فى إنشاء هذا التنظيم ، والتى استمرت مفروضة على تنظيماته وأغلب مجالات نشاطه ، منذ نشأته وطوال حياته .. وأيضا لندرة الأوراق والكتابات التى كتبت عن هيكله التنظيمى وقواعد العمل فيه ، والندرة الشديدة لما بقى من هذه الأوراق ، فإن المعلومات قليلة جدا عن معالم هذا التنظيم ... ولكن الجمع لبقايا هذه الوثائق والأوراق ، والقراءة المتأنية فى المراسلات السرية التى دارت بين قيادة التنظيم وقواعده - (عقوده) - ، والتأمل فى اللمحات والإرشادات « التنظيمية » التى وردت فى مقالات « الجريدة » التى نطقت باسم هذا التنظيم وعبرت عن سياسته - (جريدة العروة الوثقى) - ... إن ذلك كله كفيل بأن يكشف لنا عن صورة واضحة لمعالم تنظيم (جمعية العروة الوثقى) وللقواعد والخبرات التنظيمية التى سادت فيه ، وأيضا للأهداف التى قام لتحقيقها للعرب والمسلمين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ...

* ولقد كان نجاح الإنجليز فى احتلال مصر ١٨٨٢ م هو السبب المباشر فى إنشاء تنظيم (جمعية العروة الوثقى) .. لما يمثله هذا الحدث الذى زلزل أرجاء

الوطن العربى والشرق عموما من خطر يتعدى حدود مصر .. فالأفغانى كان يعتبر مصر « باب الحرمين الشريفين » ـ الحرم المكى وحرم المدينة المنورة ـ ويعدها القطر الأكثر تقدما ، والمؤهل ـ بالتطور والتقدم ـ لأن يكون النموذج الذى يحتذيه الجيران ، لأن هؤلاء الجيران مقتنعون بالدور القيادى لهذا البلد فى وطن العرب وعالم الإسلام .. ولذلك فإن حادثة احتلال مصر ـ كما تقول جريدة (العروة الوثقى) فى المقال الأول من العدد الأول الذى صدر منها ـ «قد أيقظت أفكار العقلاء » فنظموا أنفسهم فى عدد من الأقطار الشرقية ، وخاصة فى مصر والهند ... وشرعوا ـ من خلال هذا التنظيم ـ يدرسون سر تخلف البلاد العربية والشرقية ، ويبحثون وسائل التقدم والنجاح .. وفى مقدمة هذه الوسائل : توحيد الكلمة وضم الصفوف ، فى كل بلد ، ثم فى مجمل البلدان وكما يقول « القسم » الذى صاغه التنظيم ليقسم به العضو الجديد عند انضمامه « للعروة » ، فإن الهدف هو : « إحياء الأخوة الإسلامية » ، بحيث تصبح منزلتها هى منزلة « الأبوة والبنوة الصحيحتين »!..

كما تقرر أن يكون من مهام هذا التنظيم إعادة النظر فى أمر نظام الحكم فى البلاد الإسلامية ، والشروط التى لابد منها فيمن يتولى السلطة العامة ؛ والواجبات التي تجب على الحكام تجاه الرعايا والشعوب ...

وأيضا فمن مهام (جمعية العروة الوثقى) طرق كل السبل والأبواب واستخدام كل الوسائل التى تجلب القوة والقدرة للإسلام والمسلمين : القوة العقلية والمعنوية ، ، والقدرة المادية والعملية ... وبالتنظيم وحده ، وليس بجهود الأفراد المبعثرة ، يمكن تحقيق ذلك ؛ لأن التنظيم ـ كما تتحدث عن ذلك مراسلات قيادته السرية إلى أعضاء (العقود) ـ هو الذى يحقق اجتماع

الأفكار واتحاد الإمكانيات ، الأمر الذى يعين على إنجاز الأعمال العظيمة التى لا تقدر على إنجازها عزيمة الفرد ولا يكفى لتحقيقها عمر الفرد أو الأفراد .. لقد حددت القيادة دور التنظيم القيادى فى الأمة عندما شبهته بدور العقل ، أو القوة العاقلة فى بدن الإنسان ! .. ومثل هذا التنظيم ، وما يحقق من إنجازات كبرى هو الكفيل بغرس الأمل فى النصر بقلوب الأمة بعد أن تسرب إليها اليأس من جراء ما حقق الاستعمار على أرضها من انتصارات !.. ذلك هو قانون الحياة ، يعلمه المؤمنون عندما ينظرون فى الدين ، ويطالعه الناظرون فى تاريخ الأصدقاء والأعداء على السواء .. فهؤلاء الأعداء « لا يمتازون عنا فى شئ من خواص الخلقة ، وغاية ما عندهم أنهم لا يحقرون عملاً ، ولا يقطعون أملا ، ولا تأخذ أحدهم رهبة فى أداء ما يوجبه عليه دينه ووطنه ! » كما تقول هذه المراسلات .

وهذا التنظيم الذى فرض الحصار والنفوذ الاستعمارى على قيادته العليا أن تصدر جريدته من باريس ، كان يلتقى فى المجتمعات الأوروبية بالعديد من المفكرين الأحرار والمناضلين ضد الاستعمار - أفراداً وأحزاباً وجمعيات - كما كان يلتقى - فى السياسة الدولية - بتيارات وقوى تتعارض مصالحها مع السيطرة الاستعمارية الإنجليزية التى كانت لها الغلبة فى الشرق العربى والإسلامى ، وضدها يتوجه معظم نضال التنظيم .. ولكل ذلك كانت سياسة التنظيم - كما حددتها جريدته - مهتمة بالتحالف مع كل القوى الأوربية المعادية للاستعمار والمناضلة ضده ، وأيضاً بالتحالف مع الحركات الاجتماعية المعادية للاستغلال ، والتى هى بطبيعتها معادية للاستعمار .. وكما تقول جريدة (العروة الوثقى) فى أول مقال افتتاحى لها ، فإن الجمعية قد عقدت

«الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهل أوروبا » ..

وهذا التنظيم السرى .. لم تكن السرية اختياراً سعى إليه أو رغب فيه .. وإنما كانت أمراً فرضته عليه ظروف الحصار الاستعمارى .. فالتنظيم ، واجتماعات أعضائه ، ومراسلاتهم مع قيادتهم ، ووصول الجريدة من باريس إلى الأعضاء فى مختلف بلاد الشرق العربى والإسلامى .. وأموال التنظيم ، وسجلات أعضائه ورسله ودعاته .. الخ .. الخ .. كل ذلك كان فى نطاق من السرية والكتمان .. حتى لقد كانت المراسلات السرية تستخدم كلمات رمزية أيضاً للتعبير عن بعض الأمور ! .. فبدلاً من أن تقول الرسالة للأعضاء مثلاً : إن الجريدة ستصل إليكم ، تضع كلمة (الوسيلة) مكان كلمة (الجريدة) ؟! .. بل لقد استخدموا الشفرة الخاصة فى المراسلات ، وفى عناوين هذه المراسلات ! ..

ومن بين الأوراق القليلة التى بقيت من وثائق تنظيم (جمعية العروة الوثقى) لائحة (العقد الرابع) من عقود هذا التنظيم ، ومنها نتبين هيكله التنظيمى ، ومهام المجموعات المنظمة ، وسبلها فى الدعوة لأفكارها ، والعلاقة بينها وبين قيادة التنظيم .. الخ .. الخ .. وعلى سبيل المثال :

١ ـ فالحد الأدنى لعدد أعضاء « العقد » ـ أى المجموعة ، أو الخلية ـ هو ثلاثة أعضاء .. وأعضاء « العقد » يجتمعون مرتين فى كل أسبوع .

٢ ـ وفى الجوانب الفكرية الدينية يهجر أعضاء التنظيم المذاهب والآراء التى فرقت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، ويعودون فيأخذون فكرهم الدينى من أصوله

الأولى : من القرآن والسنة ، وفى التاريخ السياسى يستلهمون تجربة النبى ﷺ والخلفاء الراشدين فقط ! .. وذلك حتى يتوحد فكرهم بالابتعاد عن استلهام التجارب والآراء التى فرقت الأمة وقسمت صفوف المسلمين .. كما يدرس الأعضاء من صفحات التاريخ السياسى : لماذا كانت انتصارات المسلمين ؟ .. ولماذا تخلفوا ، وأصبحوا على ما هم عليه الآن ؟ ! ..

٣ ـ ويدرس أعضاء « العقد » الواقع الراهن لبلادهم ، وكيف زحف عليها الأعداء .. وأحكام الجهاد والتكاليف الواجبة على كل مواطن أمام زحف هؤلاء الأعداء على بلاد الإسلام .

٤ ـ ويتعلم الأعضاء ضرورة الدعوة إلى أهداف التنظيم بكل السبل والوسائل المناسبة فى المناخ الذى يعيشون فيه ، وتعين اللائحة بعضاً من هذه السبل ، مثل تأليف الكتب فى أحوال الأمة وفكرها ، وما يقدمه التنظيم من تجديد وإصلاح وعلاج .. وبذل المال فى سبيل العمل العام .. وحمل السلاح ـ للقادرين عليه ـ لمقاتلة الأعداء ! ..

٥ ـ وتدعو اللائحة الأعضاء إلى اليقظة فى التزام السرية والكتمان فى كل أمور التنظيم .. فالدعوة للتنظيم واجب دائم ، واختيار الأعضاء الجدد ـ من ذوى الرأى والمكانة والأدوار القيادية فى مجالات عملهم ـ مهمة مقدسة ومستمرة ، لكن مع توفير السرية بحيث لا ينكشف أمر « العقد » لغير من هم أهل للثقة والاطمئنان ! ..

٦ ـ وعندما يقترح أحد الأعضاء ترشيح واحد أو أكثر لعضوية التنظيم ، ويزكيه ، فعليه أن يشرح لأعضاء « العقد » مبررات هذه التزكية وذلك الترشيح

وعلى الأعضاء أن يدرسوا الأمر .. ولا يصبح المرشح موضعاً للثقة ومقبول العضوية إلا عند اتفاق آراء الأعضاء وإجماعهم على الثقة فيه ! ..

٧ - والمداولات التى تتم فى اجتماع « العقد » تسجل أفكارها بالتفصيل ، ثم توجز هذه الأفكار على وجه الإجمال ، ثم تحدد المبادئ والقرارات التى استقرت عليها الآراء .. وجميع الأعضاء ملتزمون بتنفيذ ما اتفق عليه أكثرية المجتمعين ، ذلك أن من عبارات « القسم » الذى يقسمه العضو عند الانتساب ، قوله : « .. وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين ، فى شئ يتفق رأى أكثرهم عليه ! » .

٨ - يجتهد أعضاء كل عقد ، بالفكر والممارسة ، حتى تصبح المصلحة العامة للجمعية والوطن والأمة - عند كل واحد من الأعضاء - بمنزلة مصلحته الخاصة ، أو أعلى من مصلحته الخاصة ، على أن تكون الممارسة والتطبيق هى المعيار والدليل على ذلك ، وليس العبارات والأقوال ! .. لأن ذلك هو مقياس النجاح فى تحقيق « الأخوة » التى دعا التنظيم إلى جعلها بمنزلة الأُبوة والبنوة الصحيحتين .. وكما تقول نصوص اللائحة ، فإنه فى كل الأحوال « يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل هى بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى . ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله ، أو مساوياً ، والعمل هو : بذل المال والروح ! .. » .

٩ - وتدعو اللائحة أعضاء العقد إلى توسيع دائرة الدعوة إلى مبادئ التنظيم وعضويته ، وذلك بإرسال الرسل إلى أرجاء الوطن أو الإقليم الذى يعيشون فيه ، وكذلك إلى الأقاليم المجاورة لإقليمهم .. على أن يكون هؤلاء

الرسل من أكثر الأعضاء قدرة ودراية بالدعوة والتنظيم ، وأن تكون لهم ملكات القادة التى تعينهم على حسن التصرف فى الأزمات ، دون الحاجة إلى مشورات فى وقت يعز فيه المشيرون ! .. وعلى هؤلاء الرسل أن يطلعوا أعضاء العقد على صورة كاملة لما شاهدوه وصادفوه وأنجزوه، بحيث يكونون حلقة وصل جيدة التوصيل بين الموطن الذى ذهبوا إليه وبين قيادة التنظيم ، تنقل انفعالات الناس وموقفها من فكر التنظيم ، كما نقلت إلى الناس فكر التنظيم .

كما أن باستطاعة أعضاء العقد أن يتدارسوا ويتفقوا على توجيه رسل ليسوا أعضاء فى التنظيم ، بل وربما لا يعلمون بوجوده بعد إقناعهم ببعض الأهداف العامة التى يدعو إليها التنظيم .. وهؤلاء الرسل يتم اختيارهم ـ فى العادة ـ من بين الشخصيات العامة التى تكون مرتبطة بروابط عامة مع أعضاء التنظيم !..

١٠ ـ ويتم الإنفاق على أنشطة العقد العامة ، وعلى الأماكن التى يجتمع فيها أعضاؤه وكذلك إعانة المحتاجين من أعضائه ، وإنقاذ من تصيبهم المحن والمآزق والكوارث .. يتم الإنفاق على كل ذلك ، وغيره ، من الرصيد المالى «للعقد » وهو يتكون من :

أ ـ رسم مالى يدفعه كل عضو جديد عندما يقبل عضواً فى العقد .. والحد الأدنى لهذا الرسم مائة فرنك ، ومتوسطه مائتان ، وأعلاه ثلاثمائة ـ وكان «الفرنك » عملة متداولة ببلاد الشرق فى ذلك الحين .. ولم يكن يعفى من الرسم المالى هذا إلا العلماء والصالحون الفقراء الذين لا يملكون قيمته ، والذين يعوضون بدلاً منه بذل جهد زائد فى الدعوة لمبادئ التنظيم وكسب الأنصار لعضوية « العقد » .

ب ـ الإسهامات المالية لكل عضو ـ حسب قدرته ـ عقب كل اجتماع يعقده «العقد » ، إذ كان لكل « عقد » صندوق للتبرع ، مغلق ، وله فتحة صغيرة من أعلاه ، وعقب كل اجتماع يحمله أصغر الأعضاء سنّاً فيطوف به على المجتمعين ، فيضع كل عضو فيه ما يناسب استطاعته ، دون أن يعرف الواحد مقدار ما أسهم به سواه ! ..

ولقد كان بكل عقد « أمين » للمال ، تجتمع لديه أموال العقد ، حيث يضعها فى مظروف يكتب عليه : « هذا مال حق التصرف فيه لعقد الإخلاص ، تحت رئاسة .. فلان .. » . ومن هذا المال يتم الإنفاق ، بعد موافقة الأعضاء ـ جميعهم أو أكثريتهم ـ على شئون « العقد » ودعوته .. وباستطاعة كل عقد أن ينمى ما يتوفر لديه من مال للعقد بعد النفقات ، وذلك وفقاً للعرف فى الإقليم الذى يعيشون فيه .. وما زاد عن احتياجات العقد من المال ، فمن حق القيادة العليا توجيهه إلى مواطن أخرى للدعوة والدعاة ..

وإذا احتاجت نفقات العقد الطارئة إلى ما يزيد على المال المجموع لدى «أمين المال » كان على الأعضاء أن يسهموا بالقدر الذى يكفى لسد المطلوب .

١١ ـ ومن واجبات كل « عقد » من عقود التنظيم أن تكون لديه أربعة دفاتر ـ (سجلات) ـ أحدها : لحصر أسماء أعضاء « العقد » .. وثانيها : لحصر أسماء الرسل والدعاة الذين يرسلهم « العقد » لنشر مبادئه والدعوة لأفكاره .. وثالثها : لحصر الأموال المجموعة لدى « أمين المال » . ورابعها : لحصر الأموال المنصرفة على شئون العقد وأنشطته ..

١٢ ـ وتحدد لائحة « العقد » واجبات الأعضاء فى حماية بعضهم بعضاً ،

ونصرة كل واحد منهم للآخرين ، حماية حقيقية ونصرة فعلية ، فى كل المواطن التى تستدعى الحماية والنصرة ، فتقول : إنه « على رجال العقد أن يحمى بعضهم بعضاً ، ويعين كل منهم باقيهم ـ بقدر الاستطاعة ـ والاستطاعة لا تفسر بالأهواء ، حتى يعد كل وهم عجزاً ، وإنما هى المعروفة عند المخلصين ، التى لا يعدمها الإنسان ما دام حيّاً قادراً على الحركة ؟! .. »

١٣ ـ ولما كانت (العروة الوثقى) قد ضمت « عقوداً » انتشرت فى أقطار عدة ، فلقد كان طبيعياً أن تختلف أمام أعضائها الملابسات والمهام والواجبات، فى عدد من الأمور ـ الجزئية أو الكبرى ـ ومن هنا كانت مرونة القيادة العليا للجمعية عندما جعلت مبادئها وبرنامجها العام يدور حول الكليات والقضايا التى لا يختلف الموقف منها بين قطر وآخر ، على حين تركت القانون الداخلى لاجتماع كل « عقد » ليضعه أعضاء العقد أنفسهم ، وذلك حتى يأتى ملائماً للمناخ الذى يعملون فيه .. كما جعلت من حق أهل كل « عقد » أن يزيدوا فى قانون الجمعية ، وفقاً لأحوال بلادهم ، بشرط أن يقترحوا ذلك على قيادة التنظيم أولاً ، وأن تأتيهم الموافقة على ذلك بعد المراجعة والدراسة لهذه المقترحات .

١٤ ـ ومن المراسلات السرية القليلة التى عثر عليها ، والتى كتبها الشيخ محمد عبده ، بوصفه نائب رئيس التنظيم ـ وكان جمال الدين الأفغانى هو الرئيس ـ نعرف أن رغبة عدد من الأعضاء فى الانضمام (للعروة الوثقى) وتكوينهم « عقداً » من عقود التنظيم ، لم يكن يعد أمراً نهائيّاً إلا بعد أن تعتمد اللجنة العليا والقيادة العامة للتنظيم عضوية هذا « العقد » وقبول هؤلاء الأعضاء .. ونعلم أيضاً أن كل « عقد » من عقود التنظيم كان يقوم « بانتخاب » ـ

(اختيار) رئيسه ، أى أن المسئوليات داخل التنظيم إنما كانت تمارس بالأسلوب الديمقراطى ! .. كما كانت هذه المراسلات تطلب إلى أعضاء العقد « ضبط » العضوية فى « عقدهم » وتقديم البيانات الدقيقة والضرورية عن الأعضاء ـ فى سرية تامة ـ إلى قيادة التنظيم .. ومن هذه البيانات ، على سبيل المثال : أسماء الأعضاء ، وألقابهم ، ومواضع إقامتهم ، وما يتميز به كل عضو من إمكانيات وطاقات .. الخ .. الخ .

١٥ ـ ولقد أشارت بعض وثائق التنظيم ومراسلاته إلى بعض أساليبه فى اجتذاب الأعضاء الجدد وتجنيد الأفراد البارزين فى مجالاتهم كى ينخرطوا فى صفوفه .. فلقد كانت القيادة تنصح الأعضاء أن يبدأوا أولاً بالأحاديث غير المباشرة ، وأن يكون مدخلهم هو عرض قضايا الواقع الراهن ، وما حل ببلاد الشرق وعالم العرب والإسلام من محن ونكبات ، فإذا ما حدث الاتفاق على تشخيص العلة والداء ، انتقل الحديث إلى العلاجات الملائمة لهذا الداء ، حتى إذا تم الاتفاق على الدواء ، انتقل الحديث إلى الإشارة إلى أهمية الأداة والهيئة التى ترعى العلاج وتداوم عليه وتقود شئونه ... فإذا ما حدث وتمنى « المرشح » قيام مثل هذه الهيئة ، كان على العضو أن يكاشف المرشح بوجودها، ويطلب إليه الانخراط فى عضويتها ؟! .. وكثيراً ما كانت أعداد جريدة (العروة الوثقى) تقوم بدور التمهيد الفكرى ، والخيط الذى يقود المرشح ـ بعد الحوار معه حول أفكارها وأهدافها ـ إلى عضوية التنظيم ! .. ومن العبارات التى تحدد أسلوب التنظيم فى تجنيد الأعضاء الجدد ما جاء فى إحدى الرسائل السرية المرسلة من قيادته إلى أحد أعضائه ، والتى تقول عن مهمة تجنيد إحدى الشخصيات وضمها (للعروة) .. تقول الرسالة للعضو : « ..

فتقدم لدعوته ، وادخل إليه ـ ابتداء ـ من طريق لا يعرفه ، وتلطف له فى القول وإن شئت أطلعته على شئ من مقالات (العروة الوثقى) فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضاء ، فإما أن يكتب إلى ، وإما أن يستعد لتلقى كتاب منى . ثم أسرع إلى بالخبر ! .. » .

١٦ ـ وكانت قيادة التنظيم تنصح أعضاءه بالمرونة فى علاقاتهم بالآخرين، بحيث يكون من حول كل عضو من الأعضاء حلقات وحلقات من الأنصار والأعوان ، الذين يستجيبون لفكره وآرائه ، حتى وإن لم يكونوا أعضاء فى التنظيم ، أو يعلمون حتى بوجود مثل هذا التنظيم .. فهؤلاء الأنصار هم الحماية الحقيقية لأعضاء التنظيم ، وهم وسائل الاتصال بين فكره وتعاليمه وبين الجمهور .

١٧ ـ وإذا ما حدث ورغب عضو فى التخلى عن عضويته ، فإن تعاليم (العروة) كانت تنصح بالمرونة التى تحافظ على ما يمكن المحافظة عليه من العلاقات مع مثل هؤلاء .. فالذين يضعفون عن تحمل أعباء العضوية ولا يصلحون لمهامها قد يكونون صالحين لما هو أقل من الواجبات والمهام . وفى ذلك تقول إحدى الرسائل السرية وهى تنصح بذلك أحد الأعضاء : « .. وإذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ، ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه! .. » .

أما إذا كان الموقف بإزاء « جاسوس » قد اقترب من التنظيم ليتجسس عليه ثم اكتشف أمره فإن للمرونة هنا معنى آخر . وعندما بعثت إحدى الحكومات الاستعمارية واحداً من عملائها إلى باريس ، واقترب من جمال الدين الأفغانى وأخذ يقدم العديد من الخدمات الصحفية ـ وخاصة فى ترجمة الأخبار ـ

للجريدة .. ثم اكتشف الشيخ محمد عبده دوافعه وأهدافه استغنى عن جهوده ، وأبعده عن العمل ، ثم أرسل إلى أعضاء التنظيم فى بلده يحذرهم منه ويقول : « .. وذلك الذى وفد إليكم هو جاسوس للحكومة القائمة فى دياركم ، فاحذروه ، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء ، لا يتبين منه علمكم بحاله ، وتحفظوا منه كل التحفظ ، وإياكم ومكاشفته بشئ مما أنتم عليه ! . » .

١٨ ـ ولقد كشفت المراسلات السرية لقيادة التنظيم مع أعضائه عن رحلات سرية كان يقوم بها قادة هذا التنظيم ، وهم متخفون عن أعين الحكومات والجواسيس وعملاء الاستعمار ، زاروا فيها البلاد التى تناثرت فيها تنظيمات (العروة) و « عقودها » .. وخاصة عندما كان العمل التنظيمى يتطلب إقامة فروع جديدة ، أو عندما كانت الأحداث السياسية والثورات المعادية للاستعمار تتطلب اقتراب القيادة من مواقع الأحداث لتدرسها عن قرب ، وتصدر تعليماتها التى تأخذ طريقها للتنفيذ دون إبطاء .

وفى عدد من الرسائل يتحدث الشيخ محمد عبده عن رحلاته السرية التى حملته من باريس إلى مصر وغيرها من بلاد الوطن العربى لينهض ـ عن قرب ، ومباشرة ـ بمهامه ، كنائب لرئيس التنظيم .. ولقد كانت أحداث الثورة المهدية فى السودان أهم ما دعا إلى هذه الرحلات .. وهو فى الحديث عن هذه الرحلات يستخدم الرمز فى التعبير .. فمرة يقول : « .. لقد حولتنى الحوادث من الغرب إلى الشرق !! لتكون المواجهة أشد من المكاتبة ! .. » .. وعندما يكون سبب الرحلة هو إقامة فروع جديدة للتنظيم يرمز لهذه المهمة فيقول : « .. لقد حولتنى ظروف الحوادث عن الغرب إلى الشرق ، حيث يقصد إحكام (العروة) أو تأييد القوة بالقوة ؟! .. » وفى رسالة أخرى يكتبها وهو مختبىء

عن أنظار الحكومة الاستعمارية ، يقول : « لقد حولتنى مهمات الشرق عن الغرب .. حتى أكون على مقربة من « معاقد » العروة ومكامن القوة .. واليوم أكتب إليك من وراء ستار ! .. » وفى رسائل أخرى يتحدث بالرمز ، عن الثورة المهدية فى الجنوب ، جنوب مصر ، أى السودان ، وكيف أحدثت الضوضاء وأرسلت النداء وراء النداء ، الأمر الذى استدعى أن يقوم برحلة سرية ، زار خلالها العديد من المدن والبلاد ، التى قام فيها بمهام تنظيمية تؤسس وترعى «عقود » (العروة) . ثم أكمل رحلته سرّاً متخفياً عن العيون ، حتى دخل مصر وهو الذى خرج منها منفيّاً بحكم من حكومتها الاستعمارية ـ يقيم فيها تنظيمات (العروة) ويدرس شئون ثورة المهدى فى السودان ! . يحكى الشيخ محمد عبده إشارات رمزية عن هذه الرحلة عندما يكتب عنها فى مراسلاته فيقول : « لقد تعاظمت حوادث الشرق ، خصوصاً ما مال منها نحو الجنوب ؟! .. فلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ؟! ومسمع من النداء ؟! . فكانت أوقاتى من فراقك ، فى أسفار .. فمررت على بلاد كثيرة .. عملت فى جميعها على إحكام (العروة) وتمكين « عقودها » ثم يمضى الشيخ محمد عبده فيشير بالرمز ـ أيضاً ـ إلى دخوله سرّاً ومتخفياً إلى مصر ، فيقول : « وإنى بعد طوافى ببلاد كثيرة أكتب إليك اليوم من : بلاد بها فض الشباب تمائمى .. وأول أرض مس جسمى ترابها ؟! » .

فمصر ـ وحدها ـ هى أول بلد مس ترابها جسم الشيخ محمد عبده ؛ لأنها هى التى ولد فيها ؟! .. ثم يتحدث عن عيشه فيها مختفياً عن أعين الجواسيس وحكومة الإنجليز والخديوى توفيق فيقول : « .. وأنا اليوم فيها أتعرف الوجوه وأتنكر للعيون ؟ و لا يرانى من أهلها إلا المخلصون ، ولا يعرفنى فيها إلا العارفون ؟! ..» .

١٩ ـ ولقد كانت المراسلات السرية لجمعية (العروة الوثقى) تعلو صفحتها عبارة لا تخلو منها رسالة ، وهى دائمة لا تتغير ، وهذه العبارة هى : (لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وبيده الحول والقوة) ؟! .. ولقد كانت لهذه العبارة التى أصبحت بمثابة شعار هذه المراسلات معانى ذات دلالة على المهام التى ينهض بها هذا التنظيم . فأمام الزحف الاستعمارى الذى التهم أهم ديار العرب والمسلمين ، وامتد بنفوذه إلى مختلف أرجاء الشرق ، تسرب اليأس إلى كثير من النفوس ، وظنوا أن الحول والقوة بيد الاستعمار وجيوشه المنتصرة، حتى لقد خافوا قوة المستعمر وكادوا أن يعبدوها من دون الله ! .. فكانت (لا إله إلا الله) والتأكيد على الوحدانية ، وعلى أن الحول والقوة بيد الله وحده ، بمثابة النداء الإلهى لهؤلاء المستضعفين الذى أذهلتهم انتصارات المستعمر : أن تعالوا إلينا ، وافتحوا قلوبكم كى تمتلئ بالثقة فى الله ، وفى الذين يسيرون على هدى سننه وقوانينه فى الكون والمجتمع ، فتغيير ما بالنفس سيثمر حتماً تغيير الواقع المأساوى الذى نعيش فيه ! ..

٢٠ ـ أما أعضاء (العروة الوثقى) ، وهم الذين تحدثت عنهم لائحتها على أنهم بمثابة العقل فى الجسم والقوة العاقلة فى البدن .. أما هؤلاء الأعضاء فإن تربيتهم وإعدادهم كان يستهدف خلق كتيبة مناضلة مجاهدة ، تسترخص الروح فى سبيل المبدأ ، بل وأكثر من ذلك تسعى سعياً متصلاً إلى مواقع الصدام ومواطن الاستشهاد ! .. ذلك أن « طلب الشهادة هو أفضل ذخائر السعادة الإنسانية » كما تقول واحدة من رسائل هذا التنظيم ـ (تنظيم العروة الوثقى) ـ إلى أحد أعضاء هذا التنظيم ! .

.. والجريدة ...

وكان لابد لتنظيم (جمعية العروة الوثقى) أن يفكر فى إصدار جريدة تنطق باسمه ، وتعبر عن أهدافه ، وتنشر آراءه ... فمكان الكلمة المكتوبة فى وسائل نضاله وجهاده مكان عال وملحوظ .. ففى لائحته ـ كما سبق أن أشرنا ـ نص على أن تأليف الكتب هو واحد من واجبات « عقود » التنظيم !...

ولقد زاد من ضرورة صدور جريدة للتنظيم وجود قواعده و« عقوده » فى بلاد عديدة وأقطار متباعدة ، الأمر الذى يستدعى وجود « وسيلة » فكرية واحدة ، توحد الفكر وتقيم الصلات ... ولما كان هذا التنظيم سريا ، وأغلب المواطن التى انتشرت فيها « عقوده » قد خضعت لاحتلال الاستعمار أو دخلت فى مناطق نفوذه ، فلقد كان طبيعيا أن تصدر هذه الجريدة من مكان بعيد عن هذه المواطن والبلاد ... وبسبب من أن إنجلترا قد كان لها نصيب الأسد فى الزحف الاستعمارى الأوروبى على الوطن العربى وعموم الشرق يومئذ ، الأمر الذى خلق بعض التناقضات بينها وبين فرنسا ، فلقد كانت باريس هى العاصمة المرشحة كى تصدر منها جريدة (العروة الوثقى) !..

ولم يكن قرار صدور (العروة الوثقى) قرارا فرديا من رئيس التنظيم جمال الدين الأفغانى ، ولا مبادرة ذاتية من نائبه الشيخ محمد عبده ، وإنما كان قرارا من قيادة التنظيم ، معبرا عن رغبة الجمعية ، قام الأفغانى ومحمد عبده بتنفيذه !.. وفى المقال الافتتاحى الذى نشرته الجريدة فى العدد الأول منها حديث واضح عن هذه الحقيقة التاريخية ، فهى تقول : إن أعضاء (جمعية العروة الوثقى) « ... طلبوا عدة صور لنشر أفكارهم ... واختاروا أن يكون لهم

فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان - (لغة) - عندهم ، وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل ، فرغبوا إلى جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل نادى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول - (أى الأفغانى) - على الإجابة ، حمل الثانى - (أى محمد عبده) - على الامتثال . » !..

فهى - إذن - جريدة قد صدرت بقرار من الجمعية ؛ لتعبر عن « مشربها ومذهبها » أى فكرها وآرائها ، لتكون أداة الوصل ووسيلة الدعوة والتثقيف للتنظيم خاصة ولعامة المواطنين على وجه العموم ..

وعندما سافر جمال الدين الأفغانى من الهند قاصدا باريس ١٨٨٣ م .. بعد عام من هزيمة الثورة العرابية ، ونفى زعمائها ، وتفكك (الحزب الوطنى الحر) فى مصر ، وإغلاق جميع الصحف التى عبرت عن فكر هذا الحزب وآرائه ... كان الأفغانى يسعى لتنفيذ قرار جديد لتنظيم جديد بإصدار جريدة جديدة ، هى جريدة (العروة الوثقى) ... وأثناء عبور السفينة التى كانت تحمله لقناة السويس ، توقفت فى ميناء بورسعيد ، فكتب جمال الدين رسالة إلى الشيخ محمد عبده - الذى كان يعيش فى بيروت منفيا - يدعوه فيها إلى اللحاق به فى باريس ، للعمل على تنفيذ قرار إصدار الجريدة ، وكان تاريخ هذه الرسالة ٢٣ سبتمبر ١٨٨٣ م .. وفيها أخبر جمال الدين الشيخ محمد عبده أنه سيذهب إلى لندن ، قبل ذهابه إلى باريس ، وأنه سيرسل إليه من لندن رسالة فيها تفاصيل المشروع ..

ولقد وصل الأفغانى إلى باريس ، ونزل ضيفا على المستشرق الإنجليزى الحر « بلنت » (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢ م) الذى كان يناصر الثورة العرابية ويدافع عن زعمائها ويدعو حكومته للجلاء عن مصر ... وبدأ الأفغانى فتعلم اللغة الفرنسية ، وأقام الصلات الودية الوثيقة مع الساسة والزعماء الأحرار المعادين للاستعمار ، والذين يناهضون الاستعمار الإنجليزى على وجه الخصوص ، وأقام الصلات كذلك مع عدد من مفكرى باريس وفلاسفتها والمستشرقين الفرنسيين ، وأقام الروابط الفكرية والسياسية مع الشخصيات العربية والإسلامية والطلاب الشرقيين الذين يعيشون ويدرسون هناك .

وبعد أن لحق الشيخ محمد عبده بالأفغانى فى باريس ، بدأ التحضير لإصدار الجريدة .. وإن هى إلا أيام قليلة حتى صدر العدد الأول من (العروة الوثقى) . صدرت أعظم جرائد الشرق وأهمها فى ذلك التاريخ ، من غرفة متواضعة جدا ، على سطح أحد المنازل ، فى شارع « مارتل » بمدينة باريس !، صدرت أسبوعية ، كل يوم خميس ، وكان تاريخ صدور عددها الأول الخميس ١٣ مارس ١٨٨٤ م (١٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ) ... وكان الأفغانى هو مدير سياستها ، ومحمد عبده هو المحرر الأول - (أى رئيس التحرير) - ..

وكانت (العروة الوثقى) تطبع فى حجم المجلات الشهرية التى نراها ونألفها هذه الأيام (٢٥ × ٢٠ سم) على وجه التقريب .. وكان تقسيم غلافها وعباراته على هذا النحو :

العُروةُ الوُثْقَى لا انفصام لها	
* مدير السياسة : جمال الدين الحسينى الأفغانى . * ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية . قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه .	* المحرر الأول : الشيخ محمد عبده . * من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان ، رغبة نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان : « 6 Rue Martel a Paris »

ومنذ البداية ، وكما هو الحال فى المجلات الملتزمة بمبدأ محدد وفكر معين وتنظيم فكرى وسياسى ، حددت (العروة الوثقى) ماذا تريد ؟ فنشرت مقالا عنوانه : (الجريدة ومنهجها) أوجزت فيه المهام الفكرية والسياسية التى صدرت كى تحملها إلى القراء ... وفى هذه المهام نجد :

* الدفاع عن حقوق الشرق والشرقيين عموما ، وعن المسلمين على وجه الخصوص ...

وعندما لاحظ البعض وهمس البعض الآخر بأن (العروة الوثقى) تكثر من الحديث عن الإسلام والمسلمين، دون غيرهم ، وتوهّم عدد من الناس أن فى ذلك شبهة طائفية وتفرقة وتمييزاً بين أبناء الشرق الذين يتدينون بديانات

سماوية متعددة ، عادت (العروة الوثقى) لتنفى هذه الشبهة ، ولتؤكد على أنها جريدة سياسية لكل أبناء الشرق ، تنطق بلسان تنظيم سياسى يسعى لتحرير كل أقطار الشرق ، على اختلاف المذاهب وتعدد الشرائع وتمايز الديانات ، وأوضحت أنها إذ ركزت على المسلمين فلأنهم هم أغلبية سكان البلاد التى تعرضت وتتعرض لهجمة الغزو الاستعمارى ... فقالت فى هذا الموضوع :

« لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه ـ بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم ـ تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا ، من تطاول الأجانب عليهم ، والإفساد فى بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون ، وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها . وستكتب مقالة مفردة فى هذا الباب إن شاء الله ! » .

* ومحاربة اليأس ... فى وقت تسرب فيه اليأس إلى قلوب الكثيرين ... فأهم الأوطان الشرقية قد سقطت فى قبضة الاحتلال أو وقعت تحت نفوذ المحتلين .. وكثير من القيادات قد هادنت المستعمر ، وبعضها قد خان القضية التى سبق وناضل فى سبيلها !... والعدو المستعمر يشن على الأمة حربا فكرية تزعم أن العرب والمسلمين لم يسهموا بشيء جديد فى التراث الإنسانى فى الماضى ، وأنهم كانوا مجرد نقلة يحاكون اليونان والفرس والهنود ، وذلك حتى يجردهم من الاعتزاز بمجدهم الماضى ، فلا يطمحون إلى إعادة هذا المجد من

جديد !... وهو يتبع هذه الحرب الفكرية - التى تحتل العقل وتجرده من سلاحه - بالحرب المادية التى تحتل الأرض وتجرد أهلها من السلاح ومن موارد الثروة والاقتصاد !.. ثم هو يستخدم فى ذلك نفرا من أبناء الأمة خانوا أمانتها ، وأصبحوا أدوات لأعدائها ، ينشرون اليأس ويبشرون بالهزيمة والقنوط ...

لكن (العروة الوثقى) لجأت إلى كل السبل وإلى جميع الأسلحة فى بعث الأمل فى النفوس ، باعتباره المقدمة الأولية والضرورية للحركة المناهضة للاستعمار ... ووجدت فى تعاليم الإسلام ... وفى تاريخ العرب والمسلمين على عهد نهضتهم وفتوحاتهم ... وكذلك فى الطرق التى سلكها الأعداء حتى نهضوا من ضعف عصورهم المظلمة ... وجدت (العروة الوثقى) فى ذلك وأمثاله سبلا وأدوات بعثت بواسطتها الأمل فى نفوس الناس .

*** وتنبيه الأمة إلى خصائصها الحضارية المتميزة ...**

فلقد أدرك القائمون على (العروة الوثقى) أن هدف الغزوة الاستعمارية الحديثة لا يقف عند احتلال الأرض ، ونهب الثروات ، وإنما هو يريد أيضا تغيير الهوية الحضارية المتميزة للعرب والمسلمين ؛ لأن ذلك هو السبيل إلى احتوائهم حضاريا ، وتحويلهم إلى ذيول للغرب المستعمر وهوامش لحضارته ، ومن ثم ترسخ تبعيتهم له فى الحضارة كما هى فى الاقتصاد ، وفى ذلك الضمان الأكبر لعدم انبعاث مقاومة هذه الأمة لهذا المستعمر من جديد ...

ولذلك فلقد كتبت (العروة الوثقى) وأفاضت فى الحديث عن هذه القضية الهامة ، ونبهت على أن لهذه الأمة خصائص حضارية متميزة ، وأن الحرص عليها هو بمثابة الحرص على الحصون التى تتحصن بها الأمة فى مواجهة الأعداء ، وأن التقدم والتمدن والتحضُّر وتحصيل أسباب القوة وعوامل المنعة

لايستلزم التخلى عن الأصول والجذور والقسمات الصالحة التى تميزت بها حضارتنا فى عصر نهضتها وازدهارها .. كما أن اكتساب علوم الآخرين وفنونهم ، وحذق أسباب تقدمهم وتفوقهم لا يعنى التبعية الحضارية أو الذوبان القومى ... فمن قبل انفتح العرب والمسلمون على مختلف الحضارات والثقافات، وتأثروا كثيرا ، ولكن دون أن يفقدوا ذاتيتهم المميزة وشخصيتهم الخاصة ، وأيضا فلقد انفتح الأوروبيون - وهم فى طريقهم للخروج من عصورهم المظلمة - على الحضارة العربية الإسلامية ، وأخذوا منها الكثير ، ولكن دون أن يصبحوا حضاريا - عربا أو مسلمين !...

*** والتكافؤ فى القوة هو معيار العلاقات الدولية ...**

ففى ساحة السياسة الدولية ، وميدان العلاقات بين الدول ، لا وزن للفكر المجرد أو الوصايا الأخلاقية ، وليس غير التكافؤ فى القوة - سواء أكانت قوة ذاتية أم مكتسبة - سبيلا للحفاظ على التوازن فى العلاقات والروابط السياسية وفى هذا المجال اتخذت (العروة الوثقى) أحداث السياسة الدولية نماذج تعلّم الشرقيين من خلالها موازين السياسة العالمية ومعايير العلاقات بين الدول والحكومات ، وذلك حتى يتجهوا إلى بعث قوتهم الذاتية الكامنة ، ثم يضيفوا إليها ما يستطيعون من مصادر القوة المكتسبة ، باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد لاتخاذهم مكانا لائقا فى المجتمع الدولى الذى لا يحترم غير هذه المعايير !..

وإلقاء الضوء على سبل الاستفادة

من تناقضات الدول الأوروبية ...

فالدول الأوروبية التى كانت تسعى لاستعمار الشرق كانت مصالحها المتعارضة ومطامعها المتناقضة وأنانياتها الذاتية توجد بينها العديد من التناقضات ، فتكيد إحداها للأخرى ، إلى الحد الذى قد تعين عليها الأحرار من أبناء البلاد التى تقع تحت نير احتلالها !... وكانت (العروة الوثقى) تكشف لشعوب الشرق ما بين هذه الدول من تناقضات ... مثل ما بين إنجلترا وفرنسا، وما بين روسيا القيصرية ، وإنجلترا ... ثم تبصر العرب والمسلمين إلى أفضل السبل لاستثمار هذه التناقضات لحساب هدفهم فى التحرر والاستقلال .

*** والدعوة إلى الثورة ...**

فلم تقف (العروة الوثقى) عند حد « الإصلاح » كسبيل للتقدم والتحرر ، بل دعت إلى « الثورة » ، والثورة ضد المستعمرين بالذات ، ووجهت دعوتها للثورة إلى جماهير الشعب ، وفى مقدمتهم الفلاحون !... وفى مقال نشرته عن أوضاع مصر تحت الاحتلال الإنجليزى تحت عنوان (فرصة يجب أن لا تضيع) دعت إلى الحرب الشعبية وذكرت أن هذه الحرب أشد فعالية من الحرب النظامية ؛ لأنها أطول ، وفيها لا تسرع الهزيمة بانهزام الجيش النظامى، فقال : « إن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة ، تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم ! » ... ودعت الفلاحين المصريين إلى العصيان المدنى وإلى الحرب الشعبية ضد الحكومة الإنجليزية ، وقالت : إن ذلك هو الجهاد وهو ليس

« فتنة » كما زعم عملاء الاستعمار .. قالت : « ... إن على المصريين أن يقاتلوا لينقذوا بلادهم من أيدى أعدائهم الأجانب .... وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن ، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، فنحن ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه ، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة ... فعلى المصريين عموما ، وعلى الفلاحين خصوصا ، أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين : لا نطيع إلا حاكما وطنيا ... فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً ، بل ومن الجنس الإنجليزى نفسه ؟!...».

*** والدعوة إلى وحدة الشعوب المناضلة ضد الاستعمار ....**

فأمام العدو الواحد ـ وهو الاستعمار ـ دعت (العروة الوثقى) شعوب الشرق كله إلى التضامن والاتحاد ... ذلك أن اختلافاتها الدينية والقومية والإقليمية لم تمنع الاستعمار من أن ينظر إليها جميعا كفريسة واحدة ، شرع يلتهمها وفق خطة استعمارية واحدة !... ومن هنا كانت دعوة (العروة الوثقى) لاتحاد الأفغانيين مع الفرس ، ودعوة الجميع للتنسيق مع الهنود ، وتنبيه المسلمين ـ من مختلف الأقطار والقوميات ـ على أن رابطة العقيدة إنما تمثل قوة توحيدية فى المعركة الواحدة ضد العدو الواحد ، وهو الاستعمار !...

وهكذا حددت العروة الوثقى أهدافها، وأعلنت منهجها ... وكانت هذه الأهداف وذلك المنهج ، وما تجسدا فيه من مقالات نشرتها المجلة : الترجمة الأمينة لمبادىء التنظيم .. تنظيم (جمعية العروة الوثقى) ...

.. لكنها ... توقفت !..

وأدرك الاستعمار الإنجليزى الخطر الكبير الذى تمثله جريدة (العروة الوثقى) على نفوذه فى المستعمرات العربية والشرقية ، وخاصة بمصر والهند، وأدرك أن حصار الجريدة هو السبيل لتوقفها ، فهو لا يستطيع منع صدورها من باريس ، ولكنه يستطيع أن يفرض الحصار الشديد كى لا تدخل البلاد التى يحتلها أو يمتد إليها نفوذه ، فإذا أغلقت أبواب الشرق أمام (العروة) الجريدة ، انعدمت أداة الوصل والتفاعل والتوجيه بين عقود (العروة) التنظيم !

وهذا ما فعله الإنجليز؟!..

* لقد فرضوا الرقابة على أجهزة البريد كى لا تحملها إلى القراء !...

* ورصدوا العيون والجواسيس من حول الذين اشتبهوا فى قيامهم بتوصيلها أو حيازتها ، فأرهبوهم وهددوهم !...

* ثم جعلوا مجلس الوزراء بمصر يسن تشريعا ويصدر قانونا يعاقب بموجبه من يحوز عددا من أعداد (العروة الوثقى) بدفع غرامة تتراوح ما بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها ؟!...

* أما فى الهند فلقد أصدرت حكومتهم الاستعمارية قانونا جعل حيازة عدد من (العروة الوثقى) « جريمة » ، يعاقب حائزها بالحبس لمدة سنتين وبغرامة مقدارها مائة جنيه ؟!..

هكذا دخلت الإمبرطورية البريطانية الاستعمارية معركة حياة أو موت ضد جريدة (العروة الوثقى) !... ولقد أثمرت الحملة الإنجليزية والحصار الذى فرض على المستعمرات كى يمنع تسرب أعداد الجريدة الثورية ، أثمر الغاية

التى أرادها الإنجليز ، فلم تعد بالاستطاعـة أن تصل إلـى أيدى القراء ، الأمـر الذى فرض عليها التوقف والاحتجاب بعد صدور العدد الثامن عشر ، فقط ، من أعدادها !..

ثمانية عشر عددا فقط من (العروة الوثقى) هـى التى صدرت... صدر عـددها الأول فى ١٣ مـارس ١٨٨٤ م (١٥ جـمـادى الأولـى ١٣٠١ هـ) .. وصدر عددها الثامن عشر- والأخير- فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م (٢٦ ذى الحجة ١٣٠١ هـ) .. ومع ذلك فلقد صنعت هذه الأعداد الثمانية عشر الشيء الكثير فى صراع العرب والشرق ضد الاستعمار !..

لقد كانت (جمعيةالعروة الوثقى) : التنظيم السرى ، الفكرى والسياسى ، الذى نشأ وتكون تعبيرا عن يقظة الشرق ضد الخطر الاستعمارى الزاحف على أوطانه ، ودليـلا على اتخـاذ مـوقف الرفض والمقـاومـة ضد الخطـر الاستعـمارى ..

وكانت جريدة (العروة الوثقى) اللواء الفكرى الذى رفعته المقاومة العربية والشرقية ضد الاستعمار ، فالتف حوله المناضلون ، كما كانت السلاح الذى أيقظ الغافلين لما يبيته الاستعمار لأوطانهم من مكائد وأخطار ..

صحيح أن الاستعمار وأعوانه قد أفلحوا فى أن يوقفوا الجريدة ، ويصيبوا التنظيم بالجمود والتفكك ... لكن التأثيرات التى صنعتها (العروة الوثقى) قد عاشت ونمت وامتدت فى مختلف بلاد العرب والشرق ، حتى تحولت إلى ثورات وانتفاضات ، وصحف ومجلات ، وأحزاب وجمعيات أقضت مضاجع الاستعمار ، واقتلعت جذوره من المستعمرات بعد كفاح طويل ومرير ...

لقد توقفت (العروة الوثقى) الجريدة .... ولكن مقالاتها ظلت تنسخ باليد ، ويتناقلها الناس سرا ، يطالعها أعداء الاستعمار ويتدارسونها على الأضواء الخافتة للمصابيح والشموع ... وليس بين زعماء الوطن العربى والشرق الذين تصدوا للاستعمار منذ أواخر القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين من لم يقرأ مقالات (العروة الوثقى) .. جميعهم طالعوا مقالاتها .. وكثير من المجلات التى صدرت بعد ذلك قد أعادت - مراراً وتكراراً - نشر هذه المقالات ، حتى لقد أصبحت بمثابة الدستور يدرسه المناضلون ضد الاستعمار ، ويتخذون منه أداة لإيقاظ الحس الوطنى والقومى عند الشعوب !..

وبعد سنوات من توقف (العروة الوثقى) الجريدة ضعفت وتفككت (العروة الوثقى) التنظيم ... لكن روح هذا التنظيم وأفكاره وأهدافه ظلت حية ، بل ومشتعلة فى نفوس الذين ارتبطوا به ونالوا شرف عضويته ، حتى لقد أصبح العديد من أعضاء هذا التنظيم قادة لثورات الشرق الوطنية ، ومفجرين لطاقات شعوبهم الثورية ضد الغزاة المستعمرين ... كما أصبحت تجربة هذا التنظيم الوطنى الثورى النموذج الذي ظل ينبه الأمة دائما إلى أهمية « التنظيم » كسلاح لا غنى عنه فى الصراع ضد الاستعمار ...

ويكفى أن نشير إلى :

* أن سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) - وهو واحد من أعضاء (العروة الوثقى) - هو الذى قاد ثورة الشعب المصرى فى ١٩١٩ م .... وأعلن فى خطبه الثورية أثناء هذه الثورة أن جذورها إنما تعود إلى النشاط الذى نهض به جمال الدين الأفغانى ضد الاستعمار !..

* وأن الأمير عبد القادر الجزائرى (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣ م) ـ بطل المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى ـ كان مع عدد من أبنائه أعضاء فى هذا التنظيم !..

* وأن الأديب والعالم اللبنانى الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ـ ١٩٠٩ م) كان يتحدث عن تأثير (العروة الوثقى) فيقول : « إنه ما كان أحد ليشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان ! » .

* وأن الزعيم العراقى سليمان الكيلانى كان يقول ـ كلما طالع عددا من أعداد (العروة الوثقى) ـ : « يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا .. ! » .

* وأن الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) قد تحدث عن مقالات (العروة الوثقى) وكيف أنها كانت فتحا جديدا ليس له مثيل فى عصره ولا فى القرون التى سبقت ذلك العصر ، فقال : « لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا قرون قبله بعض ما كان (للعروة الوثقى) من إصابة من موقع الوجدان من القلب ، والإقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا ؟! » .

* وحتى الإمام محمد عبده ـ وهو الذى كان رئيس تحريرها ـ فإنه كان يتأملها بعد أن توقفت ، ويفكر فى المستوى الذى بلغته ، والتأثير الذى أحدثته ولا زالت تحدثه ، ثم يعجب بها ويتعجب منها ـ وهو أحد صناعها ـ ويقول : «إننى لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها ؟!..» .

لقد توقف صدور جريدة (العروة الوثقى) ... لكن تأثيرها لم يتوقف ..

بل لقد ازداد .. فلقد عادت فصدرت ، ولا تزال تصدر ، فى كل كلمة حق ، وصحيفة صدق ، ومجلة رأى تناضل لتجديد الفكر وإحياء روح الأمة ومقاومة الاستعمار ...

ولقد توقف تنظيم (جمعية العروة الوثقى) ... ولكن تأثيره لم يتوقف ... بل لقد انتشر وتزايد ... وذلك عندما أصبح العديد من أعضائه والمتأثرين بفكره قادة لأحزاب وجمعيات وحركات فكرية وسياسية تناضل ضد الاستعمار، وتعمل لنهضة الأمة وتقدمها ، وتسير على درب (العروة الوثقى) وتواصل رسالة الرائد الخالد جمال الدين !...

★★★

قصة مدينتين

★ القاهرة .. ★ وبغداد ..

القاهرة :

عمرها الآن ـ بالتقويم الميلادى ـ ألف وثمانية وعشرون عاماً .. وبالتقويم الهجرى : ألف وتسع وخمسون سنة !.. ولقد تعاقب على الحكم فيها ، خلال عمرها هذا مائتان واثنان وثلاثون حاكما ، ما بين خليفة وملك ، وسلطان وخديوى ، ووال وغاز ، وباشا ، ورئيس جمهورية ، وأمير !..

وعندما تحدث عنها المفكر العربى عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ /١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) قال : « إنها مدينة المدن ، وحاضرة الدنيا ، وتاج البرية جمعاء ! »..

هذه هى (القاهرة) التى وضع أساسها القائد الفاطمى جوهر الصقلى (٣٨١هـ / ٩٩٢ م) فى شهر شوال سنة ٣٥٨ هـ (يوليو سنة ٩٦٩ م) .. بعد أن انتصر على جيش الخلافة العباسية ، وأصبحت مصر جزءاً من الدولة الفاطمية التى كانت قد تأسست بالمغرب قبل ذلك بأكثر من نصف قرن .

كان الفاطميون يدركون موقع مصر من الوطن العربى ، وهو موقع الوسط والقلب ، ويدركون إمكانياتها المادية والبشرية والحضارية ، وهى إمكانيات جعلتها تتمرد على وضع الولاية التابعة لعاصمة الخلافة ، وتستقل على يد

أحمد بن طولون (٢٢٠ ـ ٢٧٠ هـ / ٨٣٥ ـ ٨٨٤ م) . وكانوا يطمحون إلى مد حدود دولتهم إلى الشرق من مصر .. فقرروا أن تكون مصر قاعدة دولتهم، وأن تكون لهم فيها عاصمة ترمز إلى قوتهم الفتية القاهرة .. فكانت تلك العاصمة هى (القاهرة) !

ولأن الفاطميين كانوا يريدونها عاصمة مصر ، تتجسد فيها طاقات مصر وإمكانياتها ، لم يقيموها كما كان الغزاة والغرباء يقيمون عواصمهم فى فترات الاحتلال . فعلى طول تاريخ مصر عرفت البلاد نوعين من العواصم :

الأول : تمثل فى تلك العاصمة الوطنية التى أحبها الشعب ، ومنحها ولاءه، فى الهزائم والانتصارات ، فى السراء والضراء .. لأنها كانت الرمز لحضارته ووطنيته وعقائده وصراعه ضد الغزاة منذ أن بناها الملك « ميذا » سنة ٣٤٠٠ ق.م ، وسماها (منف) ..

الثانى : تمثل فى تلك العواصم التى أقامها الغزاة ، بعيدا عن منف ، وحاولوا أن يجعلوها صورة لحضارتهم الغريبة عن مصر ، وأن يفرضوا منها على المصريين مايناقض العقائد والعادات والتقاليد التى تميزهم عن هؤلاء الغزاة .. فالهكسوس ـ فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ـ عندما غزوا مصر ، أقاموا لهم عاصمة ـ غير منف ـ فى شرقى الدلتا ، وسموها (أواريس) ... والإسكندر الأكبر ـ والإغريق والبطالمة والرومان ـ قد اتخذوا (الإسكندرية) عاصمة لهم منذ تأسيسها سنة ٣٣٢ ق.م .. ورغم أن (منف) قد فقدت أهميتها فى ظل (أواريس) ، و(الإسكندرية) إلا أن ولاء الشعب ظل لعاصمته الوطنية .. وظلت عواصم الغزاة مدنا « أجنبية » قد زرعت فى محيط لا يبادلها الود ولا يمنحها الولاء !..

أما الحكام الذين لم يدخلوا مصر غزاة ولا مستعمرين فإنهم قد ربطوا العواصم التى أقاموها بعاصمة مصر الوطنية ، فأصبحت امتدادا عضويا لها ، يرمز إلى وحدة التاريخ ، وأيضا إلى تطوره واستمراريته !.. فـ (منف) كانت قد بنيت على الساحل الغربى للنيل ، فى المكان المواجه الآن لضاحية حلوان .. ثم امتد عمرانها إلى الجهة الشرقية للنيل ، شمالى وجنوبى حصن بابليون .. فلما جاء القائد العربى عمرو بن العاص (٥٠ ق . هـ ـ ٤٣ هـ / ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) ليقيم عاصمة جديدة ، بعد أن حرر مصر من الاحتلال البيزنطى ، وأدخلها فى الدولة العربية الإسلامية ، كانت مدينة (الفسطاط) ـ التى أقامها (سنة ٢١ هـ / سنة ٦٤١ م) ـ فى شمال حصن بابليون ، الذى يقع إلى الشمال الشرقى ـ عبر النيل ـ من منف ، فكانت ضاحية للعاصمة المصرية الوطنية .. وفى (سنة ١٣٤ هـ / سنة ٧٥١ م) أقام الوالى العباسى على مصر مدينة (العسكر) فكانت هى الأخرى ، إلى الشمال الشرقى من (الفسطاط) !.. ثم جاء أحمد بن طولون فأقام (سنة ٢٥٨ هـ / سنة ٨٧٠ م) مدينة (القطائع) وجعلها إلى الشمال الشرقى من (العسكر) !.. وأخيراً جاء جوهر الصقلى ليبنى (القاهرة) فى نفس المكان ، أى إلى الشمال الشرقى من (العسكر) ... فلما جاء صلاح الدين الأيوبى فأقام ـ مع القلعة ـ سور القاهرة (٥٧١ـ ٥٧٣ هـ / ١١٧٦ ـ ١١٧٧م) وجدنا هذا السور يضم كل عواصم مصر العربية الإسلامية وبمعنى أدق كل الضواحى التى قامت للعاصمة الوطنية بعد الإسلام.. فلما نما العمران واتسعت المدينة ، أصبحت قاهرة اليوم هى (القاهرة الكبرى) التى تضم الجيزة ، على البر الغربى للنيل .. أى أن عاصمة مصر العربية اليوم ـ (القاهرة) ـ هى عاصمة مصر منذ أقدم عصور التاريخ ، منذ بناء (منف)

سنة ٣٤٠٠ ق.م. فعمرها الحقيقى أكثر من خمسة آلاف عام ؟! وعمر القاهرة هو حلقة من حلقات ذلك التاريخ الطويل والعريق..

ولقد كانت القاهرة كمصر ، بل كانت التجسيد والرمز لمصر .. عرفت النصر والهزيمة ، وعاشت السراء والضراء ، وحكمها الأبطال ، ولم تخل حياتها من الأقزام !.. لكن صفحات مجدها وانتصاراتها كانت كثيرة وساطعة الدنياء ومقاومة شعبها كانت دائمة - حتى وإن هدأت أو استترت - للذين صنعوا الهزائم أو جلبوا على شعبها البؤس والشقاء ..

فكتب الأدب والتاريخ زاخرة بالحديث عن التقدم والعمران والرفاهية التى عاشتها القاهرة قرونا طويلة ، وإن تكن متقطعة ، حتى لقد اشتهرت بـ (الكنانة) : كنانة الله فى أرضه !.. وبـ (المحروسة) !.

لله قاهرة المعز فإنها ... بلد تخصص فى المسرة والهنا
أو ما ترى فى كل مصر مُنْيَةً ... من جانبيها ، فهى مجتمع المنى !

وكثيرون من المؤرخين والرحالة قد كتبوا عن مشاهداتهم لعمران القاهرة وغناها ورفاهيتها وتقدمها .. ومن بين هؤلاء الرحالة الفارسى ناصرى خسرو (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) .. فلقد زار مصر ، وعاش فيها ثلاث سنوات (٤٣٩ - ٤٤٢ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م) . ووصف عمرانها وازدهار حضارتها وصفا فيه الكثير من الأعاجيب .. فسكانها يبلغ عددهم نصف مليون .. ومنازلهم جميلة الشكل ، منسقة ، بل ومرتفعة تتكون من أدوار بعضها فوق بعض ، حتى ليقول ناصرى خسرو : إنه وجد فيها منازل تتكون من أربعة عشر طابقا ؟! .. ومن هذه المنازل ما كان عدد سكانه يبلغ مائتى ساكن ؟!.. ولقد كانت الدولة - (الخليفة) - تملك فى القاهرة ثمانية آلاف مسكن ، يستأجرها الناس !..

أما حوانيت القاهرة فلقد بلغت ـ فى الكثرة والغنى والاتساع ـ إلى الحد الذى جعل منها حاضرة التجارة والمال .. فالدولة ـ (الخليفة) ـ كانت تملك فيها عشرين ألف حانوت ، يستأجرها التجار ، وإيجار الواحد منها قد يبلغ فى الشهر عشرة دنانير !.. ولقد بلغ الأمن والأمان فيها إلى الحد الذى كان معه التجار والصيارفة والصاغة يسدلون الستائر على أبواب حوانيتهم ثم يذهبون لقضاء شئونهم أو أداء الصلاة، دون خشية أو خوف على التجارات والأموال !..

ولقد أحاطتها ـ وخاصة من ناحية النيل ـ الحدائق والمتنزهات .. وبنيت «المناظر» والقصور على شواطىء بحيرات تدلت فى مياهها الأغصان وصدحت على أفنانها أعذب الأصوات لأجمل الطيور !.. بل لقد جعل الخلفاء من أسطح بعض القصور حدائق ، بما زرعوه على هذه الأسطح من زهور وأشجار ، حتى بدت هذه القصور للرائى كأنها الحديقة ، لخضرة أسطحها .. وكأنها المدينة لاتساعها !.. وكأنها الجبل لعلوها !..

وسبقت القاهرة مدن الدنيا فى معرفة « الأنفاق » !.. فالمصريون القدماء قد أقاموها فى المقابر والأهرامات .. والخلفاء الفاطميون كانوا يخرجون من قصورهم راكبين الخيل ، إلى المناظر والمتنزهات ، عبر الأنفاق التى أقاموها تحت الأرض !..

وعرفت القاهرة إضاءة الشوارع ليلا .. حتى لقد أتى عليها عصر كانت الحركة تستمر فيها طوال الليل ، ثم تغلق متاجرها بالنهار !.. واستمر ذلك حتى عصر الحاكم بأمر الله .. وكانت مياه النيل تنتقل ـ للشرب والطعام والنظافة والاستحمام ـ من النهر إلى البيوت والحمامات بنظام دقيق وبديع .. فإلى الشوارع الضيقة والحارات يحمل الرجال الماء .. أما الشوارع الواسعة فيحمل

الماء إليهـا أسطول يبلغ تعداده ٥٢,٠٠٠ جمل !.. فلما أنشئت قلعة الجبل ، حفرت ـ فى الصخر ـ بئر يوسف العجيبة ، وأقيمت قناطر العيون ومجاريها ، كى تجرى عليها المياه التى ترفعها الروافع .. فكانت ـ ولا زالت ـ شاهدا على ما بلغته القاهرة فى الرفاهية والعمران منذ تاريخ بعيد !..

وفى الصناعة تقدمت القاهرة على كثير من المدن التى عاصرتها .. فنسجت أرقى الأنسجة ، ومنها ذلك الذى كان يصنع فى « الفسطاط » ، والذى شغف به الأوربيون ، وسموه « الفستيانى » نسبة إلى « الفسطاط » !.. وصنعت الخزف الذى بلغ فى الشفافية حدا نافس فيه الزجاج !.. وقامت بها « دار صناعة » السفن ، حربية ومدنية .. وقال ناصرى خسرو إنه رأى فيها سفنا يبلغ طول الواحدة منها ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ قدم !.. و « دار الصناعة » هذه هى التى قلدها الأوربيون ، بل وأخذوا اسمها ، بعد تحويره ، فسموها «الترسانة » (ARENAL) .

أما المساجد والجوامع والخوانق .. والتكايا .. والمدارس .. والخانات .. والوكائل .. والأسواق .. والمناظر .. والقصور .. والقناطر .. والحمامات .. والفوارات ـ (النافورات) ـ فلقد كانت ـ فى العدد والروعة ـ مضرب الأمثال .. بل لقد أصبحت أضرحة الموتى ومشاهد الأولياء ومزارات الصالحين تحفا فنية حتى لقد تحدث الرحالة العربى ابن جبير (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ /١١٤٥ـ ١٢١٣م) عن « قرافة » القاهرة فقال : « إنها إحدى عجائب الدنيا » ..

ولم تكن مشاهد القاهرة هذه حكرا على فئة أو طبقة .. فلقد كان الجميع ـ بنسب متفاوتة ـ يستمتعون بها فى المناسبات ، وكانت مناسبات الاستمتاع عند

أهل القاهرة كثيرة كثيرة .. فأعياد هذه المدينة بلغت - خصوصا فى العصر الفاطمى - ثلاثين عيدا على مدار العام .. منها الإسلامى ، والمسيحى .. ومنها الدينى والقومى .. الخ .. الخ .. وزاد من فرص الاستمتاع هذه ما كان يفيضه الخلفاء على العامة من عطاء .. عطاء دولة عجز الرحالة ناصرى خسرو عن تقدير حجم ثروتها وثرائها فكتب يقول : « إننى لم أستطع حصر ثروتها ولا قدرها ، ولم يسبق لى رؤية تلك النعمة فى بلد آخر ! » ..

وفى مجالات الفكر والعلوم أصبحت (القاهرة) منارة ومعقلا وطليعة أيضا ففيها نشأ وعاش وكتب وأبدع الكثيرون من الأدباء والشعراء والرسامين والفقهاء والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام .. وفيها قامت للفكر والعلم أرسخ المؤسسات وأعرقها وأشهرها فى دنيا العروبة وعالم الإسلام ..

* فجامع عمرو بن العاص .. أول مسجد وضع للناس فى أفريقيا ، ظلت ساحته مصدر إشعاع لدروس الفقه والقرآن والحديث والسيرة والقصص والتاريخ ، حتى لقد أحصى أحد المؤرخين حلقات الدرس فيه وقت العشاء فوجدها مائة وعشراً !..

* والجامع الأزهر ، الذى انتسب إلى فاطمة الزهراء - بنت الرسول عليه الصلاة والسلام - أسسه جوهر الصقلى فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٣ أبريل سنة ٩٧٠ م) .. ثم افتتح للصلاة فى ٩ رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢٤ يونيو سنة ٩٧٢ م) .. وبعد قليل تحول من مجرد جامع للصلاة والعبادة إلى مركز للعلم ، تلقى فيه الدروس ، بدأ ذلك فى صفر سنة ٣٦٥ هـ (أكتوبر سنة ٩٧٥ م) فى بداية عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٤٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٥٥ -

٩٩٦م) .. ثم ما لبث أن ارتقت نظم العلم والدراسة فيه وتطورت من دروس فقه وفلسفة يلقيها الفقهاء والقضاة والمتكلمون إلى ما يشبه الجامعة العلمية التى تدرس فيها علوم الدين والدنيا ، من علوم القرآن والحديث والكلام والفلسفة والفقه .. الخ .. إلى علوم الهندسة والطب والحساب والفلك والموسيقى .. الخ .. ورصدت له الأموال التى تأتيه من الأوقاف .. وأصبح ـ كما يقول المؤرخون ـ بحق : « قبلة للعلماء والطلاب ، دون تمييز فى الجنس أو اللغة أوالطبقة ؟! » ..

* وغير الأزهر .. شهدت القاهرة ذلك المجمع العلمي والفكرى الذى أنشأه الخليفة الفاطمى الفيلسوف : الحاكم بأمر الله (٣٧٥ ـ ٤١١هـ / ٩٨٥ ـ ١٠٢١م) والذى سماه (دار الحكمة) أنشأها فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (مارس سنة ١٠٠٥م) ولقد ضمت (دار الحكمة) هذه أقساما يشرف عليها كبار علماء العصر ، ويدرس فيها الطلاب علوم الدين والدنيا : القرآن وعلومه .. والحديث وعلومه .. والتاريخ ونقده .. والأدب وفنونه .. واللغة وعلومها .. والفلك ، والطب ، والهندسة ، والرياضة ، وشكل الأرض ، وجغرافية البلدان ! ورغم أن مذهب الحكام كان المذهب الشيعى ، فلقد كانت مذاهب الإسلام السنية تدرس فى (دار الحكمة) ، وكانت تعقد فيها ـ وبحضور الخليفة ـ المناظرات بين الفقهاء والعلماء والمتكلمين .. وفى (دار الحكمة) أنشىء قسم خاص للنساء يتعلمن فيه !.. وضمت مكتبة غنية فتحت أبوابها للجمهور ، وكان فيها ـ إلى جانب الكتب الكثيرة ـ جميع ما يتطلبه الاطلاع والبحث من أدوات : أوراق ، وأقلام ، ومحابر ، وأحبار ، والمشرفون على المكتبة يقدمون كل ذلك لروادها بالمجان !.. وغير مكتبة دارالحكمة .. كان للقاهرة مكتبتها العامة التى فاقت ـ فى الضخامة والغنى ـ خيال المؤرخين .. حتى ليقول عنها المؤرخ أبو شامة

(٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ ـ ١٢٦٧ م) ـ وهو الذى رآها بعد أن نهبت أكثر من مرة ـ : « إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة ! » ..

وبالطبع ، فلم تكن المطبعة قد اخترعت بعد .. ولكن دار الكتب هذه قد أنشأت قسما خاصا لنسخ الكتب وتجليدها وزخرفتها .. وكان قسم النسخ هذا يحرص على أن تضم المكتبة نسخا من الكتب بخط مؤلفيها ، زيادة فى الثقة ومبالغة فى التوثيق .. كما حرص القائمون بالنسخ على توفير عدد كبير من نسخ كل كتاب ، تيسيرا لاطلاع أكثر من باحث وقارىء على الكتاب الواحد فى الوقت الواحد .. حتى لقد نافسوا المطبعة ـ قبل وجودها ـ فى بعض الأحيان!..ويكفى أن نعلم أن هذه المكتبة قد ضمت كتبا منها ما بلغ عدد أجزائه ستين مجلدا ؟! .. وكان عدد نسخ (كتاب العين) للخليل بن أحمد فيها ثلاثين نسخة ؟!.. وعدد نسخ كتاب (الجمهرة) لابن دريد مائة نسخة ؟!.. أما تاريخ الطبرى ـ بأجزائه الكثيرة ـ فلقد بلغ عدد نسخه فى مكتبة القاهرة ألفا ومائتى نسخة ؟!!..

وكانت لهذه الكتب خزائن ـ (دواليب) ـ تحفظ فيها .. ورفوف توضع عليها .. وكانت لها فهارس تيسر الاستفادة منها على القراء والباحثين .. ومن الأوقاف التى خصصت لهذه المكتبة كان يأتيها المال الذى يكفى كل وجوه الإنفاق ..

هكذا .. ضمت القاهرة الغنى الفكرى إلى الغنى المادى ، وجمعت إلى غذاء الجسم غذاء الروح ..

***

لكن تاريخ القاهرة وأيامها لم تكن كلها على ما يرام !..

بل لعل من أسباب إعجابنا الشديد بوجهها المشرق وعمرانها الباذج : فجيعتنا حينما نقرأ صفحات البؤس والفاقة التى مرت بها ، والتى عانى منها أهلها ، فى جزع حينا ، وصبر فى أغلب الأحايين !..

فمجتمع ذلك التاريخ كان مجتمعا طبقيا، تتفاوت فيه حظوظ الناس وأنصبتهم من الثروة والرفاهية والمال .. وتتفاوت كذلك حظوظهم من تحمل المصاعب والمشاق التى تأتى بها الحياة والأيام .. والمؤرخ المقريزى (٧٦٥ - ٨٤٥ هـ / ١٣٦٤ ـ ١٤٤١ م) يكتب لنا عن طبقات المجتمع فيقول إنها سبع طبقات . فالسماوات سبع .. والأرض سبع .. وكذلك الطبقات !.. بل وإن بين هذه الطبقات وبعضها من الفروق والمسافات مثل ما بين السماوات والأرض ؟! فهناك :

١ ـ الحكام والولاة ، ورجال الدولة وكبار الموظفين .. ويسميهم المقريزى «أهل الدولة » !..

٢ ـ وكبار الأغنياء .. ويسميهم المقريزى « أهل اليسار والغنى ، من التجار والملاك أولى النعمة من أهل الرفاهية » !..

٣ ـ ومتوسطو الثراء .. المشتغلون بالأعمال التجارية المتوسطة ، والحرفيون الذين يملكون أدوات إنتاج صناعاتهم الحرفية .

٤ ـ والفلاحون ـ (سكان الريف) ـ الذين يفلحون الأرض لحساب «الملتزمين » ـ (الإقطاعيين) .

٥ ـ والصناع ـ (العمال) ـ من أصحاب المهن ، الذين لا يملكون أدوات إنتاجهم ، فيبيعون قوة عملهم للآخرين ..

٦ ـ والفقراء الذين لديهم من الدخل أقل مما يلزمهم من المصروفات ..

٧ ـ والمعدمون .. ذوو الحاجة والمسكنة !..

وفى مجتمع طبقى كهذا ، كان طبيعيا أن تستأثر القلة بالكثرة!.. فالضرائب والمكوس كثيرة .. والحروب كثيرة .. والمجاعات والأوبئة ـ بسبب نقصان ماء النيل ـ كثيرة أيضا !.. وفى كل هذه المحن يتحمل الفقراء والعمال والفلاحون والمعدمون كل الأهوال .. أما الأغنياء فإنهم يستفيدون منها ، ويزدادون ثراء على ثراء !.. وكما يقول المقريزى فإن الصنف الأول والثانى ـ أى طبقة الحكام وكبار الأغنياء ـ « يستفيدون من المحن والشدائد » .. أما الطبقة المتوسطة فإنها تنفق مما عندها ، لا تحتاج ولا تزيد ثروتها .. أما الطبقات الأربع الأخرى: الفلاحون ، والعمال ، والفقراء ، والمعدمون ، فإن المقريزى يعبر عن حالهم فى المحن والشدائد التى مرت بالقاهرة فيقول إنهم « ما بين فان ، وميت ، ومشتهى للموت فى مثل تلك الظروف ! » ..

ولقد كتب المقريزى كتابا عن تاريخ المجاعات التى مرت بالقاهرة ـ ويسميها: الشدائد ـ وحدثنا كيف اضطربت الأسعار على عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) فبعد أن كان سعر الخبز : عشرة أرطال بدرهم ، أصبح سعر الرغيف ـ الرغيف الواحد ـ خمسة عشر دينارا ، أى : مائة وثمانين درهما ؟!.. وكيف نفدت الحبوب ، ونفدت الماشية ، فأكل الناس الخيل والبغال والحمير .. والكلاب .. ثم أكلوا جثث الأموات ..

وكيف هجم الجياع على بغلة الوزير فذبحوها وأكلوها ، فلما شنق جماعة منهم أكلت جماعة أخرى جثث المشنوقين ؟!.. وكيف هجم الناس على قصر الخليفة فأكلوا ما فيه .. حتى أصبح الخليفة مسكينا ليس لديه سوى حصير يجلس عليه ، وتأتيه « جراية » طعام تتصدق عليه بها ابنة أحد العلماء ! .. ولم ينقذ المدينة من الفوضى إلا استدعاء الجيش الذى كان يقوده بدر الجمالى (٤٠٥ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠١٤ ـ ١٠٩٤ م) فأعاد الأمن ، وهدد التجار والمحتكرين ففتحوا مخازن الغلال التى كدسوها !.. وفى مقابل ذلك خضعت الخلافة لحكم العسكر فذبلت مؤسسات الفكر وثمار العقل ، وأصبحت الغلبة للجند والقوة فى البلاد !..

وكانت أوروبا الاستعمارية قد جمعت جموعها ـ تحت ستار الدين ـ لتعيد السيطرة الاستعمارية على الوطن العربى ، فجاءت الحملات الصليبية لتعيد حلم المستعمرين الأوربيين فى امتلاك الشرق ، ذلك الحلم الذى بدأ الإسكندر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) تحقيقه منذ ما قبل الميلاد !.. وكانت عينهم على الأرض المقدسة فلسطين .. ولكنهم أدركوا أن مصر القوية هى جسر لمدد عربى سيأتى ضدهم من المغرب العربى ، وهى قلب وقاعدة للحرب ضد الكيانات الاستيطانية التى أقاموها فى فلسطين ، فاتفق رأيهم على أن الطريق لبقائهم فى القدس وفلسطين يمر عبر مصر والقاهرة !.. وبعبارة المؤرخ العربى ابن واصل (٦٠٤ ـ ٦٩٧ هـ / ١٢٠٨ ـ ١٢٩٨ م) ـ وهو الذى عاصر تلك الأحداث ـ فإن لويس التاسع قد توجه بحملته الصليبية إلى مصر ؛ لأن « نفسه حدثته أن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج .. وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية ! »..

وعلى نفس درب الصليبيين ، ولتحقيق نفس الحلم وذات الأهداف .. جاء الفرنسيون بقيادة بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م) سنة ١٧٩٨م ، وجاء الإنجليز بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ م .. وبقيادة ولسن ١٨٨٢ م ..

لكن القاهرة سهرت ـ وخاصة منذ الدولة الأيوبية ـ على تدبير الأمور وتوفير الظروف التى تبدد أحلام الصليبيين ، وتعيد لفلسطين عروبتها .. فكانت فتوحات صلاح الدين التى بدأت (سنة ٥٧٥هـ / سنة ١١٧٩م) طريقا سارت عليه القاهرة حتى استطاع السلطان الأشرف خليل (٦٨٩هـ / ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) أن ينهى الوجود الصليبى بتحرير عكا سنة ١٢٩١ م .. وسهرت كثيرا ، وطويلا ، لمقاومة كل موجات الغزو ، ومختلف جنسيات الغزاة ..

وكما صمدت أمام الغزو وقاومته .. فلقد صمدت أمام المظالم الاجتماعية ، وقاومت الظالمين .. لأن أهلها كانوا دائما يحلمون بأن تكون صفحات تاريخ مدينتهم كلها زاهية ، وبأن يكون واقع حياة سكانها خاليا من الاستعمار والقهر والاستغلال ..

* ولقد استخدم أهل القاهرة وسيلة « المنشورات » فعبروا بواسطتها عن رفضهم للظلم ومقاومتهم للظالمين .. كما استخدموا المواكب والهتاف فى المظاهرات .. فلقد كان الفاطميون شيعة ، يغضبهم الثناء على بنى أمية ، وخاصة معاوية بن أبى سفيان .. فكانت المظاهرات فى القاهرة تهتف : «معاوية خال المؤمنين ، وخال على ! » ـ إشارة إلى أنه أخو صفية زوج الرسول ﷺ وهى من أمهات المؤمنين ؟!..

* وعندما زعم الخليفة الفاطمى العزيز بالله أنه يعلم الغيب ! صاغوا مقاومتهم واعتراضهم شعرا كتبوه فى منشورات وزعوها ، ووضعوا واحداً منها على المنبر ، فلما صعد العزيز ليخطب قرأ فى المنشور :

بالظلم والجـور قـد رضـينا وليس بالكفـر والحـماقـة
إن كنت أعطيت علم غـيب فـقل لنا كـاتب البطاقـة ؟!

فهم يعارضونه .. ويتحدونه أن يعلم كاتب المنشور !..

* بل لقد استخدم أهل القاهرة ألوانا أخرى من « الفن » و « الأدب » للتعبير عن ضجرهم من الظلم ، ولتحدى الحاكمين !.. فعندما منعهم الإرهاب من التعرض للحكام بالشكايات ، صنعوا التماثيل التى حاكت صور الأحياء ، وألبسوها الملابس ، وجعلوا أيديها تمتد بالشكايات ، معترضة مواكب الطغاة ؟!.. بل وكتبوا شكاياتهم تلك فى « شكل قصص » ؟!..

والمؤرخ ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ / ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣ م) يتحدث فى كتابه (البداية والنهاية) عن هذا الأسلوب من أساليب المقاومة عند أهل القاهرة ، فيقول : « إنهم كانوا يكتبون ظلاماتهم للحاكم بأمر الله ، ولأسلافه ، فى صورة قصص .. حتى لقد عملوا صورة امرأة من ورق ، بخفيها وإزارها ، وفى يدها قصة بها من الشتم واللعن والمخالفة شىء كثير . فلما رآها الحاكم ظنها امرأة ، فذهب ناحيتها ، وأخذ القصة من يدها فقرأها ، ورأى ما فيها ، فأغضبه ذلك جدا ، فأمر بقتل المرأة ، فلما تحقق أنها من ورق ازداد غيظا إلى غيظه ؟!.. » .

* وكذلك استخدموا ـ فى الاحتجاج على ظلم المماليك والعثمانيين ـ سلاح

الإضراب .. فأضرب التجار عن فتح الحوانيت ، والحرفيون عن العمل ، وطلبة الأزهر عن تلقى الدروس .. بل لقد أضربوا - أحيانا - عن الأذان والصلاة ، وأغلقوا أبواب المساجد ، واستخدموا مآذنها فى الصياح والاحتجاج والدعاء على الظلمة بالهلاك والفناء !.. وذلك حتى يستفزوا مشاعر العامة إلى خطر الظالم وجور الظالمين !!..

وعندما عجز « النقد » للوالى التركى عن ردعه وردع جنوده الذين احترفوا السلب والنهب والاغتصاب .. اجتمع شيوخ القاهرة وعلماؤها وقادة تجارها وأهل الرأى فيها فى دار القضاء - (بيت القاضى) - فى ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ م فصاغوا مطالبهم فى أول وثيقة سياسية للحقوق عرفها الشرق العربى فى العصر الحديث ..وفيها طلبوا :

١ - ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان ..

٢ - وأن تجلو الجنود عن القاهرة ، وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة ..

٣ - وألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه ..

٤ - وأن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى ..

ولما رفض الوالى خورشيد باشا مطالب الشعب هذه ، اجتمع هؤلاء القادة فى اليوم التالى وأعلنوا ثورتهم « السياسية - الدستورية » ، فقرروا - للمرة الأولى - عزل الوالى ، واختاروا محمد على باشا والياً على البلاد .. اختاروه بإرادتهم هم ، ودعوا السلطان العثمانى إلى إقرار هذا الاختيار الشعبى .. فانعزل الوالى ، واستجاب السلطان لإرادة زعماء القاهرة ، بعد أن كان قد أصدر « فرمانه »

بنقل محمد على واليا على جدة .. وفى هذه الوثيقة ـ التى أرخت لتولى الشعب اختيار حاكمه فى عصرنا الحديث ـ كتب الشيخ محمد المهدى (١٢٣٠هـ/١٨١٥ م) : « إن للشعوب ـ طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية ـ الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم ؛ لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة ! » ..

* وكما عرفت القاهرة التمردات والانتفاضات والثورات ضد مظالم حكامها وفساد النظم الاجتماعية الجائرة التى فرضها ورعاها هؤلاء الحكام .. كذلك عرفت التعبئة والاستبسال والتضحية ضد موجات الغزو والاستعمار ..

١ ـ فلمواجهة الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ، أعلن فى القاهرة «النفير العام» ـ (التعبئة العامة) ـ فقدم الناس الأموال ، بل وخرجوا قاطبة ، فى زحف تزلزلت له الأرض ـ كما يقول المؤرخون ـ وأسرعوا إلى «المنصورة» لقتال الغزاة .. وفى هذا الزحف خرج مع المقاتلين : الأمراء والعلماء والقضاة والصوفية والأشراف ..الخ .. الخ ..

٢ ـ ونابليون ـ الذى دوخ أوروبا وأخضعها ـ حكمت القاهرة على غزوته لمصر سنة ١٧٩٨ م بالفشل عندما ثارت ضده ثورتها الأولى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م (١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ) .. وفى هذه الثورة كانت المساجد والجوامع ـ وخاصة الأزهر ، والسلطان حسن ـ وكذلك الأحياء الشعبية مراكز للمقاومة ، وأهدافا دكتها المدافع الفرنسية التى نصبت على التلال والجبال !..

ثم كانت ثورة القاهرة الثانية ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ م (٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هـ) بمثابة التأكيد على فشل المشروع الفرنسى لاحتلال البلاد ..

٣ ـ وعندما جاءت حملة فريزر ، الإنجليزية ، سنة ١٨٠٧م لتحقق لحساب الإنجليز ما فشلت فرنسا فى تحقيقه ، ونزلت هذه الحملة فى الإسكندرية ، ثم اتجهت إلى رشيد .. اجتمع زعماء القاهرة ، فى شكل « جبهة وطنية » سماها المؤرخ الجبرتى (١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م) (جمعية بيت القاضى) ، وقرروا دعم مقاومة رشيد « والاستعداد لحرب الإنجليز وقتالهم وطردهم » وقيام وحدة بين الشعب والحكومة « ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد .. وأن يساعدوا بعضهم بعضا على دفع العدو! » ـ .. وقرروا كذلك تحصين القاهرة ، استعدادا لملاقاة الغزاة ، ونهض بتلك المهام الوطنية أبناء القاهرة جميعا ، على اختلاف المذاهب والأديان : المسلمون ، والأقباط « نصارى ديوان المكس ، والنصارى الأروام ، والشوام !.. »..وحمل الناس السلاح الذى وزع عليهم ، وطلب الشيخ عمر مكرم (١١٦٨ ـ ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢ م) نقيب الأشراف ، من طلبة الأزهر ترك الدروس وحمل السلاح !..

٤ ـ وكما عرفت مصر بناء الجيش الوطنى ، بعد أن حررتها الدولة العصرية الحديثة من سلطة المماليك العثمانيين .. شهدت القاهرة أولى الثورات الوطنية التى أنابت الأمة فيها جيشها الوطنى كى يتقدم صفوف الثوار .. فقاد أحمد عرابى (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩ هـ/ ١٨٤١ ـ ١٩١١ م) الجيش المصرى فى المظاهرة التى أحاطت بقصر عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ، والتى

أجبرت الخديوى توفيق (١٢٦٢ ـ ١٣٠٩ هـ/١٨٥٢ ـ ١٨٩٣ م) على تمكين الثورة من تحقيق مطالبها :

أ ـ الوقوف فى وجه النفوذ الأجنبى الاستعمارى .

ب ـ والديمقراطية النيابية والدستور ..

ج ـ وصبغ الإدارة بالصبغة الوطنية ، حتى تكون « مصر للمصريين » !..

٥ ـ وفى مارس سنة ١٩١٩ م (جمادى الثانى سنة ١٣٣٧ هـ) شهدت القاهرة بدء الثورة الوطنية ضد الاستعمار الإنجليزى .. وهى الثورة التى وحدت صفوف الأمة خلف سعد زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ/ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م) وأحدثت مدّا وطنيا ضد الاستعمار على امتداد الوطن العربى ، وكانت نموذجا تعلم منه زعماء الوطنية فى آسيا وأفريقيا الكثير من الدروس .

٦ ـ وأخيرا .. شهدت القاهرة ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م (أول ذى القعدة سنة ١٣٧١ هـ) بداية أحداث ثورة يوليو .. تلك الثورة التى فتحت صفحة جديدة فى نضال مصر والعرب ضد الاستعمار والصهيونية ، وانتقلت بالأمة العربية ونضالها إلى طور جديد ..

فكم فى صفحة تاريخ القاهرة من عبر ودروس !.. وكم فى هذه الصفحة من مباهج وآلام .. وكم لشعب هذه المدينة الصامدة من مواقف وتضحيات .. فلا الأيام الحلوة تنسيه المخاطر المحتملة .. ولا الشدائد والمحن تفقده الأمل فى تحقيق الانتصارات ؟!.

.. بغداد ..

عمرها الآن ، بالتقويم الهجرى : ألف ومائتان واثنان وسبعون عاما - (١٢٧٢) - وبالميلادى : ألف ومائتان وخمس وثلاثون سنة - (١٢٣٥) - ! .. وفى هذا العمر المديد تعاقب على حكمها مائة وسبعون حاكما ، ما بين خليفة ، ووال ، وباشا ، وأمير ، وصاحب شحنة ؟! ، ومملوك ، وديكتاتور ، وملك ، وثائر ! .. أما أسماؤها التى اشتهرت بها أو عرفت فى هذه القرون ، فهى - غير بغداد -: مدينة المنصور .. ومدينة الخلفاء .. والمدينة المدورة .. والزوراء .. ومدينة السلام !..

هى « مدينة المنصور » ؛ لأن بانيها هو الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥ م) ثانى خلفاء الدولة العباسية .. وهى « مدينة الخلفاء » لأنها كانت مقر حكم خلفاء الدولة العباسية ، والمنارة التى شعت منها على العالم الحضارة التى ازدهرت فى عصر هؤلاء الخلفاء ، فهى ثمرة لقيام الدولة العباسية ، وعاصمة لها ، وميدان الإبداع الفكرى والحضارى الذى اقترن بحكم العباسيين لبلاد العرب وعالم الإسلام .

ومع كل ذلك ، فلم تكن بغداد هى أولى عواصم العباسيين ، وإن كانت قد أسدلت الستار الكثيف على ما تقدمها من عواصمهم .. فعقب نجاح الثورة العباسية ضد بنى أمية اتخذ العباسيون « الكوفة » عاصمة لهم .. ثم انتقلوا إلى « الأنبار » .. ثم بنوا « الهاشمية » ، وجعلوها لهم عاصمة .. لكنها كانت عواصم مؤقتة ، ناسبت دولة فى مرحلة التأسيس ..فلما استقرت السلطة لبنى العباس ، ودخل المجتمع العربى الإسلامى - تحت حكمهم - فى مرحلة جديدة ، استهدف فيها تحقيق طموح حضارى عظيم ، وقفزة كبرى فى مختلف فروع

التقدم وميادينه ، وضحت الحاجة إلى عاصمة جديدة ، تتسع لما فى النوايا والأفكار والعزائم والخيالات !..

ولقد خرج الخليفة المنصور ـ بنفسه ـ ومعه الأعوان يستكشفون الموقع المختار للعاصمة الجديدة ، وانتهت بهم رحلة الاستكشاف إلى موضع به قرية صغيرة ، وبالقرب منها دير للرهبان .. وسأل المنصور كاهن الدير ورهبانه عن مناخ المنطقة وتقلبات الطبيعة فيها : الحر ، والبرد ، والأمطار .. وعما بها من الحشرات والهوام !.. وقضى هناك النهار والليل ، يختبر ـ عمليا ـ صدق ما سمع من معلومات .. وأرسل أعوانه فباتوا فى مختلف القرى القريبة من هذا المكان.. وفى الصباح اجتمع بهم ، وسمع منهم ، وشاورهم فى صلاحيات المكان كى يكون موضعا للعاصمة !.. ثم درس مع مستشاريه الميزات العسكرية للموقع ، فعنده يكون اقتراب نهر دجلة من نهر الفرات ، حيث يكون الفاصل أربعين كيلومتراً ، الأمر الذى يجعل النهرين مانعين طبيعيين يحميان بغداد !... ودرس كذلك ميزات المكان فى التجارة والاقتصاد .. ولقد علم أن هذا الموقع كان ـ منذ الحضارة والدولة السامرية القديمة ـ مركز التقاء التجارة الصحراوية .. وهو الآن معبر للتجارة القادمة من الصين ، كما أن طرق الإمدادات مفتوحة بينه وبين أقاليم الجزيرة وأرمينية ، وكذلك الحال مع الرقة والشام ، وله إمكانات المواصلات البرية والنهرية معا .. وأيضا فإن هذا الموقع يتوسط عددا من أهم مدن العراق ، مثل : البصرة ، وواسط ، والكوفة ، وإقليم «السواد » الذى تتركز فيه الثروة الزراعية !..

وعندما استقر رأى المنصور ومستشاريه على هذا الموقع ، وقررالتنفيذ ، جمع المهندسين والصناع والعمال من مختلف المدن والأقاليم ، بل وجمع

كذلك عددا من المفكرين والعلماء والفقهاء وأهل العدل والصلاح والتقوى ؛ كي يشاركوا فى بناء عاصمة الدولة ومستقر حضارة الإسلام !.. وذكر المؤرخون أن الذى تولى الإشراف على « ضرب » الطوب الذى بنيت به بغداد وقام بعده ، وباشر عملية البناء كان هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان !..

وبعد أن خطط المهندسون ـ بالرماد ، على الأرض ـ صورة المدينة ، تجول المنصور فى ربوع التخطيط ! .. ثم أعطى إشارة البدء بالتنفيذ ، ووضع بيده أول لبنة فى بنائها ، قائلا : باسم الله ، والحمدلله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .. ابنوا على بركة الله !.. وكان ذلك سنة ١٤٥هـ (٧٦٢ م) ..

وفى البداية قامت بغداد على الشاطىء الأيمن لنهر دجلة .. وبعد ست سنوات (١٥١ هـ/ ٧٦٣ م) أنشأ المنصور حى « الرصافة» ، على الضفة اليسرى لدجلة ، تجاه حى « الكرخ » القائم على الضفة اليمنى ، فقامت «المدينة المدورة » يتوسطها قصر الخليفة ، وبجواره المسجد الجامع ، ويحيط بها سوران ، أحدهما داخلى والآخر خارجى ، وجعل لها أربعة أبواب ، سميت بأسماء الجهات التى تواجهها :

١ ـ باب خراسان .

٢ ـ وباب الكوفة .

٣ ـ وباب الشام .

٤ ـ وباب البصرة ..

وحول قصر الخلافة والمسجد الجامع والدورالتى قامت لمجالس الخلافة وجهاز الدولة قامت الأحياء - (الأرباض) - وبنيت المنازل والمنشآت ..

ورغم أن أرض بغداد تعلو سطح البحر باثنين وثلاثين مترا ، إلا أن حرها ملحوظ ، ومن ثم عرفت وسائل عدة للتغلب على هذا الحر .. فالمنصور قد بنى « القبة الخضراء » على ارتفاع يزيد عن ثمانين ذراعا ؛ ليشرف منها على المدينة وبساتينها !.. وفى شوارعها امتدت الجداول والقنوات تظللها الأشجار وتحيط بها الحدائق الغناء ، وتناثرت فى أفناء بيوتها أحواض المياه التى ترتفع من فوقها القباب المنقوشة والمزخرفة .. حتى لقد قال أحد المستشرقين - آدم متز - : « إن بغداد كانت شبيهة بمدينة البندقية بإيطاليا ! » ... بل لقد اتخذ أهلها - كى يبعدوا الحر عن مجالسهم - الأسراب والأنفاق تحت الأرض !..

وكانت منازل الأثرياء والخاصة ثلاثة أقسام : للنساء « مقاصير الحرم » ، وللخدم « حجرات » ، وللرجال « مجالس السلام » ، ويطوف بهذه الأقسام سور يجمعها .. أما منازل العامة والشعب فلا أقسام بها ، وليس لها أسوار !..

وفى بغداد تناثرت المنشآت التى نلمح فى عمارتها وزخرفتها فن الفرس الذى طوعه الذوق العربى ودخل به إلى حيث أصبح بعضا من نمط العمارة والزخرفة والفن فى حضارة العرب الإسلامية .. ولقد بلغت جوامعها الكبرى أحد عشر جامعا .. أما مساجدها فلقد بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مسجد !.. وتناثرت فيها الأسواق والحمامات والمكتبات وأحياء الحرف والصناعة والوكالات والخانات وتكايا الصوفية ، وخلوات العُبّاد ، ومنتديات الأدب ، ودور العلم والحكمة والترجمة والمدارس ، كذلك دور اللهو والمتنزهات !.. وفى مسجد

الخيزران ، الذى بنته زوجة الخليفة المهدى كانت تضىء قناديل الذهب والفضة التى بلغت ثلاثمائة قنديل ! ولقد رصعت صحنه بأحجار سوداء شديدة اللمعان ، تعكس صور من عليها كأنها المرآة !.. وعلى أحجار الجدران ومسطحاتها رسم الفنانون ثمرات التفاح ، والغصون ، والأزهار ، حتى كان المصلى يشعر أنه يصلى فى حدائق غناء وبساتين زاهية مزهرة !..

وبين الكرخ والرصافة كان الناس ينتقلون بالقوارب والسفن ، عبر نهر دجلة، ولقد كثرت فى مياهه السفن التى عرفت « بالسميريات » - نسبة إلى أهل سميرة - حتى لقد بلغ عددها فى زمن الخليفة الموفق (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ثمانين ألفا، وكان أصحابها يربحون منها فى اليوم الواحد تسعين ألف درهم !.. ولقد كانت هذه السفن - فى المناسبات - تغطى كل سطح النهر ، بين أحياء بغداد ، فكان باستطاعة الناس العبور من إحداها إلى الأخرى، وهكذا حتى يبلغوا الشاطىء الآخر ، وكأنهم يعبرون الطريق !.. وكان للأثرياء قواربهم وسفنهم الخاصة ، كما تفنن الخلفاء والسراة فى أشكالها ، فحاكت صور الحيوانات : الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، والدلفين - (دابة بحرية ضخمة وسمينة) - : على نحو ما صنع الخليفة الأمين (١٧٠ - ١٩٨هـ/ ٧٨٧ - ٨١٣ م) ..

وإذا كان وجه بغداد قد عرف - فى البداية - ملامح فارسية ، بسبب الدور الذى لعبه الفرس فى قيام الدولة العباسية ، فإن وجهها العربى قد تألق منذ عصر هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، وخاصة بعد تخلص الدولة من أسرة البرامكة ، الفارسية (١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م) .. وهو الوجه الذى قدمته للعالم ، عبر الحضارات واللغات والقرون ، قصص (ألف ليلة وليلة)!..

لقد أصبحت بغداد عاصمة للخلافة العباسية ، وهى الخلافة التى شهد عصرها ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، ومن هنا تمثلت فى بغداد وتجسدت فى نشاطاتها ملامح هذه الحضارة وقسماتها ..

* فالثراء والغنى الذى جعل هارون الرشيد يحدث السحب فى السماء فيقول لها : سيرى حيث شاءت الريح ، وأنزلى مطرك فى أى مكان .. ففى النهاية سيأتى ما يثمره ماؤك إلى خزائنى !.. هذا الثراء جعل بغداد مركز مال الدنيا وتجارتها لعدة قرون .. فالتجارة تمر عبرها من الهند وجزرها ومن الصين ، إلى آسيا الصغرى فأوروبا .. وهى مركز لإنتاج الحرير ، والفسيفساء .. الخ .. الخ .. حتى لقد كان بها أحياء للحرف والصناعات والحرفيين والصناع ، وحتى لقد رأينا الكثير من أعلام الفكر فيها ينتسبون - بالأسماء والألقاب - إلى الحرف والصناعات !..

* وبينما كانت الدنيا - وراء حدود العرب المسلمين - تنام فى عصور جهالتها المظلمة ، كانت الحضارة العقلانية المستنيرة تسطع شموسها فى بلاد العروبة والإسلام .. وكان ذلك أشد ما يكون وضوحا وتألقا فى بغداد ..

ففيها كانت طلائع الفكر القومى العربى ، الذى قال رواده - من أمثال الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ / ٧٨٠ - ٨٦٩ م) - : إن العروبة حضارة إنسانية المضمون ، وإنها ليست عصبية عرقية ولا تعصبا للنسب .. وإن العادات والأخلاق ، واللغة ، والتربية ، روابط تؤلف بين الناس ، بصرف النظر عن الأنساب القديمة التى سبقت عصر التعريب ..

وفيها تبلور الاتجاه العقلانى فى الحضارة العربية الإسلامية ، فرأينا عقلانية متميزة ، لا تنكر الوحى والدين ، وإنما توفق بين الدين وبين الفلسفة

فمقام العقل فيها فى القمة ، مع اهتمام كبير بعقيدة الأمة وتراثها الدينى .. حتى لنستطيع أن نقول : إن بغداد قد « سكّت » عملة الحضارة العربية ، وعلى أحد وجهيها العروبة ، وعلى الوجه الآخر : العقلانية !..

وفيها ازدهرت الترجمة عن اللغات الأخرى ، فدخل إلى اللغة العربية فكر اليونان والفرس والهنود والسريان الخ .. الخ .. وكان « بيت الحكمة » الذى أقامه الخليفة المأمون (١٧٠ - ٢١٨ هـ/ ٧٨٦ - ٨٣٣ م) أكبر وأشهر مجمع علمى عرفته الدنيا فى ذلك التاريخ ..

وفيها كانت للمكتبات - محلات الوراقة - صناعة وصناع وشوارع وبنايات !.. وفيها كانت المساجد ، وقصور الأمراء والسراة حلبات للمناظرات الفكرية ، حيث تصارعت الأديان والمذاهب ، وتعددت الفرق والتيارات !.. وفيها قامت المدارس .. بل لقد كانت أغلب مساجدها مدارس ، قامت فيها مجالس أعلام العلماء تشع النور لعدة قرون !..

وإليها جاءت كنوز الفكر التى جهلها وارثوها ، فأنبتت وأثمرت ، واكتسبت الإضافات التى جعلت لها مضمونا جديدا وشكلا فريدا .. ثم خرجت حضارة جديدة تجتهد كى توقظ الغافلين خلف حدود العرب والإسلام !..

لكن بغداد التى عرفت « التقدم » أصابها - فى فترات أخرى - « التراجع » !.. والعاصمة التى كانت تجسيدا « للازدهار » أصابها « الذبول » زمنا غير قصير!..

* فلقد خيل لواحد من خلفائها - المعتصم - أن الاعتماد على الجند المماليك المجلوبين من أواسط آسيا سيضمن للدولة جيشا طيعا ، لا يتكون من أناس هم

طرف فى الصراعات التى كانت قائمة على الساحة الداخلية .. لكن سرعان ما وضح خطر هذا الخطأ .. فلقد زادت قوة تلك المؤسسة العسكرية المملوكية، حتى بسطت نفوذها على منصب الخلافة، بدلا من أن تكون أداة بيد الخلافة !.. ولما كانت هذه المؤسسة « جندا ـ عسكرا » فقد كانت تنفر من الفلسفة والعقلانية !.. ولما كانت غريبة ـ قوميا ـ عن الأمة ، فلقد أهملت قسمة العروبة فى الحضارة !.. ومن ثم رأينا تراجع « العروبة ـ والعقلانية » ـ وهما أبرز قسمات الحضارة العربية الإسلامية ـ عن مكانهما منذ أن سيطر المماليك على بغداد فى عصر الخليفة المتوكل (٢٤٧ هـ / ٨٢١ ـ ٨٦١ م) فبدأ بتراجع بغداد جمود الحضارة العربية وتراجعها !.. حتى لقد انتقلت العاصمة من بغداد إلى تلك المدينة التى بنيت كى تكون معسكراً لهؤلاء المماليك ، وهى « سامراء» (٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م) .. ولقد بنيت سامراء معسكراً يتبع بغداد ، وشحنت بالجند المماليك لخدمة خليفة بغداد ، ولكن الريح غيرت الاتجاه ، فأصبح الجند المماليك هم السلطة الفعلية ، ومن ثم غدت « سامراء » هى العاصمة بدلا من بغداد؟! .. وحتى عندما عادت بغداد مقرا للخلافة ، فى عهد الخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) فإن ازدهارها الحضارى لم يعد كما كان ، ولا حتى قريبا مما كان !..

* وبعد أن كان سلطان بغداد ممتدا على عالم الإسلام ، من المحيط الأطلسى إلى الصين .. ذبل هذا السلطان ، فقامت الدويلات فى الأطراف ، واستطاعت الدولة الفاطمية ـ بعد فتحها لمصر ـ أن تجمع حول القاهرة معظم أجزاء الوطن العربى ، وتحدى الشاعر الفاطمى ابن هانىء الأندلسى بنى العباس فقال :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟

فقل بنى العباس : قد قُضى الأمر !

وبانحسار سلطان بغداد دب الوهن إلى داخلها ، فعرفت الفتن الطائفية ، وخاصة بين السنة والشيعة ، حتى لقد راح ضحيتها (٣٦١ هـ / ٩٧١م) سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة منشأة تجارية ، وثلاثة وثلاثون مسجداً ، ومن الأموال ما لا يقع تحت الحصر ، وجاء عليها حين من الدهر سيطر عليها فيه اللصوص ، وقاسمهم قادة جندها المغانم والمنهوبات ! .. ويحكى المؤرخون كيف استطاع اللص « بنى حمدى » بالتواطؤ مع « ابن شيرزاد » كاتب القائد التركى « توزون » (٣٣١ هـ / ٩٤٢م) السيطرة على المدينة ، فأفزع أهلها حتى كان الناس يحرسون منازلهم ومتاجرهم ليلاً وفى أفواههم الأبواق ! وعز عليهم النوم مخافة اللصوص ، وأقفرت المنازل وخلت الدور من سكانها حتى كان ملاكها يدفعون أجراً لمن يسكن بها كى يحفظها من اللصوص ؟! ..

* وعندما بلغ أمر بغداد إلى هذا الحد أصبحت لقمة سهلة للدويلات التى قامت من حولها .. فخضعت للدولة البويهية (٢٢٢ هـ / ٩٤٥م) ، ثم للدولة السلجوقية (٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م) .. إلخ .. إلخ .. ثم كانت كبرى نكباتها عندما دمرها المغول على عهد هولاكو ، فى (العشرين من محرم ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨م) وقتلوا خليفتهم المستعصم بالله ، وأزالوا منها خلافة بنى العباس .. ولما عادت كمدينة تستأنف سيرها عادوا فدمروها ثانية على عهد تيمورلنك (٨٠٤ هـ / ١٤٠١م) .. ثم ما لبثت أن خضعت لحكم الدولة الصفوية ، الفارسية عندما غزاها الشاه إسماعيل الصفوى (٩١٤ هـ /

١٥٠٨م) ... ثم كانت نهاية مطاف التراجع والتردى سقوطها فى قبضة الأتراك العثمانيين (٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م) .. فتبادلوا حكمها مع الصفويين الفرس ، والمماليك ، حتى استولى عليها الإنجليز ١٩١٧ م ؟! .. وبقيت كذلك حتى تحررت بالثورة المعاصرة والحركة الوطنية الحديثة !..

وطوال هذه الفترات التاريخية التى تراجعت فيها السلطة العربية القوية من بغداد - شكلا ومضمونا ، أو مضمونا مع الاحتفاظ بشكلها - تراجعت كذلك قسمات الحضارة ومظاهر الازدهار عن بغداد ..

* فعندما زارها الرحالة ابن جبير (٥٣٩ - ٦١٤هـ/١١٤٥ - ١٢١٧ م) كانت الخلافة العباسية لا تزال قائمة بها ، ولكنها كانت تحت تسلط الدول التى تغلبت على الأطراف .. فوصف ابن جبير - فى رحلته - قصور بنى العباس ودورهم التى تغطى ربع بغداد - أو أزيد - وقال : « إن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقلون اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ، ولا يظهرون ، ولهم المرتبات ؟!» .. وعندما استحضر ابن جبير أوصاف بغداد التى كتبها المؤرخون القدامى ، وقارنها بما يرى ، كتب يقول : « ... وهذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، إلا أنه قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها . وهى - بالإضافة إلى ما كانت - كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص !.. أين هى مما كانت عليه ؟! هى اليوم داخلة فى قول الشاعر :

لا أنت أنت ولا الديار ديار !

وكذلك رآها وتحدث عنها الرحالة ابن بطوطة عندما زارها (٧٢٧هـ /

١٣٢٧م) وأورد فى رحلته شعراً لإمامها القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر ، يتحدث فيه عن أن بغداد قد غدت مدينة للقلة الغنية ، وأن الشعب والعامة قد أصبحوا فيها غرباء ، كأنهم « مصحف فى بيت زنديق » !!

بغداد دار لأهل المال واسعة　　وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشى مضاعا فى أزقتها　　كأننى مصحف فى بيت زنديق !

وتحت الحكم العثمانى بلغ تراجع بغداد وتخلفها حد المأساة !... ونحن إذا تصفحنا أوصافها من خلال كتب الرحلات التى كتبها الرحالة الذين زاروها خلال تلك الحقبة رأينا كيف تجاور فيها وتحالف عليها : السفه التركى !.. والفقر الفكرى !.. والتخلف العمرانى !.. وكيف أصبحت - فى النهاية - «مخزنا » للتجارة التى سيطر عليها الأجانب ، وخاصة شركة الهند الشرقية ، الإنجليزية ، الأمر الذى جعل الاستعمار الإنجليزى هو الوارث لحكم الأتراك وسيطرتهم فى بغداد !..

فبعد أن كانت منارة لدور العلم ومدارسه ، ومراكز الترجمة والحكمة ، وحلبات المناظرة والبحث .. انتشرت فيها تكايا الصوفية ، من « قادرية » و « بكتاشية » ، و « مولوية » ، و « رفاعية » و « نقشبندية » و « قلندرية » و « شاكرية » !.. وبعد أن كانت مضرب الأمثال فى أسواق الوراقة - (الكتب) - .. أصبحت خالية من أية مكتبة أو مكان لشراء الكتب ، حتى أن من كان يريد أن يشترى فيها كتبا كان عليه أن ينتظر حتى يموت واحد من حائزيها ، فعند ذلك تباع كتبه بالمزاد ، وينادى عليها مثل الملابس القديمة !... وبعد أن كانت مركزا للعلماء ، يفد إليها طلابه من كل مكان ندر فيها من يعرف القراءة

والكتابة !... حدث لها ذلك الفقر فى الفكر والتعليم ، على حين كثرت فيها المقاهى حتى بلغت فى (١١٧٩هـ/ ١٧٦٦م) قرابة الألف مقهى ، ونصف هذا العدد طلبات يريد أصحابها فتح مقاهى جديدة ؟!..

أما قصور الولاة الأتراك والحكام المماليك فإن البذخ الذى بلغ فيها حد السفه كان هو الوجه الآخر « لعملة تخلف بغداد » .. وفى القرن التاسع عشر - (١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ) - يصف أحد الرحالة تقديم التحية للزائرين فى قصر داود باشا حاكم بغداد « ... فالحلوى تقدم فى إناء ذهبى ، يحمله خادم بيد ، وباليد الأخرى يمسك بملعقة من ذهب أيضا ، يضع الحلوى فى فم الزوار ، وبعد ذلك توضع مناشف من الحرير على ركبتى كل زائر . وتقدم القهوة ، وبعد الانتهاء منها تستبدل المناشف الحريرية ، بمناشف من « الموسلين » ، جميعا مطرزة !.. ويقدم الشربات فى أقداح جميلة وثمينة . وبعد الانتهاء من كل هذه الأشياء يصب على أيدى الحضور ماء الورد من إبريق من الفضة !. وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه؟ !! » .

أما صناعة بغداد فقد وقفت عند « أنسجة المناديل الحريرية » التى يشتريها زوار « العتبات » الشيعية المقدسة .. كما تحكمت شركة الهند الشرقية ، الإنجليزية ، فى تجارتها ، فزاد عدد السفن التجارية التى ترفع العلم الإنجليزى ، وقامت بها المنشآت التجارية الإنجليزية ، وامتدت عبرها خطوط البريد التى تأتى من الهند إلى إنجلترا ، ولذلك لم يكن غريبا ما تحدث عنه الرحالة من أن أوسع منازل بغداد وأكثرها راحة - (١٨١٦ م / ١٢٣١ هـ) -

كان هو القنصلية الإنجليزية ، التى يحرسها الجنود الهنود !.. وأن القنصل الإنجليزى ـ المستر ريج ـ كان هو أقوى رجل ببغداد !..

ولقد بقيت بغداد طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يتبادل السيطرة عليها الأتراك العثمانيون ، والمماليك الذين نجحوا فى الاستقلال بحكمها عن الأتراك العثمانيين .. وخلال فترات استقلالها عرفت ما عرفته مصر فى ظل حكم محمد على باشا ، فصارعت نفوذ شركة الهند الشرقية، الإنجليزية ، وطمحت فى الإصلاحات .. لكن تبعيتها للعثمانيين سرعان ما كانت تباعد بينها وبين الإصلاحات ، وتفتح المزيد من الثغرات أمام نفوذ الإنجليز !..

لكن بغداد لم تكن سلبية باستمرار أمام العواصف التى هبت على حضارتها وتقدمها .. فعرفت العديد من التمردات والانتفاضات ، وشارك أهلها فى الكثير من الهبّات الثورية ، ودفعواعلى درب الثورة والتمرد غالى الثمن ، وقدموا الكثير من التضحيات ..

* ففى ٢٠١ هـ (٨١٧ م) ابتليت المدينة بالجند الخارجين على النظام ، فعاثوا فيها فسقا وفسادا ، وسلبا ونهبا ، وتحالف معهم « الشطار » وصاروا جميعا سند السلطة وبطانتها وأعوانها !.. وأمام هذا البلاء اشتعلت ببغداد ثورة للعامة والجماهير ، انخرط فيها جمهور الناس متطوعين ، حتى سماها المؤرخون «خروج ـ ثورة ـ المطوعة » !.. ومن جمهور الثوار تكونت القيادة التى قادت تلك الثورة التى استمرت عاما كاملا ـ (رمضان ٢٠١ هـ ـ شعبان ٢٠٢ هـ) ـ ولقد تزعم هذه الثورة : أبو حاتم سهل بن سلامة الأنصارى ، ومعه مجلس

تكون من مندوبين عن جماهير ومتطوعى أحياء بغداد ، وكان شعار الثورة : مصحف يعلقه الثوار فى أعناقهم .. وبرج من الجص عليه مصحف وسلاح يرتفع على منازل الثوار !..

ولقد ضربت قيادة هذه الثورة مثلاً فى الصمود - حتى بعد هزيمتها - فرفضت أن تستنكر تصديها « للشطار والفساق » ، وظل الثوار رهن السجن حتى دخل الخليفة المأمون بغداد فحررهم من القيود وأكرمهم وقربهم من جهاز دولته ..

* وفى مواجهة سيطرة الجند المماليك على الخلافة ، فى العصر العباسى الثانى ، شهدت بغداد التمرد تلو التمرد ، والانتفاضة تلو الانتفاضة .. وعندما كان أبناؤها يعجزون عن إعلان التمرد فيها ، كانوا يخرجون إلى الأقاليم فيشعلون ثورتهم - ضد حكامها - من هناك !..

* وحدث ذلك أيضا ضد الأتراك العثمانيين .. فبعد أن استعادوا سيطرتهم عليها (١٨٣١م) واجهتهم إحدى انتفاضاتها .. فلما هزموها وطاردوا قادتها إلى المنافى ظلت قطاعات واسعة من جماهير المدينة وثوارها يقاومون بالكلمة ، وينتقدون استسلام المستسلمين لسيطرة الأجانب المستغلين ... يشهد لهذا الشعر الذى يقول فيه أحد هؤلاء الثوار - فى المنفى - وهو : عبد الغنى الجميل زاده :

أجول بطرفى فى العراق فلا أرى ... من الناس إلا مظهر البغض والشحنا

فخيرهم للأجنبى وقبحهم ... على بعضهم بعضا يعدونه حسنا

طوينا على الزوراء لا درّ درها ... بساطا متى ينشر يعدونه طعنا

وإنى وإن كنت ابنها ورضيعها ... فقد أنكرتنا ، لا سقاها الحيا مزنا !

* وعندما اتسعت الثغرات التى نشأت عن الحكم العثمانى لبغداد ، فغدت أبوابا مد منها الإنجليز نفوذهم إلى مقدراتها ، كان إسهام أهلها فى حركة اليقظة العربية الحديثة التعبير عن ذلك الإحساس الذى تملك العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو أن « العروبة المتحررة » هى طوق النجاة لهذه الأمة من التخلف العثمانى الذى فتح الباب للاستعمار الأوروبى الحديث .. فقام ببغداد ١٩٠٩م فرع (للمنتدى الأدبى) الذى قام بالقسطنطينية ، والذى كان من بواكير التنظيمات القومية العربية التى عبر من خلالها المفكرون والأدباء عن التمايز القومى العربى والطموح فى الإصلاح .. كما تأسس فيها (النادى الوطنى العلمى) ... وكذلك شهدت نشاطا (لجمعية العهد) التى تكونت من الضباط العرب - وخاصة العراقيين - فى الجيش العثمانى ، وسعت إلى إيقاظ الأمة العربية ، واستقلالها عن الأتراك العثمانيين.

لكن الاستعمار الغربى الذى حرس شيخوخة الدولة العثمانية - « دولة الرجل المريض » - حتى يرثها ، كان قد قرر الإجهاز عليها فى أثناء الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها .. فوزع - فيما بينه - فى اتفاقية « سيكس - بيكو » ١٩١٦م الولايات العربية العثمانية ، وكانت بغداد ضمن المناطق التى قرر الإنجليز احتلالها .. وتم لهم ذلك فى ١١ مارس ١٩١٧ م ، فتحول العراق إلى أحد أقاليم الانتداب الإنجليزى ؟! .. بعد أن كان منطقة نفوذ لشركة الهند الشرقية ، الإنجليزية؟ !..

غير أن بغداد عادت إلى الثورة تقاوم بها الاحتلال الإنجليزى ، فثارت فى

آخر أبريل ١٩٢٠ م وطالب أعيانها وقادة الرأى فيها بعقد جمعية وطنية عراقية تقرر مصير البلاد ومستقبلها .. ثم تصاعدت الثورة فى ٣٠ يونيو ١٩٢٠م ، واستمرت إلى قبيل ربيع ١٩٢١ م .. وحتى يهدىء الإنجليز من حدة الثورة ، قرروا أن يكون حكمهم من وراء واجهة حكم عربية ، فأحضروا الأمير فيصل ابن الحسين إلى بغداد فى ٢٩ يونيو ١٩٢١ م ، ونصبوه ملكا على العراق فى ٢٢ أغسطس من نفس العام ..

وفى ظل هذه الواجهة العربية انتخبت «جمعية تأسيسة » اجتمعت فى ٥ مارس ١٩٢٢ م وصادقت فى ٣٠ أبريل ١٩٢٣ م على المعاهدة « العراقية - الإنجليزية » التى قننت الانتداب الإنجليزى على العراق !.. ثم حصل الإنجليز على امتياز استخراج البترول فى كركوك !..

ومنذ ذلك التاريخ ، وخاصة بعد أن حصلت العراق على عضوية (عصبة الأمم) فى ٣ أكتوبر ١٩٣٢ م ، ظل الصراع محتدما بين الحركة الوطنية فى بغداد خاصة ، والعراق عامة ، وبين النفوذ الإنجليزى فى البلاد .. الشعب يطمح للحرية ، ويناضل فى سبيل الاستقلال ..والإنجليز يسعون لتثبيت أقدامهم وتأبيد نفوذهم فى البلاد ، ويغرون أنصارهم بعقد المعاهدات التى تقنن هذا النفوذ .. ولقد نجحت انتفاضة الشعب فى بغداد (١٩٤٨م) فى أن تسقط مشروع معاهدة « بورت سموث » الذى أراده الإنجليز وأنصارهم بديلا لمعاهدة ١٩٣٠ م .

وظل المد والجزر بين الطرفين قائما ؛ لبقاء النفوذ الاستعمارى بواسطة

العملاء ، حتى كانت ثورة العراق التى حررت بغداد من الاستعمار وعملائه فى ١٩٥٨ م .. والتى أعادت لبغداد وجهها العربى الناصع ، فغدت من جديد البوابة الشرقية للأمة العربية ، والحارس الساهر على عروبة العراق والخليج..

وهكذا أثبتت بغداد ـ من خلال مسيرتها مع الحياة والأحياء ـ أن جودة المعدن وصلابته كفيلة بدحر التحديات .. ولذلك عادت المدينة التى نشأت نموذجا للحضارة العربية فى عصورها الأولى .. عادت لتسهم فى تجديد هذه الحضارة فى عصرنا الحديث .



المصادر

آدم ميتز : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) .
طبعة بيروت ١٩٦٧ م .

إبراهيم أنيس (دكتور) : (من أسرار اللغة) طبعة القاهرة ١٩٥٨ م .

ابن أبى الحديد : (شرح نهج البلاغة) طبعة القاهرة ١٩٥٩م .

ابن الأثير : (الكامل فى التاريخ) طبعة القاهرة .

(التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية) . طبعة القاهرة ١٩٦٣ م .

(أسد الغابة) طبعة دارالشعب .القاهرة .

ابن بطوطة : (رحلة ابن بطوطة) . طبعة دار التحرير .القاهرة

ابن جبير : (رحلة ابن جبير) طبعة دار التحرير . القاهرة .

ابن حنبل : (المسند) طبعة القاهرة ١٣١٣ هـ .

ابن خلدون : (المقدمة) طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ .

(العبر) طبعة بيروت .

ابن سعد : (الطبقات) طبعة دار التحرير . القاهرة .

ابن الصيرفى : (الإشارة إلى من نال الوزارة) طبعة القاهرة ١٩٢٤ م .

ابن عبد الحكم : (فتوح مصر وأخبارها) طبعة ليدن ١٩٢٠ م.

ابن عبد ربه : (العقد الفريد) طبعة القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن عساكر : (تهذيب تاريخ ابن عساكر) طبعة دمشق

ابن كثير : (البداية والنهاية) طبعة القاهرة .
أبو شامة : (الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية)
طبعة القاهرة ١٢٨٧ هـ .
أسامة بن منقذ : (الاعتبار) تحقيق : د . فيليب حتى .
طبعة برنستون ١٩٣٠ م .
أسد رستم : (الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على)
طبعة بيروت ١٩٢٩ م .
الأفغانى : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة
طبعة القاهرة ١٩٦٨ م .
أمين سامى : (تقويم النيل) طبعة القاهرة ١٩١٦ م .
إيلى ليفى أبوعسل : (يقظة العالم اليهودى) طبعة القاهرة ١٩٣٤ م .
ألبرت برسوم : (سيناء مصرية أولا وأخيرا)
(الأهرام) ٧/ ١ /١٩٧٤ م .
بروكلمان : (تاريخ الشعوب الإسلامية)
طبعة دار العلم للملايين . بيروت .
بلنت : (التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر)
طبعة القاهرة - الثانية -
الجاحظ : (البيان والتبيين) طبعة بيروت ١٩٦٨ م .
(رسائل الجاحظ) تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ١٩٦٤م .
الجبرتى : (عجائب الآثار) طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .
جورج كيرك : (موجز تاريخ الشرق الأوسط) طبعة الألف كتاب . القاهرة .

الرافعى : (تاريخ الحركة القومية) طبعة القاهرة ١٩٥٥ م .
زامباور : (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى)
طبعة القاهرة ١٩٥١ م .
الزركلى : (الأعلام) طبعة بيروت .
ستانلى لينبول : (سيرة القاهرة) طبعة القاهرة ١٩٥١ م .
الطبرى : (التاريخ) طبعة دار المعارف . القاهرة
عبد القادر المغربى : (جمال الدين الأفغانى) طبعة دار المعارف القاهرة .
على مبارك : (الخطط التوفيقية)طبعة القاهرة - الأولى -
فيليب حتى (دكتور) : (تاريخ العرب) - مطول - طبعة بيروت ١٩٥٣ م
القلقشندى : (صبح الأعشى) طبعة القاهرة .
لوتسكى : (تاريخ الأقطار العربية الحديث) طبعة موسكو ١٩٧١ م .
محمد رشيد رضا : (تاريخ الأستاذ الإمام) طبعة القاهرة ١٩٣١ م .
محمد عبد الله عنان (دكتور) : (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية)
طبعة القاهرة ١٩٥٩ م .
محمدعبده (الإمام) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة
طبعة القاهرة ١٩٩٣ م .
محمد عمارة (دكتور) : (إسرائيل .. هل هى سامية)طبعة القاهرة ١٩٦٧م.
(عندما أصبحت مصر عربية) طبعة بيروت ١٩٧٤م .
(معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت ١٩٧٥م .
(المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

محمد فؤاد عبد الباقى : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة .

محمد مختار المصرى : (كتاب التوفيقات الإلهامية) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٨٠م .

المسعودى : (مروج الذهب) طبعة القاهرة ١٩٦٦م .

المقريزى : (الخطط) طبعة دار التحرير القاهرة .

(إغاثة الأمة بكشف الغمة) طبعة القاهرة ١٩٤٠م .

(اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) طبعة القاهرة ١٩٦٧ م .

مكسيموس مونروند : (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق)

ترجمة : مكسيموس مظلوم . طبعة القدس ١٨٦٥ م .

النويرى : (نهاية الأرب) طبعة القاهرة .

مجموعة من المستشرقين : (دائرة المعارف الإسلامية) الطبعة العربية - الثانية - القاهرة .

★★★

الفهـــرس

الوعى بالتاريخ
وصناعة التاريخ

إن « قراءة» التاريخ تضيف إلى عمر القارئين أعمار السابقين! . .

أما « الوعى » بالتاريخ ، فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة فى تغيير الواقع . . واستشراف المستقبل ! . .

ولذلك ، استحال التقدم ، وانعدمت النهضة عند الذين لايعون دروس وعبر وعظات التاريخ ! . .

وحتى لا نكون من هؤلاء السفهاء ، الذين ورثوا كنوزاً تاريخية وحضارية لا يعون قيمتها . . يصدر هذا الكتاب . .

الذى يجعل من الوعى بالتاريخ إسهاماً فى صناعة التاريخ !